طه حسين

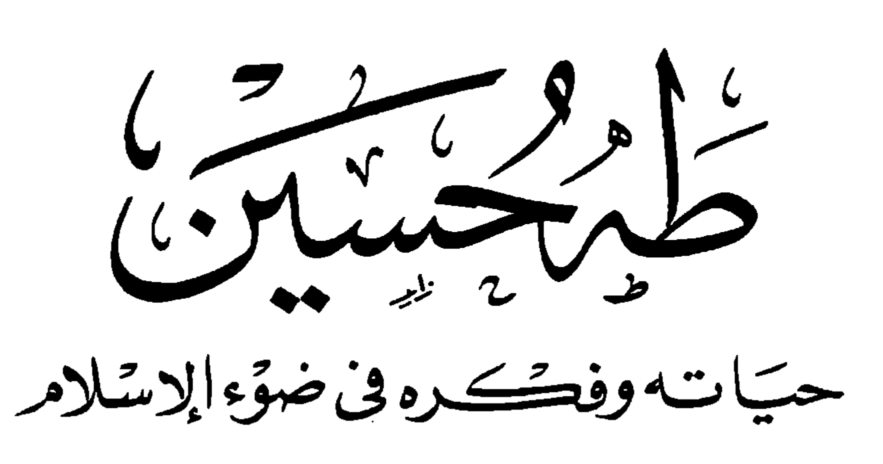
حياته وفكره في ميزان الإسلام



أنور الجندي

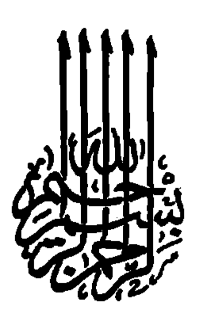
دار الاعتصام

أنور الجندي



ألحق بهذه الطبعة فصل مطول فى الرد على ما كتبته صحف :
(الهلال والجمهورية والجديد وأكتوبر والاذاعة والعربى)
مع الإجابة على التساؤل المطروح : هل غير الدكتور طه حسين آراءه فى المرحلة الأخيرة من حياته ؟

الطبعة الثانية
١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م



طه حسين

حياته وفكره في ضوء الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مـدخـــل

لمع اسم الدكتور طه حسين لمعـانا خـاطفا فى الثلاثينات عندما أصـدر كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى حمل معـه مجموعة من الآراء الخـطيرة التى تعـارضت مع أصول الإسلام ومفاهيمه فأحدثت ضـجة ضخمة واسـعة المدى فى الجـامعة والأزهر والصحافة. ثم والى الدكتور طـه مهـاجمته للرأى العـام عن طـريق الشك الفلسفى واثارة قضـايا الدين والحضـارة والفكر على نحـو بدا معـارضا للاصالة العربية الإسـلامية من خـلال دعوة جـريئة إلى طـرح نظريات الفكر الغربى فى مختلف المجالات. وقد سـار الدكتور طـه حسـين فى طـريقه ذاك لم يتخلف عنه حتى نهاية حياته فترك ركاما من الأبحاث والدراسات هى فى حاجة إلى اعادة النظر فيها على ضـوء الإسـلام. ذلك أن الدكتور طـه قد ألح الحـاحا شديدا على انه يصدر عن الفكر الإسـلامى ويشـارك فيه بأبحـاثه عن القـرآن وهامش السيرة وتاريخ الصحابة والفتنة الكبرى.

وقد جرى فى أبحاثه المختلفة مجرى كتاب الغرب واعتمد أساليبهم ومناهجهـم فى دراسة أدب العرب وتاريخ الإسلام.

والحق ان الدكتور طه حسين قد اكتسب شهرة واسـعة وأنتج انتاجـا غزيرا وكان له نشاطه الواسع فى مجال الجامعة ووزارة المعارف بالإضافة إلى مجاله فى الصحافة والتأليف. ولانريد أن نتعـجل الحكم على الرجـل وآثاره وإنما نود أن نضوء الطريق إلى فهـمه بتقـديم الوقائع والوثائق المتصـلة بحياته وفكره على النحو العلمى الصحيح حتى يجىء الحكم عليه منصـفا عادلا غير مشـوب بشىء من التحامل أو التحيز.

٢

برز طه حسين إلى الناس فى ثوب من الضجيج الشديد عندما نشر كتابه (فى الشعر الجاهلى) وكشف عن تلك الفكرة التى قدمها والتى كانت موضع أخذ ورد شديدين والتى أعطت طه حسين : ذلك الموقف الذى تردد فيه المثقفون والباحثون بين الحملة العاصفة على النحو الذى كتب به مصطفى صادق الرافعى والنقد الهادىء الذى كتب به محمد فريد وجدى وكان أخطر ما قاله طه حسين : « للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلا عن إثبات هذه القضية التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة ونحن مضطرون أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى ».

هذا أقسى ما كتب طه حسين : تكذيب القرآن وانكار نبوة ابراهيم واسماعيل ، ثم صمت طه حسين صمتا شديداً ازاء الزوبعة العاصفة التى قامت و أسرع فغادر البلاد حتى تهدأ .

لم تكد تمر شهور حتى كان حديث طه حسين عن تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية فى الشعر العربى وادعاؤه أن لليهود أثراً فى الأدب العربى ، وهى محاولة خطيرة لها دلالتها متصلة بانكار ابراهيم واسماعيل . ولم يمض طويل وقت حتى كتب مقاله عن الدين والعلم : « عام أو بعض عام» .

قال : ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وبين ما وصل اليه العلم وقال ان الدين لم ينزل من السماء وانما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

ثم كان فى نفس العام بحثه عن الضمائر فى القرآن الذى ألقاه فى مؤتمر المستشرقين وفيه حاول تفسير القرآن تفسيراً خاطئاً .

وفى نفس الوقت كانت دراساته فى كلية الآداب عن القرآن واستقدام كازنوفا ليحدث شباب مصر المسلم عن القرآن ويثير الشبهات حول المكى والمدنى وأثر النصرانية فى مكة وأثر اليهودية فى المدينة إلى آخر هذه الشبهات العاصفة .

ولم تمر إلا سنوات قليلة حتى أثار طه حسين شبهة تحريق العرب لمكتبة الإسكندرية ونشر بحث المستشرقين فى اتهام المسلمين باحراقها وحمل على أحمد زكى باشا شيخ العروبة عندما حاول الدفاع عن المسلمين .

وفى هذه السنوات كانت محاولة اتهام القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون من خلال دراسته لعدد من الشعراء الماجنين أمثال بشار وأبى نواس ومحاولة تصوير العصر كله من خلال قلة من الزنادقة مغضيا عن أثر عشرات العلماء والفقهاء والدعاة والمصلحين .

وهكذا امتد الطريق بالدكتور طه حسين دون أن يجد حرجا من معارضة الفكر الاسلامى لآرائه ، وعندما أحس طه حسين انه أصبح فى موقف لا يحسد عليه كتب على هامش السيرة وانتقل الى معسكر الوفد ، وحاول بذلك خداع البسطاء بأنه يكتب عن سيرة الرسول وأذيع أنه قد عاد إلى الإسلام مع أن كتاب (على هامش السيرة) تهكم صريح وقد كشف أمره صديقه وزميله فى مدرسة التجديد « الدكتور محمد حسين هيكل » الذى قال ان اتجاه طه حسين هذا شديد الخطر ليس على الأدب وحده ولكن على الفكر الإسلامى كله لأنه يعيد غرس الأساطير والوثنيات والإسرائيليات فى سيرة النبى مرة أخرى بعد أن نقاها العلماء المسلمون وحرروها من آثارها .

ولم يلبث طه حسين أن دعا الى الفرعونية ودعا الى الأخذ بالحضارة الغربية حلوها ومرها ، ما يحمد منها وما يعاب ، فى كتابه (مستقبل الثقافة) الذى كان منهجا لتغريب التعليم المصرى وقد تولى على أثر ذلك مناصب كبرى فى وزارة المعارف : المستشار ومراقب الثقافة والوزير بعد ذلك واستطاع خلال ذلك أن يبث آراءه ومخططاته فى التعليم كله ، ثم كانت سيطرته بعد الجامعة ووزارة المعارف على مراقبة الثقافة بالجامعة العربية ورئاسة مجمع اللغة العربية وفى

كل هذه المؤسسات له أعماله وآثاره البعيدة المدى فى مناهج التعليم والثقافة واللغة .

كل هذا كان يجرى واسم طه حسين يدوى بالشهرة وبالحديث وبالنقد وبالمعارضة وكان من حوله كوكبة من أوليائه يصورونه بصورة العميد والقائد والزعيم والمفكر والعبقرى، ومن ورائه مجموعة ضخمة من كتاب الغرب ومستشرقيه يذودون عنه ويكتبون له ويترجمون آثاره . ومع ذلك فان حركة اليقظة الاسلامية ظلت قائمة على الحق منذ اليوم الأول تكشف زيفه وترد خطأه وتبين اتجاهه وتدحض دعواه .

وقد جاءت هذه الأجيال الجديدة فلم تر هذه المعارك ولكنها رأت رجلا يوصف بأنه عميد الأدب تحاط آراؤه بهالة من التبريز والدوى ، فقد عاش بعد أن توفى مصطفى صادق الرافعى والمازنى وزكى مبارك وهيكل والزيات فاستطاع بهذا الامتداد فى العمر أن يكسب نوعا من التقدير الذى يشبه القداسة ، والواقع أن الأمر كان غير ذلك تماما وان هذه الكوكبة التى عاشت حول طه حسين لم تستطع أن تحول دون كشف زيفه ودعواه وباطله ، ذلك لأن أغلب من سار معه على الطريق فى أول الأمر لم يلبث أن عرف حقيقته ودخيلته فانصرف عنه .

وفى مقدمة هؤلاء أعلام الفكر الاسلامى والثقافة العربية فى عصره ، وما بالك بالعقاد والمازنى وهيكل وزكى مبارك ونجيب البهبيتى وفؤاد حسنين واسماعيل مظهر وتوفيق الحكيم وكلهم أصدقاء عصره وأحباب عهده وأولياء جيله ، قد كشفوا هذا الزيف وانضموا الى رواد حركة اليقظة الذين سبقوا على الطريق .

ولكى نكون على طريق الحق الذى يحتم الإسلام علينا أن نظاهره فاننا لا نتهم طه حسين بشىء ، ولا نحكم عليه ، إلا بعد أن نستعرض وقائع حياته ومفاهيمه وآراءه بالأدلة والأسانيد والوثائق .

ولعل ترتيب وقائع البحث تقتضينا أن نقدم هذا الثبت الحافل من الدراسات التى تناولت طه حسين وفكره وآراءه فى حياته وفى ابان الوقائع :

محمد الخضر حسين : نقض كتاب الشعر الجاهلى .
مصطفى صادق الرافعى : تحت راية القرآن: الرد على الشعر الجاهلى .
محمد فريد وجدي : نقد كتاب الشعر الجاهلى .
محمد لطفى جمعة : الشهاب الراصد
دكتور محمد أحمد الغمراوى : النقد التحليلى .
ابراهيم عبد القادر المازنى كتاب قبض الريح (فصول الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء ومجنون ليلى) .
السيد محب الدين الخطيب : ما أعرفه عن طه حسين (كتاب) ونشر ملحقا بالزهراء م ٣ ص ٢٦٨ .
اسماعيل أدهم : طه حسين (كتاب ملحق بمجلة الحديث م ١٩٣٨/١٢ .
محمد الهياوى : جريدة المنبر (١٩٣٩) (ابريل - مارس - ديسمبر)
الدكتور محمد غلاب : مجلة النهضة الفكرية ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ .
عباس محمود العقاد : مجلة الاثنين ٤٣/٥/٣ ، ١٩٤٣/٤/٢٦ .
زكى مبارك : جريدة البلاغ ٢٨ يونيه ١٩٣٥ .
حسن البنا : ان كان هذا حقا يا دكتور فقد اتفقنا (١٩٣٩) مجلة التعارف .
محمود محمد شاكر : بحث عن المتنبي وبحث عن الفتنة الكبرى .
ساطع الحصرى : آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية .
أحمد زكى باشا : جريدة السياسة ١٩٢٤ .
شكيب أرسلان : مقدمة كتاب النقد التحليلى .
الدكتور محمد حسين هيكل : نقد كتاب على هامش السيرة (السياسة الأسبوعية) .
رفيق العظم : نقد اتجاه طه حسين التاريخى (السياسة اليومية)

اسماعيل مظهر	: معركة مرجرات (العصور ح ٦ م ١/ص ٦٥١)
توفيق الحكيم	: مجلة الرسالة ٢ يوليو ١٩٣٤ .
ابراهيم المصرى	أسلوب طه حسين (البلاغ) ٢١ يونيه ١٩٣٤ .
دكتور عمر فروخ	: عبقرية العرب
فتحى غانم	: يوليو ، أغسطس ١٩٥٤ (آخر ساعة) .
دكتور على العنانى	: محاضرته عن طه حسين (النهضة الفكرية ٥ ديسمبر ١٩٣٢) و ٩ مايو ١٩٣٢ .
محمد سيد كيلانى	كتاب فصول ممتعة .
دكتور حلمى على مرزوق	: تطور النقد والتفكير الأدبى فى مصر .
دكتور محمد محمد حسين	٢١ ص ٣٨٦ وما بعدها . مجلة الأزهر : حصوننا مهددة من داخلها (عام ١٣٧٧/١٩٥٦ ا) .
محمد محمود بدير	: مجلة النهضة الفكرية (٧ نوفمبر ١٩٣٢) شبهة المسيحية .
دكتور محمد نجيب البهبيتى	: مقدمة كتابه (تاريخ الشعر العربى فى القرن الثالث الهجرى الطبعة الرابعة ـ مايو ١٩٧٠) .
دكتور فؤاد حسنين	: مقدمة كتاب شمس الله تشرق على الغرب .
مجموعة من العلماء	: تقرير الأزهر وتقرير لجنة الوزارة فى ٢ نوفمبر ١٩٢٧ ، ٢ يونيه ١٩٢٨ الفتح م ٦ ص ص ٦٥٠ .
خليل تقى الدين	: مجلة الأديب (آب ١٩٤٥) .

ايزاك شموس	: السياسة ٢٢ فبراير ١٩٣٤ .
الدكتور ناصر الدين الأسد	: مصادر الشعر الجاهلى .
سامى الكيالى	: طه حسين (جزءان) مجموعة اقرأ .
كمال قلته	: طه حسين وأثر الفرنسية فى أدبه .
محمد أحمد عرفه	نقض مطاعن فى القرآن .
جرجس صال	: ما سرقه طه حسين من جرجس صال (الأهرام ٢١ مايو ١٩٢٦) .
البير بيزان	: (سكرتير طه حسين) مذكراته (الانذار) ٢٥ فبراير ١٩٣٤ .
عبد ربه مفتاح	: مقال (الآن وقد عصيت قبل) الأهرام ١٢ مايو ١٩٢٦ .
دكتور أحمد محمد الحوفى	: الحياة العربية فى العصر الجاهلى .

(٢) موضوعات أثارت ضجة :

تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية فى الشعر العربى (السياسة ١٣ يناير ١٩٢٦) .

حرق كتب طه حسين فى سوريا (المقطم ٩/٥ و ١٩٣٣/٩/٦) .
نظرات فى النظرات (مقالات طه حسين عن المنفلوطى) العلم آخر مقال ٢٥ نوفمبر ١٩١٠ .

مقال طه حسين عن محمد عبده ـ الوادى ـ ١١ يوليو ١٩٣٤ .
مقال طه حسين عن أحمد زكى باشا ـ الوادى ـ ٨ يوليو ١٩٣٤ .
مقال أحمد أمين عن طه حسين ـ الرسالة ـ ١ يونيه ١٩٣٦ .
تحريق مكتبة الاسكندرية ـ ومقال كازنوفا ترجمة طه حسين ١٨ أبريل ، ٢ مايو ١٩٣٣ (السياسة اليومية) .

جريدة كوكب الشرق : بدأ عمل طه حسين فى الوفد (مارس ١٩٣٣) .
شراء امتياز جريدة الوادى ـ يونية ١٩٣٣ الى ديسمبر ١٩٣٤ .
آراء غريبة للدكتور طه حسين فى القرآن فى الجامعة ـ كوكب الشرق ٢٧ مارس ١٩٢٨ .

الضمائر فى القرآن (بحث فى مؤتمر المستشرقين) كوكب الشرق ١٥ أكتوبر ١٩٢٨ .

الخلاف بين طه وهيكل : الرسالة ١٧ يونيو ١٩٣٣ .
خطاب المازنى الشهير إلى طه حسين عن فصل زكى مبارك من الجامعة : البلاغ ١٩٣٢/١٢/٣١ .

مقال زكى مبارك (لو جاع أولادى) الصباح ١٩٣٦/١/١٧ .
مجلة الاثنين : حديث طه حسين حول صلته بالصهيونية (١٩٤٦) .
سلامة موسى بقلم طه حسين : الجمهورية ٢٥ ديسمبر ١٩٥٣ .

(٣) مناقشات عن طه حسين فى مجلس النواب :
١٣ سبتمبر ١٩٢٦ : كتاب الشعر الجاهلى :
٢٩ يونيو ١٩٢٧ : اثارة موضوع طه حسين .
٥ مايو ١٩٣٠ : اعادة البحث فى كتاب الشعر الجاهلى .
١٩٣٩ : النظر فى موقف طه حسين .

ونستطيع فى سبيل استعراض حياة طه حسين وفكره أن نقدم مجموعة من آرائه توالت على الأيام وأثارت كثيرا من الضجيج والنقد :

١ ـ لأمر ما اقتنع الناس أن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى اثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب .

٢ ـ ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وبين ما وصل اليه العلم من النظريات والقوانين ، فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يستطع العلم أن يثبتهما العالم الحقيق ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر الى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة ، وتتبع الجماعة فى تطورها وتتأثر بما تتأثر به الجماعة . أن الدين فى ناحية والعلم فى ناحية وليس الى التقائهما من سبيل ومن زعم غير هذا فهو خادع أو مخدوع .

٣ ـ ان الفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين وستبقى كذلك بل يجب أن

تبق وتقوى والمصرى فرعونى قبل أن يكون عربيا ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها والا كان معنى ذلك : اهدمى يا مصر أبا الهول والأهرام، وانسى نفسك واتبعينا ، لا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطى ، مصر لن تدخل فى وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد، وأؤكد قول أحد الطلبة القائل : لو وقف الدين الاسلامى حاجزا بيننا وبين فرعونيتنا لنبذناه .

٤ ـ خضع المصريون لضروب من البغى والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضا .

٥ ـ أريد أن أدرس الأدب العربى كما يدرس صاحب العلم الطبيعى علم الحيوان والنبات ، ومالى أدرس الأدب لأقصر حياتى على مدح أهل السنة وذم المعتزلة . من الذى يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشرا للاسلام أو هادما للالحاد .

٦ ـ ان الانسان يستطيع أن يكون مؤمنا وكافرا فى وقت واحد ، مؤمنا بضميره وكافرا بعقله فان الضمير يسكن الى الشىء ويطمئن اليه فيؤمن به أما العقل فينقد ويبدل ويفكر أو يعيد النظر من جديد فيهدم ويبنى ويبنى ويهدم .

٧ ـ علينا أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا فنأخذ الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب .

(٣)

أولا : رفع أحد علماء الأزهر الدعوى العامة أمام النيابة على طه حسين (١٩٢٦) وجاء الكشف عن سرقة كتابه الشعر الجاهلى من كتاب مقالة فى الاسلام لجرجس صال (كشف عنها عبد المتعال الصعيدى) .

ثانيا : قررت عصبة العمل القومى فى سوريا احراق كتب طه حسين فى ميدان عام لأنه (واحد من الذين يهونون أمر العرب ويصغرون شأنهم ويرفعون الصوت بالدعوة التى يكرهونها ألا وهى الفرعونية) وذلك

قوله (خضع المصريون لضروب من البغى والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضا) ١٩٣٣ .

ثالثا : أرسل اليه الأستاذ توفيق الفكيكى من مفكرى العراق برقية احتجاج عام ١٩٣٨ قال فيها :

« ان شعاركم الفرعونى سيكسبكم الشنار وستبق أرض الكنانة وطن الإسلام والعروبة برغم الفرعونية المندحرة » .

رابعا : كشف الأستاذ محمد محمود بدير عن توزع طه حسين بين الاسلام والمسيحية (النهضة الفكرية ، ٧ نوفمبر ١٩٣٢) .

خامسا اتهام طه حسين بالصداقة اليهودية على أثر إنشاء مجلة الكاتب المصرى ومساءلته فى مجلة الاثنين ١٩٤٦ .

(٤)

تعرضت آراء طه حسين إلى نقد النقاد :

الفرعونية والعروبة : دراسة الفريق محمد فوزى .

الشعر الجاهلى : دراسة الدكتور ناصر الدين الأسد .

مستقبل الثقافة : دراسة ساطع الحصرى .

الشعر الجاهلى : دراسات فريد وجدى والغمراوى والرافعى ولطفى جمعة والخضر حسين ، و د . على الجندى .

مع المتنبى : دراسة محمود محمد شاكر .

على هامش السيرة : دراسة دكتور محمد حسين هيكل (يراجع كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية) .

(٥)

أشار الباحثون الى أن آراء طه حسين نقلت على النحو الآتى :

١ ـ آراءه فى الشعر الجاهلى أخذها عن جرجس صال ومرجليوث .

٢ ـ آراءه فى حديث الأربعاء أخذها عن جورجى زيدان والأغانى .

٣ ـ آراءه فى هامش السيرة اعتمد فيها على الأساطير وكتاب أجنبى.

٤ ـ آراءه فى مستقبل الثقافة: هى جماع ما أورده المستشرقون وكتاب التغريب عن حضارة البحر الأبيض والفرعونية.

هذه كلها مقدمّات أردت بها أن أقدم لك هذه الشخصية لترى فيها رأيك على ضوء الاسلام.

* * *

الباب الأول

مرحلة التكوين والإعداد

أولا مطالع حياته

ثانيا رحلة أوربا وآثارها

ثالثا في أحضان الاستشراق

رابعا التبعية للفكر الغربي

خامسا الولاء للسياسة الغربية

الفصـل الأول

مطـالع حياتـه
القـرية ـ الأزهـر ـ الجـامعة

تتمثل وقائع حياة طه حسين فى أنه ولد فى قرية الكليو (إقليم المنيا)[1] عام ١٨٨٩ ودخـل « كتاب » القرية شان أترابه فى ذلك العهد ، حتى حفـظ القـرآن وكان قد كف بصره فى العـام الخامس على أثر مرض لم يعالج علاجا حـاسما ، ثم قصـد إلى القـاهرة وكان شـقيقه محمد قد سبقه إليهـا فدخـل الأزهر عام ١٩٠٢ وبقى به حـتى عام ١٩٠٨ عندما بدأ يختلف إلى الجـامعة المصرية فى أول نشأتها وكانت تضم عدداً من المستشرقين الفرنسيين والإيطاليين :

(جـويدى ـ ليتمان ـ نلبينو ـ سـانتلانا ـ ملبونى ـ ماسـنيون) وبذلك عرف بيئة المسـتشرقين الذين وجدوا فيه شابا طموحا ناقما على الأزهر فعملوا على إشباع نفسه بالآمال فى بيئة الغرب وتأريث الكراهية لبيئة الأزهر ثم الإسلام نفسـه ومن ذلك أن بعض المسـتشرقين كان يحـرص على اصطحابه إلى حلقات الأزهر ، وقد أشار فى مذكراته إلى أنه صـحب سـانتلانا إلى الأزهر فحضر معه درساً فى التفسـير كان يلقيه الشـيخ سـليم البشرى وكان يفسر آية « ولو أننا نزلنا عليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله » سورة الأنعام الآية ١١١ .

فاعترض طه على تفسير الشيخ قائلا : هذه جبرية مطلقة فأجـاب الشـيخ البشرى من أين تعلمت هذا الكفر ، من أساتذتك الأفرنج ! هنالك وضع ساتيلانا يده على كتف طـه طـالباً منه السكوت .

ولقد كانت فترة إقامته فى الأزهر فترة دقيقـة ، كان موزعا فيهـا بين الحلقـات يختار منهـا ،

---

(١) كان والده يعمل بفاوريقة الدائرة السنية ثم انتقل إلى مفاغة بوظيفة قبانى واستقر بعزبة الكيلو عام ١٨٨١ وظل يعـمل بشركة كوم أمبو حتى سنة ١٩٣٢ فعـاد إلى المنيا وتوفى ١٩٤٢ (مجلة الأدب ـ يناير ١٩٦٣) .

ويعرض ، ولا يستقر فى أيها ، إلا حلقة الأدب والشعر ولذلك فقد كانت ثقافته فى العلوم الإسلامية قاصرة بحيث لم يتمكن من تكوين فكرة كاملة عن الإسلام ولقد عرف طه حسين فى الأزهر دروس الأدب ولم يقبل على دروس الفقه والعقائد وقد اتصل بدروس الفقه والمنطق والتوحيد والنحو ولكنه ألم بذلك إلماما سريعا حتى توقف عن درس الأدب وسرعان ما ضاق صدره بالأساتذة لأنه لم يصبر على فهم دقائق المسائل وظل الخلاف يتسع بينه وبين مشايخه حتى أغلق الباب بينه وبينهم واحداً واحداً ولقد ساء ظنه بالأزهر وشيوخه ، الذين أعرضوا عنه لسوء بادرته وجفوته لهم ، وقد تأثر بالمستشرقين فى الغض من شأن المشايخ واحراجهم بالأسئلة المضللة والرد عليهم فى عنف وفى سخرية وذلك كله وارد فى مذكراته (الأيام) وسوء موقفه من آساتذته واضح لا ريب فيه بأكثر من صورة وحادثة ولعل هذه الجفوة هى التى دفعت أساتذته إلى إحراجه فى امتحان العالمية حين عجز عن الإجابة على سؤال يسير .

فى هذه الفترة كان اتصاله بالبيئات السياسية : وكان موزعا بين الحزب الوطنى وصداقة عبد العزيز جاويش ، وحزب الأمة وصداقة لطفى السيد وكلاهما متعارضان فى منهجها ، كذلك كان اتصاله بالجامعة القديمة وبمستشرقيها وفى خلال هذه الفترة كان يكتب فى العلم والجريدة وكانت له معركته الحاده التى حمل فيها على المنفلوطى حملات عنيفة ثم ظهر من بعد أن ما كان يكتبه منقول من مذكرات كان يكتبها (صادق عنبر) وقد عبر طه حسين فى سنواته الأخيره عن أسفه لهذه المقالات وكأن طه حسين من قبل من المعجبين بالمنفلوطى وينتظر مع صديقيه الزيات ومحمود ناقى مقالته الأسبوعية فى المؤيد .

ولكن عواصف السياسة ذهبت به هنا وهناك ، فلم يستقر على إتجاه ، وكانت كتاباته فى هذه الفترة تتراوح بين ما يلقيه إليه عبد العزيز جاويش وما يلقيه سانتلانا ولطفى السيد ، وكانت له صله بآل عبد الرازق .

* * *

وبقى طه حسين فى الجامعة المصرية القديمة من عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ حين تقدم برسالته عن ذكرى أبى العلاء وكانت أول رسائل الدكتوراه فى الجامعة المصرية .

ثم سافر إلى أوربا حيث التحق بجامعة مونبيله حيث درس الأدب الفرنسى واللغات الفرنسية واليونانية واللاتينية ، ثم عاد إلى مصر فأقام بها فترة ثم عاد إلى جامعة باريس حيث جاز امتحان الليسانس ١٩١٦ وأحرز الدكتوراه عن ابن خلدون عام ١٩١٧ ثم عاد إلى القاهرة حيث تولى تدريس مادة التاريخ القديم (اليونانى والرومانى) ثم انتقل إلى الجامعة الرسميه عام ١٩٢٥ حيث تولى تدريس الأدب العربى وأصدر عام ١٩٢٦ كتابه فى الشعر الجاهلى .

وقد أعلن الدكتور طه فى عدد نوفبر ١٩٢٧ من الهلال الأسباب التى أخرجته من الأزهر فقال :

بينا كنا نقرأ كتاب الكامل للمبرد وردت هذه العبارة (ومما كفر الحجاج به الفقهاء قوله : والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره إنما يطوفون برمة وأعواد) فقلت أنا : إنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب وبلغ قولى شيخ الأزهر وسمعت أنه سيطردنى فذهبت إلى الجريدة أريد كتابة مقال عن هذا الموضوع ، وهناك تقابلت مع الأستاذ لطفى السيد فرفض المقال : ولكنه عرض أن يتوسط لإرجاعى ، فى ذلك الوقت شعرت بأن الأزهر لم يعد يشبع ما فى نفسى من الأغراض الأدبية فتركته والتحقت بالجامعة المصرية .

هذه هى بدايه التحول يقول الدكتور غلاب : إن التاريخ يسجل بالخط العريض : أن الدكتور تقدم لإمتحان الشهادة النهائية (العالمية) ظنا أنه على شىء من العلم فلما جاء أمام لجنة الامتحان وسئل ونوقش أخفق اخفاقاً لم يشهد التاريخ مثله فنكص على عقبه وخرج لا يلوى على شىء ولا يزال الذين تقدم للامتحان بين أيديهم أحياء يرزقون ومن ذلك الوقت أخذ يحارب الأزهر (مجلة النهضة الفكرية ١٩٣٢)

ويقول البير برزان سكرتيره الأول عن هذه المرحلة من حياته أنه فى سنة ١٩١١ كان قد تخرج حديثاً من الأزهر بعد حادثته المشهورة أو بعبارة أدق كان قد أخرج من الأزهر إخراجا فاعتزم أن يتعلم الفرنسية فاجتمع ببعض متخرجى الفرير وأنا منهم وكنا نتحدث بالفرنسية وبجانبنا الشيخ طه ولم يكن قد حصل على شهادة ما ثم أوصل هذا الإتصال الشيخ أحمد حسن الزيات أستاذ اللغة العربية بمدرسة الفرير وما ذكرنا له كلمة فرنسية إلا أتقن حفظها وتفهم معناها واشتقاقها .

وقد أفاض الدكتور طه حسين فى كتابة الأيام عن هذه المرحلة وكشف فى الجزء الثالث عن الأسباب التى يراها سبباً لإسقاطه فى امتحان العالمية .

كما أشار بصراحة[١] إلى إعراضه عن كل علوم الأزهر وشغفه بالأدب حين اتصل بالشيخ سيد على المرصفى الذى وصفه بأنه كان يكره الأزهريين وتقاليدهم ويزدرى دراستهم ومذاهبهم فى هذه الدراسة وكان يقضى أكثر وقته عابثاً بالشيوخ ساخراً منهم محاولا أن يحبب الأدب إلى تلاميذه ويبغض إليهم دروس الأزهر المألوفة ، منذ ذلك الوقت فتنت بالأدب وجعلت أسخر من شيوخنا ولقد دافع طه حسين عن نفسه فى مذكراته بشأن خروجه من الأزهر والتحاقه

(١) فؤاد دواره « ك » عشرة أدباء يتحدثون .

بالجامعة ومنه يفهم أن الأزهر لم يحقق له كفاية ثقافية أو علمية.

وتلك قضية له فيها رأى يقول: ان المدة التى قضيتها فى الأزهر كانت فترة انتقال فكان الشيخ محمد عبده يفسر القرآن على طريقة جديدة والشيخ المرصفى يعلمنا الأدب وكلاهما يذم الطريقة الأزهرية، وكانت الجريدة تنادى بمعان جديدة فى السياسة والاجتماع وشعرنا نحن تلاميذ الشيخ المرصفى أن طرق الأزهر عتيقة. وشعرت أن الأزهر لم يعد يشبع ما فى نفسى من الأغراض الأدبية فتركته والتحقت بالجامعة.

يقول الأستاذ حسن الشقرا: «ومن هنا يفهم القارىء أن السر فى اخراج الدكتور طه من الأزهر عدم كفاية الأزهر لسد مطامعه الأدبية وهذا كذب صراح على التاريخ وجرأة مفضوحة على الحق، والتاريخ يسجل بالخط العريض أن الدكتور تقدم للامتحان فى الشهادة العالمية فلما جاء أمام اللجنة وسئل ونوقش أخفق إخفاقا لم يشهد التاريخ مثله فنكص على عقبه وخرج ومنذ ذلك الوقت أخذ يحارب الأزهر ويغض من قدر أساطين المسلمين.

* * *

كانت كتاباته كلها فى هذه الفترة مثار خلاف فى الرأى بينه وبين العلماء والأدباء، لقد كان حريصا على تبنى الرأى المثير، وكان يحدث الدوى، حتى يكون حديث الدوائر الأدبية، ولقد أثارت رسالته (ذكرى أبى العلاء) ضجة، دفعت عبد الفتاح الجمل أحد أعضاء الجمعية التشريعية إلى أن يقدم مذكرة يطالب فيها بحرمان طه حسين من حقوق الجامعيين لأن كتابه به بعض المفاهيم المضطربة التى تميل إلى الإلحاد.

وكان الأمر كذلك بالنسبة لرسالته عن «ابن خلدون»: فقد أثارت كثيراً من الشبهات ذلك أن الدكتور طه حسين حضر هذه الرسالة تحت إشراف (إميل دور كايم) الفيلسوف الإجتماعى اليهودى الذى كان يغض من قدر ابن خلدون، وقد سار طه حسين على طريقته إرضاء له، ومات دور كايم قبل أن تناقش رساله طه حسين وحضر بدلا منه سلستان بوجليه، وكذلك حضر طه حسين دروس كازانوفا فى تفسير القرآن فى الكوليج دى فرانس: المعهد الذى شكل فيه الفرنسيون أتباعهم دعاة الفكر الفرنسى من العرب.

وعندما أعيد إلى مصر بعد سفره عام ١٩١٤ لظروف معينة اختلف إلى درس الشيخ محمد المهدى فى كلية الآداب فكتب فى جريدة السفور مقالا هاجم فيه أسلوب الشيخ وقارن بينه وبين أساتذة الآداب الفرنسية، فى انتقاص وازدراء فكان لذلك أثراً سيئاً كاد أن يلغى بعثته لولا أن سارع إلى من كان يلومونهم ويشفقون عليه لآفته فعاد وأتم الدراسة وعندما عاد ١٩١٩ كان فكره قد تغير تماماً ووضع آراءه وفكره على النحو الذى يتحدث به قبل ١٩١٤ فى دائرة الصمت، وبدأ يواجه القضايا والأفكار والناس على نحو آخر مختلف تماما.

وبعد فماذا كانت بيئة طه حسين التى تركت آثارها فى تكوينه وتصرفاته .؟

* * *

كانت البيئة الأولى : بيئة القرية هى أشد البيئات أثراً فى حياة طه حسين ، وأهم العوامل التى كان لها أثرها هى :

(١) الأسرة الفقيرة ذات العدد الكبير من الأبناء مع قلة الزاد .

(٢) كف البصر الذى أصيب به فى الطفولة وأثره على حياته فى محيط الأسرة .

(٣) علاقاته بأهل القرية ، وبالكتاب ، وبالقاضى وباصدقاء والده . وكان لهذه الخلفيات أثرها البعيد فى حياته كلها ، ومواقفه كلها : حدة الطبع ، والتحدى ، وتأكيد الذات ، وكان له من طبائع المكفوفين قدرتهم على المناورة ، وكسب القلوب ، والانسحاب السريع فى حالات الخطر ، وقد ظلت عوامل الريف والصعيد والبيئة الأولى قائمة فى كيان طه حسين بعد أن سافر إلى أوروبا وصقلته الأساليب العصرية فى الحديث والحياة والحركة ، ظلت قائمة فى أعماق النفس ومن وراء الوعى ، وكانت تظهر فى الأزمات ، وفى بعض المواقف كاشفة عن هذه الطبيعة العنيدة ، الخائفة فى نفس الوقت ، المندفعة إذا خلا الجو ، المتراجعة إزاء الخطر .

* * *

ولقد أمضى طه حسين فى هذه البيئة ثلاثة عشر عاما ، ثم انتقل إلى بيئة الأزهر ، قاهرة المعز ، حى الربعاية ، هذه المنطقة الحافلة بصورة القاهرة القديمة من حول الجامع الأزهر العتيق .

ولكن طه حسين لم يتوقف كثيراً عند بيئة الأزهر وبيوت علمائه خاصة من كان يحبهم أمثال المرصفى أو المهدى ، ولكنه لصداقته لعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق أوغل إلى عابدين حيث كان قصر آل عبد الرازق القائم خلف القصر ، وحيث كانت جماعات كثيرة من رجال حزب الأمة تصل إلى هناك ثم كانت بيئة الجريدة حيث لطفى السيد وجماعة الدعاة إلى المصرية الكارهين للوحدة الإسلامية وللعروبة ، والنافرين منها إلى « مصر للمصريين » والمؤمنين بأن الطريق الوحيد إلى الحرية هو التعاون مع الاستعمار والالتقاء بالغرب فى منتصف الطريق وقبول أسلوب المراحل ، وكانت النماذج المعروضة أمثال سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى هى النماذج التى كونها الاستعمار وأعطاها مقادة الأمة ، فكانت تلك موضع إعجاب الشباب المتطلع الطموح أمثال طه حسين .

وكانت هناك بيئة الحزب الوطنى ومعرفة طه حسين للشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان

آحد دعائم فكرة العبور إلى أوربا وكان قد فتح جريدة العلم والشعب وصحيفة الهداية لطه حسين ليكتب فيها .

وفى الشعب كتب طه حسين مقالاته العاصفة ضد المنفلوطى . وفى الهداية كتب مقالاته عن جرجى زيدان .

وكان طه حسين واحداً من الشباب الذين كانوا يقتربون من المكتبة الزكية ومن أحمد زكى باشا ليتعلموا أو يسمعوا ويقرأوا بعض المخطوطات النادرة . وكان زكى باشا أستاذا للحضارة الإسلامية فى الجامعة المصرية القديمة .
كذلك فقد حاول طه حسين أن يحضر دروس الشيخ محمد عبده فى الرواق العباسى وحضر منها درسا أو درسين وكان يغرى نفسه بأن يكون على هذا الطريق .

وكانت تلك الجماعة : طه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود زناتى تتجمع هنا وهناك لتقرأ المؤيد واللواء والجريدة . وتعيش فى هذا الجو متطلعة إلى مستقبل غامض .

وكان طريق الحزب الوطنى هو طريق الوطنية الحقة والنضال الطويل . وكان طريق حزب الأمة هو طريق الوصول : طريق منهب المنفعة الذى كان لطفى السيد يشير إليه دائما عن قراءات « بنتام » .

كان طه حسين يشترك فى هذه البيئات جميعا . ولم يحدد موقفه منها إلا بعد أن عاد من أوربا . اما قبل ذلك فكان منطلقا . وكانت الجامعة المصرية القديمة قد جمعت بين أعلام الفكر المسلمين : (أحمد زكى باشا . أمين صفوت) . وأعلام المستشرقين . وكان لطه حسين بهم صلة وثيقة طمعا فى تحقيق حلمه فى العبور إلى أوروبا ودخول السربون .

وفى هذه البيئة المضطربة وجد طه علو صوت حزب الأمة . والمستشرقين وأبناء البيوتات ووجد أسلوبهم هو المصلحة مع النفوذ الأجنبى ومسايرته وكان منهب بنتام « المنفعة » الذى دعا إليه لطفى السيد وألح عليه من أبرز الوجوه التى وجهت طه حسين وحددت موقفه وقررت اختياره . وقد كان . فقد تعاونت هذه القوى على إعانته ودفعه إلى بعثته وسفره إلى أوروبا بالرغم من كل المعوقات .

* * *

وكان لطه حسين فى هذه المرحلة شعر وقصائد مديح ورثاء وكتابات كلها قاصرة وتدور فى مجال الولاء ومن أجل ذلك أغضى عنها بعد عودته من أوروبا كما أغضى عن ماضيه كله وإن ذلك ليكشف عن إجابات كثيرة على أسئلة متنوعة لماذا دخل حزب الأحرار الدستوريين بعد عودته ولماذا تركه إلى حزب الاتحاد ولماذا هجرهما إلى حزب الوفد وهدد أصحابه القدامى

بكشف أسرارهم ولماذا مدح فؤاد وفاروق ولماذا سار فى كل ركاب وساير كل اتجاه ؟ لقد فعل ذلك فى سبيل تأكيد ذاته وتحقيق هدفه الذى كان يطويه فى أعماقه.

وقد أشار طه حسين فى مذكراته إلى أنه جرب نفسه فى الشعر « لم يكد يأخذ فى الكتابة حتى عرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد قلما كان الشباب يقدمون عليها فى تلك الأيام وأنه كان موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة مذهب الاعتدال والقصد وذلك كان لطفى السيد يدعوه إليه ومذهب الغلو والإسراف وذلك الذى كان الشيخ جاويش يغريه به ويحرضه عليه تحريضا وقال إنه إذا اقتصد فى النقد نشر فى الجريدة وإذا غلا فى النقد نشر فى صحف الحزب الوطنى ».

والمعروف أنه اتجه إلى الجريدة اتجاها كاملا بعد هجرة الشيخ عبد العزيز جاويش وألق بنفسه كاملا فى أحضان مفهوم المنفعة الذى كان يدعو إليه حزب الأمة ولطفى السيد.

ومن أسلوبه فى الولاء وأحكام العاطفة : موقفه من المنفلوطى فقد كان يقول : « لقد كنت أمقت (المؤيد) كل المقت إلا يوم ينشر فيه نظره أو أسبوعية فقد علم الله أنى كنت أشغف به كل الشغف وأقبل عليه كل الإقبال ».

ولكن عندما أريد منه أن يهاجم المنفلوطى من جانب الحزب الوطنى كان طه هو مخلب القط فقد حمل عليه حملة واسعة متصلة استمرت عاما كاملا تحت عنوان (نظرات فى النظرات) بلغت ٢٣ مقالا نشر أولها فى اللواء ثم امتدت فى العلم الذى صدر فى مارس ١٩١٠ واستمرت إلى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٠

* * *

من أبرز مواقفه فى هذه الفترة : تلك الجرأة على أساتذته ومهاجمتهم وتطاوله عليهم : وهذا ما سجله فى مذكراته حين قال عن الشيخ المهدى « وكان الفتى جريئاً عليه يجادله فى الدرس فيرهقه من أمره عسراً وربما أضحك منه الطلاب » وقدتحولت جرأته هذه فى مهاجمة من كانوا فى صف خصوم أوليائه الذين كانوا يعطفون عليه ووجدوا فيه قلما جريئا ، أما أحبابه فكانوا من الزعماء الذين أنكرتهم الأمة ، عدلى وثروت ، وكان سوطاً قاسياً يلهب خصومهم ، ويصور هذا المعنى فى مذكراته حين يقول « وكان صاحبنا أطول الكتاب لساناً وأجرأهم قلماً فى مهاجمة سعد ونقد سياسته قبل أن يلى الحكم وبعد أن وليه وبعد أن اضطر إلى اعتزاله وأصاب الفتى من هذه الخصومة مكروه أى مكروه ».

كان يصدر فى أحكامه عن العاطفة ، وعن الهوى ، وليس عن عقيدة معينة أو هدف واضح.

وكذلك موقفه من الشيخ سيد المرصفى : يقول الدكتور محمد غلاب : كان الدكتور طه تلميذاً مقرباً من المرحوم الشيخ سيد المرصفى وكان يتودد إليه ولكن لما ألف على عبد الرازق كتاب السياسة وأصول الحكم وحكم مجلس الأزهر عليه بالطرد كان الشيخ المرصفى أحد أعضاء هذه الهيئة ، وكان ذلك كافياً فى نظر الدكتور طه لاعتبار الشيخ المرصفى آثما يستوجب الاحتقار والإعراض من جانبه .

ويقول إسماعيل أدهم أحمد عن تراوح طه حسين بين المذاهب والبيئات أعتقد أن نقطة تحول طه حسين لم تكن إلا بعد إتصاله بالمستشرقين ، فقد كانت كتاباته قبل ذلك سويه ، خاصة فى اتصاله بالشيخ جاويش[1]

وقد أشار طه حسين فى أحاديثه التى أفاض فيها فى أواخر حياته إلى مسألة إسقاطه فى امتحان العالمية وقال (إن شيخ الأزهر سليم البشرى طلب إلى اللجنة أن تسقطنى فى الامتحان ومصدر ذلك أنى هجوته بشعر نشر فى بعض الصحف) ولكن الذين يعرفون الوقائع يشهدون بأن طه حسين سئل عن شىء صغير مما يعرفه الطلاب فى أوائل الدراسة الأزهرية فعجز عنه .

كما أشار إلى تأثره بالمستشرقين حين قال (تأثرى بالمستشرقين شديد جداً ولكن لا بارائهم بل بمناهجهم فى البحث) .

وتكشف هذه الدراسة أن طه حسين تأثر بآرائهم وتابعها بالرغم من معارضتها للحقائق التاريخية والعلمية الأصلية .

* * *

(١) كتابه عن طه حسين المنشور فى مجلة الحديث ـ أبريل ١٩٣٨ .

الفصل الثانى

رحلة أوربا وآثارها

عندما وصل طه حسين إلى أوربا واستقر فى فرنسا طالبا بالجامعة وجد نفسه مقبلا على الدراسة التى تؤهله لأن يكون عالماً فى واحد من تلك العلوم التى تدرسها الجامعات الأوروبية، وقد اختار التاريخ القديم وتاريخ اليونان واللاتين، ولكن كان عليه قبل ذلك أن يحصل على شهادة «الليسانس» الفرنسية.

وقد اتاحت له الأقدار تلك الفرصة التى كان لها أبعد الأثر فى تحقيق غايته، وهى الاتصال بالأسرة الفرنسية التى نزل عندها بما ربط بينه وبين زميلته فى الجامعة برباط الصداقة الذى انتهى إلى الزواج، فقد أعانه هذا اللقاء على اقتحام ذلك الجو العلمى وكان له أثره الواضح فى الخط الذى قبل به طه حسين وعمل له. فقد كان هناك ذلك القس الذى دافع عن خطبته بعد أن اعترضت عليها عائلة الفتاة واستطاع أن ينتصر له ويحقق له ذلك الأمل الذى كان يعده هو انتصاراً شخصياً له ولفرنسا وللفكر الغربى وكانت الكوليج دى فرانس هى أخطر المؤسسات التى اتصل بها طه حسين فى باريس فهى المصنع الذى يصنع فيه رجال الشرق فى محاولة إعدادهم لخدمة الثقافة الغربية وقد مر بها كثيرون من العرب واستطاعوا النجاة من تبعيتها.

ولقد كانت هذه المرحلة من حياة الغرب، قائمة على اصطناع الثقافة والجامعة وسيلة لتأكيد النفوذ الغربى فى بلاد المسلمين عن طريق هؤلاء المبعوثين وكانت فرنسا تحس بأن بريطانيا قد كسرت نفوذها الواسع فى مصر منذ عصر محمد على بعد الاحتلال وأنها غيرت وبدلت وأعلت من شأن الثقافة الإنجليزية واللغة الإنجليزية، وكان هناك صراع عنيف بين الثقافتين واللغتين: الفرنسية والإنجليزية ولذلك فإن القدرة على احتضان مجموعة من المثقفين المصريين كانت أمراً بالغ الأهمية فى نظر السياسة الفرنسية وكانت وزارة الخارجية قد جندت مجموعة من المستشرقين للعمل فى ميدان الجامعات لهذا الغرض أمثال ماسنيون، الذى كان يدعو إلى استبدال الحروف العربية بحروف لاتينية، وكان يدعو إلى إعلاء شأن اللهجات العامية فى البلاد العربية لتحطيم أواصر الفصحى: لغة القرآن، وكان الوقت قد حان لاستشراء السيطرة

التلمودية على الفكر الغربى وكانت أقوى هذه المؤسسات هى المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى كان يقودها دور كايم وليفى بريل اليهوديان ، وكان هناك أيضا محاولة لتلقين الشباب المسلم فى مدرسة اللغات الشرقية تفسيراً للقرآن يقدمه رجل فرنسى اللغة مسيحى الدين ولكنه كان صهيونى الفكرة هو « كازانوفا » .

واجه طه حسين هذه المخططات ، وأوغل فى هذه التيارات ، متقبلا لها ، محبا لها ، فهو بطبيعته الطموحة إلى التبريز والشهرة وتأكيد الذات نتيجة عاهته ، قد مضى شوطا ، ومع الآمال المعلقة ، التى يثيرها الجو العلمى حوله فى الجامعة والجو الاجتماعى حوله فى محيط الأسرة .

ولذلك فقد كان طه حسين صادقا أشد الصدق حين عبر عن نفسه أنه بعد عودته من أوروبا قد تغير تماما حتى لقد كان لذلك أثره الرجعى فى معارفه وصداقاته واتصالاته بأعلام الفكر الإسلامى فى مصر ، أحمد زكى باشا شيخ العروبة ، الشيخ محمد عبده ، الشيخ محمد الخضرى ، كل أساتذته هؤلاء لم يلبث بعد أن عاد أن هاجمهم فى عنف أو أعرض عن طريقهم فى العمل ، فقد كانت قد استوت له طريقة أخرى مخالفة أشد المخالفة .

نعم ، كان للرحلة إلى أوروبا أثرها البعيد والعميق فى التكوين الثقافى والاجتماعى لطه حسين حتى يمكن أن يقال إنها خلقته خلقا جديداً ، وأسلمته ولاء جديداً ظل مؤمنا به مدافعا عنه إلى أن غرغرت الروح ، بينما تغير كثير من أصدقائه وزملائه وتلاميذه محمد حسين هيكل ، منصور فهمى زكى مبارك ، إلخ ولكنه هو لم يتغير وظل ثابتا على منهجه ومذهبه كأنما كانت هناك قوة تحرسه عن أن يعود إلى الأصالة كما عاد هؤلاء .

ولقد أنتجت الرحلة إلى أوروبا آثاراً متعددة أهمها :

(أولا) الاتصال ببيئات الاستشراق وتبنى مفاهيمها ومعطياتها وقد بلغ الدكتور طه فى هذا الاتجاه مبلغا جعل بعض الناس يظن أنه واحد من المستشرقين ، وكان يقول أنه يرث عقلا يونانيا من أجداده القدامى ، وكان يشير دائما بشىء من السخرية ولكن بشىء من الرضا إلى ما كان يقال من أنه سفير فرنسا فى مصر أو سفير الثقافة اللاتينية (اليونانية الوثنية والفرنسية العلمانية) فى البلاد العربية .

(ثانياً) الإعجاب بفرنسا والولاء لها ، وهو إعجاب وولاء كان يصل به إلى أن يرجح كفتها على حقوق أمتنا ويقف مع فرنسا مدافعا بينما تضرب بقنابلها دمشق . ويهاجم المجاهدين فى المغرب ويصفهم بالبداوة .

(ثالثاً) التأثر الشديد بثقافة الثورة الفرنسية ومطامعها ، بينما الثورة الفرنسية هى عمل اليهودية العالمية للسيطرة على المجتمع الأوربى والفكر الغربى ، ويبدو ذلك واضحا فى إعجابه

بفولتير وديدرو وروسو وغيرهم.

(رابعاً) إتساع الخصومة مع الفكر الإسلامى والأزهر، وذلك من طبيعة الأمور حيث لم يدع ميدانا للاسلام فيه رأى إلا قال فيه رأى الاستشراق وأثار شبهاته ودفع الناس دفعا إلى الدخول فى بوتقة التغريب وقد بلغ ذلك أقصى مدى حين دعا إلى الأخذ بالحضارة الأوربية خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحمد منها وما يعاب.

(خامساً) بعث الأدب الشعوبى والفكر الباطنى والوثنى والمجوسى القديم وذلك من طبيعة الهدف الذى حمل لواءه ومن شأن الأمانة التى حملها للتغريب والغزو الثقافى.

* * *

وقد تحدث طه فى مذكراته عن رحلته الأولى إلى أوربا فقال انه أرسل ليدرس التاريخ وكلف الحصول على درجة الليسانس وتطوع هو بهذه الرسالة لأنه سمع دروس الاجتماع التى كان يلقيها الأستاذ دور كايم فشغف بهذا العلم أى شغف. فكان كل فصل من هذه الرسالة يقرأه الأستاذان: يقرأه الاستاذ المستشرق أولا ثم يقرأه الأستاذ دور كايم وأشار إلى العهد الذى قطعه على نفسه قبل أن يسافر من مصر للجامعة وهو ألا يقدم رسالة إلى جامعة أجنبية مهما يكن موضوعها إلا بعد أن تقرأها الجامعة المصرية وتأذن فى تقديمها وكان الدكتور منصور فهمى هو الذى اضطر الجامعة إلى أن تأخذ طلابها فى أوربا بأن يقطعوا على أنفسهم هذا العهد، والناس لم ينسوا بعد ما أثارت رسالة الدكتور منصور التى حصل بها على الدكتوراه من ضجيج أثار سخط الهيئات الرسمية أولا وسخط الرأى العام بعد ذلك، واضطر الصديق الكريم إلى أن ينأى عن مصر قريبا من عام وحيل بينه وبين التعليم فى الجامعة أعواما. ويتحدث الدكتور طه عن يوم الامتحان وقد رافقته زوجته الفرنسية وكيف إستقبل إستقبالا طيبا من الممتحنين وفهموا ما وراء الأكمة. يقول فى ص ١٩٨ من مذكرات طه حسين:

« ويقبل صاحبنا على الامتحان مشفقا منه أعظم الإشفاق مروعا به أشد الروع، وإذا الأستاذ قد كتب على أوراق صغيرة أسئلة كثيرة وضعها أمامه، وجعل الطلاب كلما أقبل واحد منهم على الأستاذ يرقبونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ ويقبل صاحبنا ترافقه زوجته، فإذا أخذت ورقة ودفعتها إلى الأستاذ نظر فيها ثم ابتسم. ثم قال فى صوت عذب: « لقد أسعدك الحظ بمرافقة هذه الآنسة: حدثنى إذن عن الامبراطورية العربية أيام بنى أمية » وأعفاه من أسئلة التاريخ الرومانى واليونانى القاسية.

ترى ماذا كتبت السيدة فى الورقة التى دفعتها إلى الأستاذ، علم ذلك عند الله ولكن الذى فهمه الأستاذ هو أن الرجل قد جاء محبا وسيعود مواليا للثقافة الفرنسية خادما لها ومعه ملاكه الحارس الذى سوف يدفعه دائما ويحول بينه وبين النكوص عما تعاهده.

وفى هذا مصداق ما أشار إليه أحد الباحثين حين قال : لقد كان للاعتبارات الروحية فضل كبير على (طه حسين) فى الحصول على إجازته العلمية من أوروبا ، ذلك لأن الأساتذة الذين يتقدم الرجل إليهم ليشهدهم على نجاحه كانوا يتمثلونه فى أذهانهم رجلا شرقيا مكفوف البصر منسوبا ـ بالحق أو بالباطل ـ إلى معهد إسلامى هو الأزهر ، فلا يترددون فى سلوك مسلك التسامح معه والعادة المتبعة فى الجامعات الأوربية تقضى على أساتذتها أن لا يتعصبوا ونحن نرى أن وجود طه حسين فى الغرب أمراً كان بالغ الأهمية ، لقد ذهب أحمد حسن الزيات ومصطفى عبد الرازق وزكى مبارك ولكنهم لم يجدوا من العناية ما وجد هو ، أما الزيات فقد كانت أمانته للأدب العربى ولأمته قوية وعميقة ، أما مصطفى عبد الرازق فقد كان لا يزال يحتفظ فى باريس بعمامته بينما ألقى طه حسين عمامته فى البحر الأبيض بعد قيام السفينة به فى مشهد درامى مثير . أما زكى مبارك فقد عارض منهجهم فى رسالته وأصر على رأيه وتابعهم فى القليل وخالفهم فى أمر اللغة العربية . أما طه حسين فقد استجاب لهم إستجابة كاملة حتى قال : « ماسينيون » إننا حين نقرأ طه حسين نقول هذه بضاعتنا ردت إلينا .

* * *

الفصل الثالث

فى أحضان الاستشراق

عرف الدكتور طه طلائع المستشرقين فى الجامعة المصرية القديمة ثم ألقى بنفسه فى أحضانهم عندما سافر إلى فرنسا للدراسة بها فى الفترة ما بين ١٩١٤ - ١٩١٩ . حيث تتلمذ عليهم فى جامعتين : مونبيليه والسوربون . واختاروه لحمل شعارهم فى معهد الدراسات الشرقية ، وقد أعجب طه بطريقة المستشرقين وتأثر بها وخضع لها بل ودافع عنها بعد ذلك دفاعا واسعا ، فى كل كتاباته وقد وجد طه فى معهد الدراسات الشرقية والكوليج دى فرانس الأجواء التى كانت تهدف إلى احتوائه عن طريق الثقافة فتلق مفاهيم الفكر الإسلامى من خلال منهج المستشرقين وخاصة فيما يتعلق بالقرآن ودراساته والشريعة والتاريخ ولما كان هو فى الأساس قد أعرض عن ذلك فى الأزهر ، حين تراوح بين الحلقات واستقر فى حلقة الأدب والشعر ، فإنه وجد جديداً فى أسلوب العرض ، وقبل بالسموم التى احتوتها هذه المناهج دون أن يتعمق محاذيرها لقصورة عن استيعاب مصادرها الأساسية وقد وضع منهج طه بين المعهدين والجامعة على أساس واضح :

أولا : الإعلاء والتقدير لتاريخ الرومان وأدب اليونان وفلسفة الهيلينية على نحو أقنعه بأن هذا التراث هو مصدر الفكر البشرى كله ، وأن الفكر الإسلامى تأثر به وتشكل منه ، يقول فى هذا ما كان يقوله أشد كتاب الغرب تعصبا على العرب والإسلام أمثال « رينان » .

راجع (مقدمة صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان) .

ثانيا : الثورة الفرنسية ودور : ديدرو وفولتير وروسو فى إثارتها ، وما التى إليه من أن يكون شبيهاً بواحد من هؤلاء فى الفكر الإسلامى والثقافة العربية هدما للقيم التى كانت سائدة ومحاربة للعقائد ودفعا للثقافة إلى أسلوب « الفكر الحر » .

والمعروف أن الثورة الفرنسية هى من صنيع اليهودية العالمية للخروج من خضوع اليهود للكنيسة وقوانينها التى كانت تحصرهم فى « الجيتو » وتحول بينهم وبين الاشتراك فى الحياة الاجتماعية والسياسية .

ثالثا : الاهتمام بدراســة تين ورينان وفولتير ، باعتبار أن رينان وفولتير من أعمدة الفكر الحر ، المعارض للمسيحية فى الغرب المهاجم لهــا وأن تين هو الداعى إلى المذهب المادى فى النظرة إلى الإنسان ونتاجه الأدبى . (وقد كشف طه حسين عن صلته بهؤلاء وإعجابه بهم فى فترة متأخرة بعد أن أتصل بالوفد ١٩٣٥ وأصبح آمناً من معارضة المعارضين) .

رابعا : ترجمة وإذاعة شعر بودلير العنيف فى إباحيته ، المسف فى أسلوبه ، وترجمة وإذاعة القصة الفرنسية المكشوفة .

(وقد حفلت كتاباته فى جريدة السياسة ١٩٢٣/١٩٢٢ ومن بعدها فى مجلة الجديد وغيره بهذه الترجمات التى كانت مثار تعليق أمثال المازنى) .

خامسا : الشعر العربى الإباحى القديم ، وتصيده وتصيد شعراء الإباحة والمجون ودراستهم والاهتمام بهم أمثال : بشار وابى نواس والضحاك وغيرهم .

ودعوته إلى تحرير الشعر من قيد الأخلاق ، باســم الفــن للفــن (اقرأ كتابه حــديث الأربعاء) .

سادساً : إحياء الكتب القديمة التى كتبها الباطنية والإباحيون والملاحدة : وقد كان عونا فى إصدار رسائل إخوان الصفا ، وهى نحلة هدامة ، وكذلك أولى كتاب الأغانى إهتماما بالغا ودفع إليه الباحثين من تلاميذه لاتخاذه مرجعاً مع أنه فى تقدير جميع الباحثين لا يصلح لذلك ، كذلك أعان على طبع كتب تعلى من شأن الفكر اليونانى ومحاولة القول بأنه كان بعيد الأثر فى الأدب العربى أمثال كتاب (نقد النثر لقدامة الذى ظهر من بعد إنه لكاتب آخر) .

ويكاد طه حسين فى كل أعماله الكبرى أن يكون خاضعا للاستشراق متأثراً به تابعا له معليا من قدره متحدثا عن فضله على الأدب العربى والفكر الاسلامى .

فى كتابه فى الشعر الجاهلى = أخذ نظريته من مرجليوت .
رأيه فى (مع المتنبى) = أخذ نظريته من بلاشير .
منهبه فى النقد = أخذ نظريته من تين ، وبرودنير .
بحثه عن ابن خلدون = أخذه من دور كايم .
إتجاهه فى حديث الأربعاء = أخذه من سانت بيف .
عمله فى هامش السيرة = أخذه من كتاب على هامش الكتب القديمة .

وقد تلقى طه حسين فكر الاستشراق فى الجامعة المصرية القديمة أساسا وكانت دراساته فى فرنسا إمتداداً لذلك مع تعمق فى محاولة إثارة الشبهات (وإن كان قد اتبع أسلوب مغايظة الجماهير فعوتب وأعيد إلى الاسلوب الساخر الماكر) .

أخذ من (نلينو) : مصادر التاريخ الأدبى ومن (برجستر اسر) : التطور النحوى ومن (جويدى) : علم اللغة الجنوبية القديمة ومن ليتمان فقه اللغة .

أما فى فرنسا فإن طه حسين تابع « دوركايم » ، ورأيه فى ابن خلدون إستهانة وانتقاصا ، وتابع « كازانوفا » عن مفهومه للقرآن وتفسيره له . ولا ريب أن رأى هؤلاء المستشرقين فى القرآن معروف فهم يرون إنه من عند محمد لا من عند الله .

وإنه يختلف فى أسلوبه بين المكى والمدنى ولليهود دخل فى هذا المفهوم فقد دسوا فيه التأثر مع اليهودية فى المدينة ، ومفهوم كازانوفا هذا هو الذى قدمه طه حسين لطلابه فى الجامعة عن القرآن . وكازانوفا مستشرق له صلات بدوائر الاستعمار ومسيحى له إتصال بدوائر الكنيسة ، وفى مفاهيمه إتصال بالفكر التلمودى والوثنى والهلينى ، وكل هذا ممتزج بأرائه فى القرآن مما لا يمكن معه أن يكون صحيحاً ، ومن عجب أن طه حسين يقول إنه لم يفهم القرآن فى الأزهر وفهمه فى فرنسا على كازانوفا . فأى فهم هذا وما مدى صحته بالنسبة لمفهوم الإسلام ؟! إنه من المؤسف والمخزى والمثير للسخرية أن يترك طه حسين الأزهر إلى باريس ليتعلم منها تفسير القرآن من مستشرق متأثر بالفكر اليهودى الذى كان إذ ذاك مسيطراً على البيئات العلمية فى الغرب ، ثم يجد فى هذه المفاهيم ما يرضى نفسه وما يشعره بأنها المفهوم الحقيق للقرآن بينما ضاق صدره بمفاهيم القرآن الحقيقية فى كتب المسلمين الأصيلة التى واجهته فى أول حياته فى الأزهر فأعرض عنها وعجز عن فهمها ، إنه لمن المؤسف أن يقال إن طه حسين تلق فهم القرآن على مستشرق مثل كازانوفا .

* * *

تابع طه حسين المستشرقين فى آرائهم عن إنكار الشعر الجاهلى وإنكار وحدة اللغة العربية قبل الإسلام ، فقد ذهب المستشرقون إلى أنه كان للعرب شعر دينى على مثال قصائد الهند والفرس والأساطير اليونانية ، ورتبوا على ذلك إنكار الشعر العربى المنسوب إلى الجاهلية لأنه خلو من التعبير عن العبادات والشعائر وما إليها ، وقد دحض الباحثون هذه الشبهة ، ووصف العقاد هؤلاء المستشرقين ومن تابعهم على هذا الفهم أمثال طه حسين بالجهل بعلم التاريخ الجاهلى [راجع (اللغة الشاعرة) (مطلع النور)] كذلك رفض المفكرون المسلمون شبهة اختلاف اللغة العربية قبل الإسلام وفى هذا المجال نذكر أن « الإستشراق » فى الغرب نشأ قديماً فى بيئة التبشير ولا تزال منه جذوره ومراميه وقد كانوا فى أبحاثهم إما تابعين لوزارات الخارجية والإستعمار التى تحاول أن تجعل من مهاجمة الفكر الإسلامى وتشويهه وسيلة لتدمير معنويات العرب المسلمين أو تابعين للكنيسة التى لها خلافها العقائدى مع الإسلام أو كانوا قاصرى المدارك فى فهم البيان العربى وتعمقه .

وقد صور زكى مبارك (مع الاحتياط له فى مجال البحث العلمى بتحفظ خاص فى خصومته

الشخصية مع طه حسين) يقول له : مضيت فانتهبت أراء المستشرقين وتوغلت فسرقت حجج المبشرين وكان نصيبك ذلك التقرير الذى دمغتك به النيابة العمومية ، اتصلت بالمسيو كازانوفا ففرض عليك رأيه فرضا ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من أراء ذلك الأستاذ ووقف مسيو ماسينون وقال : إننى حين أقرأ أبحاث طه حسين أقول هذه بضاعتنا ردت الينا) .

* * *

دور كايم ، وكازانوفا ، ماسنيون ، عملوا على صياغة فكر طه حسين ليكون غربيا خالصا ، وصاغته البيئة الإجتماعية من الناحية الأخرى على نحو جعل أمانته للغرب ولفرنسا أكبر من أمانته للعرب والإسلام ، بل جعلته يقدم بلاده للغرب لتكون تابعة له فى الفكر ظنا منه أن ذلك قد يحررها من الاستعمار السياسى أو العسكرى بينما هو بما قدم إنما استهدف أن يصهر أمته وفكرها فى بوتقة الغرب ، إحتواء وتبعية ، ويحاول أن يجد كذلك من التبريرات ما هو كاذب ومضلل وذلك حين يرى أن الفكر الإسلامى خضع للفكر اليونانى قديما ولما كان الفكر الغربى الحديث وليد الفكر اليونانى فإن الفكر الإسلامى يستطيع المتابعة أو التبعية وهيهات أن يكون قوله ذلك صادقا أو مقبولا إلا عند أصحاب الأهواء أو البسطاء السذج الذين غرر بهم فى دروسه بالجامعة .

* * *

صور طه حسين علاقته بالمستشرق كازانوفا الذى علمه تفسير القرآن فى الكيوليج دى فرآنس على هذا النحو : يقول [1] « عرفته استاذاً فى الكيوليج دى فرانس ولم أكد اسمع له حتى أعجبت به إعجابا لم أعرف له حدا ، كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس ، كنت شديد الاعجاب بطائفة من المستشرقين ولكنى لم أكن اقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا فى اصابة وتوفيق لألفاظ القرآن ومعانيه ، والكشف عن اسراره وأغراضه ، فلم أكد اجلس الى كازانوفا ، حتى تغير رأيى أوقل حتى ذهب رأيى كله وما هى إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت ان الرجل كان اقدر على فهم القرآن وأمهر فى تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون انهم خزنته وسدنته واصحاب الحق فى تأويله ، فتنت بهذا الرجل لا لأنه كان عالما حاذقا ، ولا لأن منهجه فى البحث كان متقنا دقيقا حصيفا بل لهذا ولشىء آخر خير من هذا ، كان حراً خصبا رفيقا لا يتعصب لرأى ولا يتأثر بهذه العواطف المنكرة التى تفسد على الناس علمهم وادبهم وفنهم وحياتهم العقلية والشعورية بوجه عام ، كان كازانوفا مسيحيا شديد الايمان بمسيحيته يذهب فيها الى حد التعصب ، ولكنه كان إذا دخل

(١) السياسة اليومية ـ ٢٧ مارس ١٩٢٦

غرفة الدرس فى الكوليج دى فرانس نسى من المسيحية واليهودية والإسلام كل شىء ، إلا أن لها نصوصا يجب أن تخضع للبحث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها فى معاملهم بما يشاؤن من ألوان البحث والامتحان ، نعم ، لم يكن مسيحيا ولا يهوديا ولا متدينا حين كان يعرض لنص من النصوص القرآنية يدرس لفظه ويكتشف معناه .

وأشار إلى أن ابن خلدون كان أشد ثقلا عليه وأبرهم عنده فى آن واحد ، وأنه كان يحب ابن خلدون ، ولكنه كان يهاجمه كلما سنحت الفرصة ، ذلك لأن ابن خلدون اتهم العرب تهما وزعم أنهم لا يصلحون لحضارة ولا لعمران فلم يكن كازانوڤا يغفر له هذا الاعتداء .

وما أشار إليه طه حسين عن كازانوڤا ملىء بالمغالطات فلم يكن كازانوڤا يفهم فى القرآن ما يفهمه علماء المسلمين وإنما يفهمه ويبحثه من خلال ذلك المفهوم الاستشراقى للقرآن ، حين يرى الحرية المطلقة فى القول بأن القرآن من كلام محمد وأن آيات القرآن يمكن أن توصف بالقوة والضعف وهذا المنهج الذى تعلمه طه حسين من كازانوڤا هو الذى طبقه فى كلية الآداب وسجله تلميذه محمود المنجورى فى بحث نشره فى مجلة الحديث الحلبية سيرد فى موضعه فى هذا الكتاب ، وخلاصته أن هناك قرآناً مكياً وقرآناً مدنياً وان الرسول تأثر بالكتب القديمة ، فى أسلوب القصص ، إلى آخر هذا الاتجاه الجرىء على الله وكتابه ودينه ، أما موقفه من ابن خلدون فقد كان كاذبا فى اتهامه بما قال عن العرب ذلك أن ابن خلدون لم يكن يعنى العرب بما قال وإنما عنى الأعراب كما أشار إلى ذلك مؤرخوه : ساطع الحصرى وعلى عبد الواحد وافى .

وقد أشار طه حسين إلى أن كازانوڤا قد عطف عليه وبر به حين عينه فى الجمعية الأسيوية الفرنسية وأنه ظفر له بإحدى الجوائز عن رسالته .

وهذه عبارته : لم أكد أبرح باريس حتى أحسست عطف كازانوڤا لى وبره بى فإذا هو يقدمنى إلى الجمعية الآسيوية الفرنسية ويجعلنى أحد أعضائها معه ومع زميله هوار ، فاتصلت بينى وبينه هذه المودة العلمية الخالصة للعلم .

* * *

وأشار إلى موقفه من ليتمان : « إذا ذكرت ليتمان إنما أذكر أستاذاً كان له أبلغ الأثر لا أقول فى حياتى الخاصة بل فى حياة كثير من الشباب الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة المصرية القديمة ، ما أعرف أن أحداً أثر فى الحياة العقلية للشباب المصرى فى ذلك الوقت مثل الأستاذ ليتمان والأستاذ نلينو ، نشأ بينى وبينه شىء من المودة لم يلبث أن تحول فى نفس ليتمان إلى حب عميق وكان يعتبرنى ابنه ، وكان يرى أنى قد استطعت أن أفهم عنه (نقول وهذا شىء طبيعى) .

وقد سعى المستشرقون إلى إلحاق طه حسين بكل مؤتمراتهم وكانوا فرحين به لأنه كان يأخذ خططهم فينفذها ويقدم لهم من التقارير ما يرضيهم ، ولا يتردد فى أن يقول عن أى موضوع أن المستشرقين يرفضون هذا التفسير أو هذا الرأى ، وأنه لا بد من إتخاذ أسلوب آخر يرضيهم ويقنعهم ، وقد ظهر هذا واضحا فى بحثه عن الضمائر[1] فى القرآن وقد حجب الدكتور هذا البحث بعد عودته ولم يسمح بنشره باللغة العربية حتى استطاعت جريدة كوكب الشرق أن تحصل عليه وتنشره .

وقد كشف الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هذا المفهوم الدخيل الذى قدمه طه حسين ويمكن القول بأن طه حسين لم يترك فرصة تمر دون أن يشيد بالمستشرقين ولا يحلو له أن يعرض لموضوع أيا كان ، دون أن يشير إلى الاستشراق بالتمجيد والمتابعة دون تحرج أو تحرز أو حياء من الإحساس الذى ينشأ عند قارئه إزاء تبعيته وعبوديته وولائه الشديد للفكر الوافد .

وقد يصل فى ذلك إلى حد بالغ الخطر .

يقول الدكتور زكى مبارك فى هذا : لقد نشر المستشرق الروسى (اغناطيوس كراتشفوسكى) كتاب البديع الذى ألفه ابن المعتز . وأطال طه حسين فى الثناء على هذا المستشرق الروسى وتساءل مبارك قائلا : ترى ما هو هذا الجهد الذى بذله ذلك المستشرق الروسى حتى يستحق كل هذا الثناء ، كل ما فى الأمر أنه صحح سبعين صفحة ، ما قيمة ذلك بجانب الجهد القهار الذى بذله مؤلف النثر الفنى وهو يقع فى ثمانمائة صفحة من القطع الكبير ، لقد تجمعت فى طه حسين كل معانى المروءة فى تشجيع التأليف فقال (كتاب من الكتب ، أخرجه كاتب من الكتاب) فهل تعرفون كيف يثنى على من يصحح سبعين صفحة ويتجاهل من يؤلف ثمانمائة صفحة ؟

الجواب سهل : فذلك الرجل الذى صحح سبعين صفحة يعيش فى أرض بعيدة جدا هى البلاد الروسية ولن يعود عليه الثناء بمنفعة عاجلة أو آجلة تضايق الدكتور طه حسين ، أما الثناء على الرجل الذى ألف ثمانمائة صفحة فخاطرة لها عواقب لأن مؤلف (النثر الفنى) يعيش فى مصر ، والثناء عليه بما هو أهله يضايق الدكتور طه مضايقة عنيفة ويضعه فى كفة الميزان مع شاب كان بمنزلة التلميذ من الأستاذ . أفهمتم كيف يتحكم الهوى والغرض وكيف

---

(١) أشارت جريدة الأهرام فى ١٢ سبتمبر ١٩٢٨ إلى أن مندوبها رأى صورة من محاضرة الضمائر فى القرآن وأراد الإطلاع عليها ولكن الدكتور قال له انه لا يشاء أن ينشرها باللغة العربية .

تختلف الأحكام باختلاف الظروف ؟ هو يختطف كل ما يراه فى طريقه من الآراء التى تصله من بلد بعيد ، فهـو اليوم تلميذ فلان وغدا تلميذ علان وكان بالأمس تلميذ ترتان وتكاد تجـزم أنه لا يتشيع لفكرة ما إلا وهو فيها تبع لشخصـية يتوهم أنهـا مستورة عن الناس ، ولكنه فى هذه الناحية سيء الحظ ففى مصر رجل يعرفه كما يعرف نفسه ، وهذا الرجـل صـحب المستشرقين أكثر مما صحب وهو يعرف من أقوالهـم أكثر مما يعـرف ، فليس بغـريب أن نرى الدكتور طـه مطوقا بتهمة السرقة الأدبية فى أغلب ما ينشر من الآراء [1].

* * *

ولقد تابع المستشرقون طه حسين بالرعاية والتأييد والحـديث عنه وتقـديره ودعوته إلى كل مؤتمراتهم وحتى الساعات الأخيرة لوفاته كانوا يهدونه جائزة ونيشـانا ومالا وكذا دون توقف ، وقد ألف المسـتشرقون الإيطاليون عنه كتابا أشرف عليه فرانشـيسكو جـابريلى تحـدثوا فيه عن دراساته للتاريخ والنقد والقصة والإسلام وفى هذا الكتاب يقولون أن ما كتبه عن أدب اليونان وتاريخهم وحياتهم خير ما قدم للأدب الغربى ، وأن كتابه على هامش السيرة قد كشف غوامض تاريخ المسيحية فى الشرق (نقول المسيحية لا الإسلام) .

* * *

(١) جريدة البلاغ ٢٨ يولية ١٩٣٥ ـ وصاحب النثر الفنى هو زكى مبارك نفسه كاتب الكلمة .

الفصل الرابع

التبعية للفكر الغربي

قدم المستشرقون إلى طه حسين الفكر الغربي، في صورته التي عرفها الغرب في العقد الأول والثاني من القرن العشرين، وهو فكر حاصرته الأيدلوجية التلمودية فانصهر فيها فقد كانت مدرسة العلوم الاجتماعية قد ظهرت في فرنسا وظهر من قبلها ذلك التيار الخطير الذي هاجم المسيحية وتحول عن الفكر المسيحي والفلسفة المثالية إلى الفكر المادي المتأثر بالمفاهيم التلمودية، في حلقات متصلة تبدأ بفولتير، وفلاسفة الثورة الفرنسية: روسو وديدرو ثم تتصل بأوجست كنت، وارنست رينان، وماركس وتصل إلى دور كايم وفرويد وسارتر وتحملها أقلام وألسنة: كازانوفا، ليفي بريل وما سنينون وغيرهم.

وعن طريق هؤلاء تشكلت في نفس طه حسين وعقله وأعماقه تلك العقيدة التي عاش متحمسا لها ومدافعا عنها وحفيا بها وهي الوفاء للفكر الغربي ولفرنسا وللفكر اليوناني ولأوروبا، يقول.. «الأب» كمال قلته: في رسالته عن طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه: أن الفكر الفرنسي بالنسبة إلى طه حسين أكثر من مدرسة أو من معين لقد كان جزءاً من حياته وجزءاً من إنتاجه حتى تكاد تحسب من خلال قراءة ما كتبه عن فرنسا وعن أدباء فرنسا وعن تاريخ فرنسا فرنسا ما يقنعك بأن هذا الأثر لا ينتجه إلا من كان فرنسيا فكراً وعقلا وثقافةوإحساسا فعلاقة طه حسين بالفكر الفرنسي ليست علاقة أخذ فقط».

ويصور هذه العلاقة في تلك المتابعة بالإعجاب والإيمان لأراء المفكرين الغربيين، كذلك إعجابه بباريس حتى أنها تكاد في رأيه «تختصر العالم الإنساني على اختلاف أزمنته وأمكنته». ويقول أنه حين وصل إلى فرنسا اندمج اندماجا تاما في الحياة الفرنسية.

ويصل الأب قلته بعد تفصيل واسع إلى التساؤل: ما الذي أثر في طه حسين من الثقافة الفرنسية أكثر من غيره من الأمور، ويجيب على ذلك بقوله: في ظني أن البيئة الفرنسية بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني الحسية والمعنوية، البيئة الفرنسية في كل مظاهرها الخارجية والثقافية، البيئة الفرنسية كبلد من بلدان العالم له تاريخه وجغرافيته وأثره البعيد والبيئة الفرنسية كحضارة من أرقى الحضارات، البيئة الفرنسية كأسلوب من أساليب الحياة العصرية،

إسراف فى الحرية وحب الحرية نادراً ما نجد مثله فى غير فرنسا، حب للحياة وانغماس فيها، البيئة الفرنسية كثقافة، وفيها فلسفة إنسانية هى امتداد للفلسفات اليونانية واللاتينية بل لعلها هى ميراث هاتين الفلسفتين، هذه البيئة الفرنسية هى أهم ما أثر فى طه حسين وفى فكره وفى حياته وفى أسلوب تفكيره وفى نظرته للأمور. لقد كانت حياة طه حسين الفكرية، وفلسفته تنصب فى ظنى على غاية أساسية أن يخلق من مصر امتداداً لأوربا وللثقافة الغربية وفرنسا بالذات، لقد كان يود من صميم أعماقه أن تقوم فى مصر حضارة ورقى كما فى أوربا وبخاصة فى فرنسا [1].

ولا ريب إن هذه العبارة للباحث «كمال قلته» تمثل أخطر الآثار التى أحدثتها رحلة أوروبا وبيئة المستشرقين فى طه حسين: وهى دعامة فكره كله واتجاهه كله طوال حياته من بعد.

* * *

ان الفكر الغربى الذى تلقاه طه حسين فى باريس وصدر عنه من بعد طوال حياته فى كل كتاباته (سواء كانت أدبية أم تاريخية أم إسلامية) يتمثل فى خمسة مصادر هامة:

(١) فولتير: الفكر الحر

(٢) ارنست رينان وتين: الجبر التاريخى، والاتفاق بين نشأة رينان ونشأة طه حسين (قسيس وشيخ أزهرى) كلاهما رأى نبيه من غير وجهة نظر دينه (كتب رينان عن المسيح وكتب طه حسين عن محمد) من غير وجهة النظر الأصلية.

(٣) أوجست كونت وبول فاليرى: ومفهومها يتمثل فى قدرة العلم وحده على إيجاد حل المشكلات والقضايا الفلسفية والاجتماعية، ويدور حول: الجماعية وإلغاء الفردية والذاتية.

(٤) دور كايم وتين: ويتمثل مفهومها فى نظرية تقديس الجماعة والإيمان بالجبر التاريخى المطلق.

(٥) ديكارت وسانت بيف ومنهجها فى الشك الفلسفى.

وقد صور طه حسين اغلب هذه الشخصيات وكشف عن إعجابه بها ومتابعته لها.

(١) اما فولتير فقال عنه إنه كان صاحب عبث ولهو ما وسعه العبث واللهو. وكان حاد اللسان الطبع إنتهى به هذا إلى أن أغضب بعض الناس، وأنه كان حاد المزاج سريع التأثر بكل ما يرى ويسمع ويحس، وانه جاهد فى سبيل حرية الرأى وأثر جهاده فى الحياة الفرنسية أولا ثم فى الأوربية بعد ذلك ثم فى الإنسانية بوجه عام، واندفع فى ذلك إلى غير حد فأساء إلى الدين نفسه وقال إن فولتير كان يحب الجد ويكلف بالشهرة ويحرص على السلطان، وإنه كان عدوا للديانات.

---

(١) ص ١١٤ من كتاب طه حسين

يقول : « وأنه كان يعلل ذلك أولا بأن الديانات مخالفة للإنسانية لأنها سبب الإضطهاد وسفك الدماء ، نقول (لا شك أن فولتير يقصد اليهودية والمسيحية) وثانيا لأن الديانات مخالفة للعقل لأن فيها أسراراً لا يستطيع العقل أن يفهمها وثالثاً لأن الديانات عنده ديمقراطية وهى من حضارة الطبقات المنحطه لا تتصل بالطبقات العليا ، وأنه قد اندفع فى بعض الديانات إلى سخف كبير لا حد له فقد هاجم التوراة والكتب المقدسة كلها ».

كل هذا قاله طه حسين عن فولتير وهو يوحى بما يقول هو ويردده حتى يجعله كلاما سائغا ومقبولا لأنه يلقيه فى محيط آخر غير محيط الغرب المسيحى وذلك لأن الكوليج دى فرانس كانت ترى ويرى معها الاستشراق ومن ورائه الصهيونية والتلمودية والماسونية وأصحاب الثورة الفرنسية أن إذاعة هذه الآراء كانت مقدمة للتحول الذى حدث فى الغرب وأن نقله إلى محيط الفكر الإسلامى سيؤدى إلى مثل ذلك ، وكل كلمات طه حسين توحى بالإعجاب بفولتير ، أحد دعائم المحافل الماسونية وفلسفتها ، ولو أن هذه العبارات لم تكن تصور فولتير ، لكانت خليقة بأن تصور طه حسين نفسه ، ولقد كان طه حسين متجاوزا لحق الترجمة والعرض للشخصيات الغربية بحديثه هذا الذى القاه فى قاعة إيوارت فى الجامعة الأمريكية بعد أن انضم إلى الوفد وأصبح آمنا فى حماية هذا الحزب الشعبى الكبير) وهو ما جمع فى كتاب اراء حرة ص ١٥٣)

ويقول طه حسين عن مثله الأعلى رينان : لقد اندفع (أى رينان) فى الانتصار لحرية الرأى حتى لم يفرق بين حرية الرأى وبين الشك وحتى جعل الحياة لونا من ألوان العيب - إن صح هذا التعبير - تستطيع أن تستبق من رينان هذا الجهد الصادق فى سبيل العلم والبحث الحر ، ولكنك لا تستطيع أن تستبق هذا الإسراف فى الشك وهذا اللهو بالنظريات وهذا العبث بالحقائق وهذا الاندفاع إلى القبول والرفض والاستعداد لقبول كل نظرية وتلق كل رأى ، وفى الإيمان والاضطراب وفى هذا خطر لا بد للذين يقرأون رينان أن يتقوه » ونحن بالذى قال به طه حسين عن رينان نقول عن طه حسين ، وستكشف صفحات حياة طه حسين وفكره فيما بعد مشابهة تامة بهذا الذى انتقده فى رينان ومتابعة تامة له .

(٣) كذلك فقد كان ولاء طه حسين للفكر الغربى ماضيا فى طريقه الذى لا يمد الفكر الإسلامى بالايجابيات والقيم العليا والمناهج والأساليب الأصيلة ، ولكن بهذه السلبيات كلها ، وهو فى أقوى مجال وأكبر ميدان عمل فيه وهو ميدان الأدب نجده يتابع « تين » فى رأيه ومفهومه الذى استمده من المذهب المادى الذى لا يرى الإنسان إلا جسما ومادة ولا يرى فى إطار حياته إلا البيئة والعصر وحدهما ويتجاهل تجاهلا تاما أن الإنسان روح ومادة وان هناك بعدا ثالثاً للحياة هو : العقائد التى تربط الإنسان بالله وبالوجود كله من أزله إلى أبده وتربط الحياة الدنيا بالآخرة . وتجعل الإنسان المريد مسئولا وملتزما أخلاقيا ومبعوثا للجزاء والحساب بعد الموت ، هذا المفهوم الإسلامى أنكره طه حسين فى نظريته فى نقد الأدب ، متابعة لصديقه

« تين » الذى يصوره فى محاضرته فيقول :

ويرى (تين) أن الإنسان حيوان ينتج الأدب والعاطفة كما أن دودة القز تنتج القز، وكما أن الأرض تنتج ما تنتج من نبات، إذن هو يدرس هذا الحيوان الذى ينتج الأدب كما ندرس دودة القز والأرض التى تنتج النبات وهو من هذه الناحية يوشك أن يكن ماديا وهو مسرف فى التأثر بالفلسفة والعلم إسرافا يوشك أن يخرج الأدب عن طوره الذى ألفه الناس، وهو منكر قبل كل شىء لحرية الفرد، لا أريد الحرية السياسية ولا الحرية الشخصية وإنما أريد الحرية الفلسفية، وهو ينكر (الاختيار).

ويعتقد أن العالم متأثر بطائفة من القوانين تدبره وتسيره دون أن تتعرض هذه القوانين للخطأ أو الاضطراب ؛ فهو إذن من أنصار الجبر، ومن الذين يعتقدون أن الإرادة الفردية لا تؤثر فى حياة العالم بشكل من الأشكال.

وهو حين يريد أن يفهم شيئا من الأشياء فهو لا يعتمد فى فهم هذا الشىء إلا على الحس يرى أو يسمع أو يلمس. فهو إذن من أنصار منهب الحس، وهو معرض عما بعد الطبيعة لا يرى للانسانية وسيلة إلا بالحس، وهو لا يؤمن بما بعد الطبيعة ولكنه لا يجحده، وإنما يقول : لا أراه فلا أعرفه، وهذا رأيه فى الإله، فإذا انتقل إلى دراسة الإنسان فرأيه فى الإنسان ردىء وهو يعتقد أننا إذا درسنا نفس الإنسان وجدناها تنحل إلى شيئين اثنين :

الإنسان قبل كل شىء حيوان متوحش وهو بطبيعته كغيره من الحيوانات الضارة المفترسة تهذبه الحضارة شيئا فهو إذن يحتقر الإنسان، وما دام مؤمنا بالجبر منكراً للإرادة مؤمنا بأن الإنسان شرير بطبعه وأن عقل الإنسان شىء مكتسب فهو غير متفائل بالحياة وهو ساخط منكر للناس منكر لحياتهم على اختلافها وما دام (تين) يؤمن بأن الإنسان كغيره من الأشياء خاضع لقوانين العلم فليس من سبيل إلى دراسة الفرد من حيث هو فرد ولا سبيل إلى أن يدرس على أنه فرد جزء من الأمة والأمة جزء من جنس والأمة متأثرة بالإقليم، متأثرة بالزمان متأثرة بكل ما يتصل بها من مظاهر الكون والحياة ويقول أن (تين) فرض حرية الرأى على نفسه وخصومه وأنصاره فرضا وهو بهذا يدفع الفرنسيين والشباب إلى أن يفكروا فى كل شىء وأباح لهم أن يعرضوا كل شريف للإنكار والشك والرفض ».

وهكذا يحرض طه حسين الشباب ويفتح أمامه أبواب الإثم وسموم الفكر وإباحيات المذاهب ويشى بأشياء خطيرة، من بيئات أخرى، فينقلها الينا ويثيرها خلال هذه الدراسات وفق أسلوب الاستشراق فى إثارة الشكوك، وهو فى نفس الوقت يكشف لنا عن أعماقه التى آمنت بالفكر الغربى فى أشد أحواله عنفا وشكا واختلاطا واضطرابا.

وذلك مذهب فى النقد الأدبى أخذه من (تين وبرونتير وسانت بيف) لا يخرج عن هذه

المعانى وذلك هو الذى طبقه من بعد على الأدب العربى فى عصور الإسلام وعلى الأدب العربى الحديث، وتجاهل به أصالة الفطرة الإسلامية وطبيعة الإنسان الجامعة بين الروح والمادة، وأثر العقائد والأديان فى بناء الأفراد، فكرهم ووجدانهم.

وإذا كان تين قد عرف الجبر، وعرض له طه حسين فى إنكار فإن طه حسين هو أول من أدخل مفهوم الجبر إلى الفكر الإسلامى الحديث حين كتب عن أبى العلاء وقبل أن يذهب إلى أوروبا متأثراً بالنظريات التى طرحها المستشرقون فى دراسات الأدب فى الجامعة المصرية القديمة، ولقد ظل طه حسين فى فكره كله جبريا منذ ذلك اليوم فهو ينكر الإرادة الإنسانية وينكر ما يتبعها من مسئولية وجزاء وإذا كان يذهب فى ذلك مذهب الغربيين فهو ذاك وإذا لم يذهب فهو ما تقول به الباطنية فى الفكر القديم العنوصى السابق للإسلام والذى جدده ابن الراوندى والرازى وغيرهم.

ويقول كمال قلته فى كتابه عن طه حسين (فى رأيى أن فولتير وطه حسين متفقان تماما فى المبادىء التى ارتكزت عليها فلسفتيها) وصدق.

(٤) وأعجب طه حسين فى الفكر الغربى بالفيلسوف الذى وصف بأنه صاحب دين جديد فى الغرب (أوجست كونت) صاحب الفلسفة الوضعية الذى يقول بقدرة العلم على حل جميع القضايا والذى أعلن (دين البشرية) ووضع العقل فى المحل الأول لاستكشاف قوانين الوجود، ويتابع طه حسين رأيه فى الفرد والجماعة، يقول (فالفرد إذن ظاهرة اجتماعية وإذن فليس من البحث القيم العلمى فى شىء أن تجعل الفرد كل شىء وتمحو الجماعة التى أنشأته وكونته محواً، إنما السبيل أن تقدر الجماعة ويقدر الفرد، ويقول : (ليس من الحق أن تنسى الجماعة التى هى المؤثر الأول فى ظهور الأداب والآراء الفلسفية وتقصر عنايتك على الفرد الذى كان مظهراً لهذه الأداب وهذه الآراء) وهو يذهب فى هذا مذهب الفلسفة المادية والماركسية التى تقول حيث يقول :

(والفرد إنما فى وجوده المادى والمعنوى أثر اجتماعى وظاهرة من ظواهر الاجتماع).

وذلك قمة مفهوم (أوجست كونت) الذى عمقه من بعد (دور كايم) وصولا بالفكر الغربى إلى المادية المطلقة.

ويقول كمال قلته : يتفق كونت وطه حسين.. فى أن الجماعة هى التى تنتج الفرد والدراسات العلمية والاجتماعية والخلقية ينبغى أن تنطلق من الجماعة لا من الأفراد فالفرد ظاهرة اجتماعية فى وجوده المادى والمعنوى أثر اجتماعى، فجسمه وعقله وروحه أثر من ثمار البيئة الاجتماعية.

وهذه هى بذور النزعة الجماعية الماركسية فى أدبه وهى تتعارض تعارضا مطلقا مع مفهوم الإسلام للجماعة والفرد، كما تعارضت فكرة الجبرية التى آمن بها مع مفهوم الإسلام من قبل.

(٥) ويقبل طه حسين منهب سانت بيف فى قطع علاقة الأدب بالفكر والدين ، ويحاول أن يجعل الأدب الذى هو قطاع من الفكر لا ينفك عنه متصلا به فى مفهوم الإسلام الجامع ، يجعله متحرراً يستعلى ويذهب إلى أبعد الغايات فى الحرية متجاوزا ضوابط الأخلاق والقيم ، يقول سانت بيف : « كيف يمكن للأدب أن يكون فنا إذا خضع لكل ما تحمل الأديان من حقائق أو من أساطير دخيلة » ويردد هذا طه حسين دون أن يعى أن لدين الذى هو منتسب إليه ليس كذلك وأنه يحمل الحقائق وحدها ولا يحمل معه أى أساطير موروثة أو دخيلة ولذلك فإنه لن يكون مانعا للأدب من أن يؤدى رسالة الحق ، لقد كتب سانت بيف رأيه فى ظل تراثه الهلليفى المسيحى الوثنى المضطرب ولكن طه حسين لم يواجه الحقيقة فى آفاق الفكر الإسلامى الذى يختلف عن مثل هذا التراث .

ويتصل بهذا ما أثاره طه حسين تبعا لما قال به سانت بيف من تقديس القدماء والسلف . والإسلام لا يقدس القدماء ولا السلف ولكنه يقدس الأصول الأصيلة للإسلام ويقايس عليها الرجال ، فإذا كانوا صادقين فى إيمانهم وعملهم وفق هذه الأصول فهو يكرم أعمالهم ، ليس فى الإسلام قداسة للقدماء ولا السلف ولكن هناك تقدير لدورهم الصادق فى نشر العقيدة وحماية الفكرة والدفاع عنها وتحريرها من الاضطرابات الذى يصيبها حين يتصل بها الفكر البشرى والوافد .

(٦) ويتأثر طه حسين ببودلير وبول وجاليرى واندريه جيد فى إطلاق الفن من قيود الأخلاق ويدعو إلى ذلك فى حرارة ، ويترجم أسوأ قصائد ديوان بودلير (زهور الشر) ويشيد بها ويقول أنه استطاع أن يتخذ من الرذيلة والضعف البشرى موضوعا للفن ، ويحاول أن يحدث فى الأدب العربى ما أحدثه هؤلاء فى الغرب فيحيى قصص الفساق والزناة والإباحيين ويستخرجها من كتب المحاضرات والأغانى ويقدمها فى أسلوب مثير يملأ نفوس الشباب حباً لها وشغفاً بها ويضيف إلى ذلك مترجماته من الأدب الفرنسى المكشوف المسموم .

ومنه ذلك الاهتمام بالشخصيات غير السوية فى الرجال والنساء .

وهو معجب باندريه جيد لأنه « شخصية متمردة بأوسع معانى الكلمة وأدقها ، متمردة على العرف الأدبى وعلى القوانين الخلقية ، وعلى النظام الاجتماعى وعلى النظام السياسى وعلى أصول الدين » وقد أشار إلى أنه يحب اندريه جيد ويترسم خطاه وقال أنه يصور نفسه من خلال شخصيته (أى شخصية أندريه جيد) .

(٧) ويتأثر طه حسين بدور كايم تأثرا شديدا فى نظرته التى استمدها من الفكر الماركسى وهى نظرية تقديس الجماعة ، يقول كمال قلته : إن نظرية تقديس الجماعة (بالنسبة لدور كايم وتلميذه وهى كذلك بالطبع بالنسبة لأتباعه أمثال طه حسين) هى بالنسبة لهم كمثل إله بالنسبة للمؤمنين به وأنه من خلال دراسة الحياة الاجتماعية يمكن دراسة الفرد ، ومن هنا نقول فإن

محاولة محاكمة « ابن خلدون » إلى هذا المفهوم الخطير الذى لا يقره الإسلام، لا ينتج منه إلا المعارضة.

(٨) وبالجملة نجد أن الفكر الفرنسى الذى آمن به طه حسين ودان له وحمل أمانته ونشره ودافع عنه واتخذه طريقا إلى النهوض ببلاده هو ذلك الفكر الذى حملته هذه المجموعة من المفكرين الذين دانوا للنظرية المادية وللجبر التاريخى وللجماعة مع اعتبار الفردية تابعة لها، والذين اعتبروا الإنسان مادة صرفا، وأخضعوه لتأثرات البيئة والعصر والجنس، دون أن يربطوه بالقيم العليا والإيمان ويقول طه حسين بأن الإنسان ليس له حرية فى الحياة، « وأن الظواهر المادية ليس فيها تدخل إلهى، وأنه ليس هناك ارتباط بين الله والإنسان فيما يتم فى الكون وأن الإنسان مسير إلى مصير محتوم سببه علل مسبقة ».

وأن العلم وحده هو القادر على حل القضايا الاجتماعية والفلسفية، وأن العلم مبنى على قواعد ثابتة لا تتغير (الأب قلته ص ٩٨).

وهذا المفهوم معارض تماما لمفهوم الإسلام فى جملته وتفصيله، لكن طه إنما كان يتقبل هذا كله عن الفكر الغربى الذى دخل فى مرحلة الاحتواء التلمودى بابتعاث الوثنية والمادية الهلينية مرة أخرى، هل كان قاصداً إلى تسميم الآبار الإسلامية، أم كان يظن أن هذا هو الطريق الوحيد للفكر الإسلامى أم أنه لم يكن يتبين عمق الفوارق بين مفهوم الإسلام الجامع وبين مفهوم الفكر الغربى القاصر فى حدود المادة والحس والمنكر تماما لما وراء الطبيعة ؟ ذلك ما تحاول أن تكشف عنه هذه الدراسة فنحن لا نستبق الأحداث حتى نصل إلى ما كتب طه حسين من بعد، ولكننا الآن نكتفى بأن نصور ما تلقاه فى أوروبا وما تأثر به.

وقد أشار هاملتون جب : إلى هذا الاتجاه من بعيد حين قال : إن طه حسين هاجم الرأى العام المصرى بطريقة الشك الفلسفى والرأى العام غير مستعد لها وسار يقطع المراحل فى إنكار الأديان وعنوان هذا الأسلوب حديث الأربعاء، ثم تبعه بكتاب فى الشعر الجاهلى فأحدث ضجة ألجأت أولياء الأمور إلى منع الكتاب عن الناس واتهام طه حسين بالزندقة وفى تلك المرة ذاق من الشرور التى كادت تجرها عليه جرأته ».

* * *

الفصل الخامس

الولاء للسياسة الغربية

فى ضوء هذا المفهوم للفكر الغربى ، وللإعجاب بأوروبا عامة وفرنسا خاصة كانت له مواقف ، دافع فيها عن أوروبا والغرب ضد قومه العرب والمسلمين وخاصة فى المغرب وسوريا . فقد رمى[1] عرب أفريقيا الشمالية بالهمجية والتوحش وقال إن الفرنسيين قد عانوا مشقة شديدة فى سبيل إخضاعهم وزعم ان ابن خلدون مخطىء فى إسناده هذا العصيان من عرب المغرب إلى العزة والإباء يقول طه (بل إن الفرنسيين أنفسهم قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة فى مراكش فى سبيل بسط حضارتهم عليها ولم يستطع الرومان ولا الإسلام أن يلطفا من أخلاق هذه القبائل أو يروضاها على الحياة المنظمة للشعوب المتمدينة ولكن الحضارة الحديثة مع ما لديها من وسائل أقوى وأنفذ قد تصل إلى هذه الغاية يوما ما .

وليس هذا القول (كما يقول دكتور محمد غلاب) خالصاً لوجه العلم ولا لنصرة الحق ولا الدفاع عن مظلوم ولكنها مساعدة القساة المستعمرين ووصف أعمالهم الوحشية بأنها معاناة ومشقة فى سبيل بسط الحضارة والمدنية على تلك الشعوب المتوحشة التى ترفض التقدم والإستنارة ولو أن الدكتور طه أنصف لأعلن أن فرنسا تعانى ما تعانيه من المشقة ، (يقول هذا رجل تعلم أيضا فى فرنسا) فى سبيل شراهتها ومطامعها وبسط سلطانها على شعوب أضعف منها وأقل عدداً واستعداداً ولا يعترف بأن امتناع هذه الشعوب عن قبول السلطان الأجنبى ضرب من ضروب العزة والكرامة والإباء والترفع عن إرضاء فرنسا والتمتع بحظوة علمائها فى السربون على حساب أولئك المراكشيين الضعفاء المظلومين ولحاسب نفسه على ما يكتب ولخشى أن يترجم كتابه يوما إلى اللغة العربية فيقرأ الشاب المصرى الذى يقف الآن من انجلترا موقفا يكاد يشبه موقف المراكشيين فى فرنسا فتجرهم قراءته إلى الاستكانة والذل أمام الانجليز . إن الدكتور طه لم يبال فى سبيل غرضه بأن يخلط العلم بالسياسة ولم يكترث بأن يراعى فى هذا الخلط حرمة الحقيقة ولم يعتبر نتيجة هذه الأفكار فى الشباب الشرقى » .

---

(١) فلسفة ابن خلدون الإجتماعية : اطروحة طه حسين فى باريس

(٢)

وفى ضوء هذا نجد السياسة الاستعمارية فى المغرب كانت دائما توجه الأنظار إلى طه حسين وإلى أثر العبقرية الفرنسية فى صنع أمثال هؤلاء الأعلام وقد تبنت جريدة السعادة التى تصدرها السلطات الفرنسية فى الجزائر مثل هذا الاتجاه الذى أطلقت عليه « الروح الفرنسية » وتأثيرها فى الشرق العربى الحديث » وقد تحدثت بأقلام تابعين للفكر الغربى عما أسمته (لماذا أثرت العبقرية الفرنسية فى التفكير العربى دون سواها من عبقريات الأمم الأخرى) فى محاولة للتقريب بين الجزائريين والفرنسيين بخداع الأجيال الجديدة ومحاولة استقطابها بمحاولة ربط رفاعة الطهطاوى ومصطفى كامل وشوقى بفرنسا وبالثقافة الفرنسية فى القديم ، ومنصور فهمى وهيكل وضيف وطه حسين وصبرى ومبارك وبشر فارس فى الحديث وقالت إن فكر طه حسين فكر فرنسى وأسلوبه فرنسى وأنه اقرب إلى أسلوب تين ورينان (صحيفة السعادة فاتح فبراير ١٩٤٦)

وقد كانت بلاد المغرب حتى عام ١٩٥٤ مغلقة أمام العرب تماما ، ولكن السلطات الاستعمارية سمحت لبعض رجال الثقافة الفرنسية بالدخول ، وهم محمود عزمى وطه حسين . وقد ظن البعض فى مصر أن هذا نصر تحققه الثقافة العربية وليس غريباً ولا مثيرا للدهشة أن تسمح السلطات الاستعمارية لطه حسين بدخول المغرب بالرغم مما قاله فى المغاربة فى رسالته عن ابن خلدون .

ذلك أن طه حسين . هو وليد الفكر الغربى بعامة والفرنسى بخاصة وأنه معجب بفرنسا يقول « كل شىء فى فرنسا يعجبنى ويرضينى : خير فرنسا وشرها حلو فرنسا ومرها ، نعيم فرنسا وبؤسها كل ذلك يروقنى ويلذنى وتطمئن إليه نفسى اطمئنانا غريبا . إنى لأحس نفسى تسبق القطار إلى باريس على سرعة القطار ، وهى فصول مطولة فى تصوير باريس بأنها الجنة التى وعد الله عباده المتقين .

كما يشير إلى هذه الفريضة الكاذبة : فريضة الحج إلى السربون .

وهو يصف النساء خاصة ولعل هذا كان من إعلانات الدعاية إلى التصييف فى فرنسا : « أما النساء فلهن منطق معقول ، هن متجردات بالنهار على الساحل متجردات فى الليل إذا أقبلن إلى الكازينو ، ولكنهن لا يظهرن فى أجسامهن ما يظهرن فى النهار وإنما يظهرن فى النهار نصفا وفى الليل نصفا آخر للنهار الاعجاز وللليل الصدور » .

وهكذا يعلن طه حسين عن باريس !

ولطه حسين تبعية سياسية : بالنسبة للاستعمار فى سوريا ولبنان كما فى المغرب ، يصور هذا خليل تقى الدين (الأديب : حزيران ١٩٤٥) فيشير إلى أنه بعد أن أوقعت فرنسا عدوانها على سوريا ولبنان ويوم عقدت الجامعة العربية دورتها الطارئة لمواجهة هذا الحدث أوائل يونية ١٩٥٤ وقد وفدت وفود البلدان العربية إلى مصر ومن بينها وفدان يمثلان سوريا ولبنان يحملان إلى مجلس الجامعة أمانى بلدين مناضلين فى سبيل استقلالها وسيادتها وقد خلفا وراءهما مدنا هدمتها مدافع الفرنسيين ، وقبوراً ملئت بشهداء جشع الاستعمار وإذا بالدكتور طه الأديب العربى الكبير ، يطالع العربية بمقالات كالأنهر طولا والتواء يحاول فيها أن يدافع عن سياسة ديجول تحت ستار الثقافة والأدب والفن وقيل لنا : لاتؤاخذوه ، تلك أحقاد رجل أقصته السياسة عن الوظيفة ، وقال آخرون ما دخلت السياسة شيئا إلا أفسدته ، أما نحن فلا ندرى ما نقول .

يقول طه حسين فى مقال افتتحه بهذين البيتين :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم ... وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

إن تصرف المستر تشرشل مع الجنرال ديجول لم يكن ملائما للتقاليد الدبلوماسية لأنه أعلن رسالته إلى الجنرال فى لندن قبل أن تصل إلى الجنرال فى باريس وأن هذا التصرف قد عقد الأمر بين الفرنسيين والبريطانيين .

يقول : خليل تقى الدين :

إذن فلعينيك أيتها التقاليد الدبلوماسية وفى سبيلك يجب أن تضرب دمشق إكراما لعيون اللباقة والسياسة ولا بأس من تهديم بضع مئات من المنازل وتقتيل بضع مئات من الأبرياء وتقطيع أيدى الجنود والتمثيل بهم ، وقتل المرضى على أسرة المستشفيات وانتهاك حرمة البرلمان . هذا هو منطق الدكتور طه السليم وهذه هى الأخطار القوية التى رأى فرضا عليه أن يذيعها يوم انعقاد مجلس الجامعة المصرية لدفع العدوان عن سوريا ولبنان .

كلا يا سيدى الدكتور نحن لم ندافع عن تشرشل ولكننا نحارب الاستعمار وأيا كانت الأسباب التى حدث بك إلى إرسال مقالاتك فى تبرير عمل ديجول فى الساعة التى كانت سوريا تدفن فيها ضحاياها وتواريهم تراباً طاهراً ضمخ بالشهادة والبطولة فإننا لا نفهم ولا تفهم بلدان العرب المناضلة جميعا فى سبيل حريتها واستقلالها وسيادتها أن يقوم كاتب كبير وأديب مرموق كالدكتور طه أكرمته البلاد العربية ولم تمن عليه فيسخر قلمه للكلام فى الأصول الدبلوماسية ويصم أذنيه عن سماع صوت المدافع تقصف فى دمشق ، بئست الأصول

الدبلوماسية يا سيدى الدكتور وبئست السياسة إذا كانت أقدار الشعوب بحاجة أن تكون رهنا على مراعاتها ! ! .هـا .

وهكذا جاء طه حسين فى ذلك اليوم ليقول للعرب إن ضرب فرنسا لدمشق إنما جاء لأن هناك خطأ دبلوماسيا وقع من بريطانيا وأن تشرشل فى تصرفه مع ديجول لم يكن ملائما للتقاليد الدبلوماسية وقد أثار هذا التصرف كراهية وشكا كثيرا فى تبعية الدكتور طه للسياسة الغربية ، والدفاع عنها فى الوقت الذى تجتاح فيه هذه السياسة قطراً عربيا كذلك فعل مع المغرب ومع هذا فقد استقبل طه حسين بعد ذلك فى لبنان وفى المغرب بالحفاوة والتكريم كما فعل مع دمشق ومن هذا أيضاً إن طه حسين لم يكتب منذ احتلال الصهيونية لفلسطين مقالا واحدا حتى انقضى أجله عن الصهيونية أو اليهود أو حق شعب فلسطين .

(٤)

لطه حسين فى هذا المجال جولات واسعة ، منها ذلك الإعجاب الدائم والمتجدد بالثورة الفرنسية وكان موقفه بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ بعيد الأثر فى الدفاع عن الإرساليات الأجنبية فى مصر وحمايتها مما سيأتى تفصيله وهى المرحلة التى كتب فيها كتابه (مستقبل الثقافة) ليدافع عن التبعية الغربية الممثلة فى المدارس والجامعات والمناهج باسم التعاون الثقافى مع الغرب .

* * *

البــاب الثانى

مرحلــة النضــوج والتألق

أولا في الجامعة
ثانيـا في وزارة المعارف
ثالثـا في الصحافة
رابعـا في السياسة

مدخل

تمتد هذه المرحلة منذ عودة طه حسين من أوربا ١٩١٩ حيث عمل فى أربعة ميادين من خلال فترة امتدت ثلاثين عاما حتى انهيت حياته فى العمل الحكومى عام ١٩٤٩

تلك هى ميادين : الجامعة والصحافة والحزب ووزارة المعارف .

ثم لم يلبث طه حسين أن تولى منصب وزير المعارف فى وزارة الوفد عام ١٩٥٠ ثم شغل بعد ذلك عدداً من المناصب الثقافية فى الجامعة العربية ومجمع اللغة العربية واستمرت صلته بالتأليف والصحافة حتى نهاية حياته وكان قد توقف عن الكتابة عام ١٩٦٧ تقريبا وفى خلال هذه الفترة كان لطه حسين نشاطان آخران : هما الرحلة والمحاضرة .

وكان طه حسين قد بدأ حياته الأدبية عام ١٩١١ تقريبا حين أخذ يكتب مقالاته المتفرقة فى الجريدة واللواء والعلم وفى صحف أخرى كثيرة فى الفترة السابقة لسفره إلى أوربا ، ثم انضم حين عاد إلى جريدة السياسة وحزب الأحرار الدستوريين ، ثم اتصل بحزب الإتحاد فترة ما ، وفى عام ١٩٣٤ انضم إلى حزب الوفد وأخذ يكتب فى صحفه وفى خلال ذلك استمرت حياته الأدبية بالمقالة الصحفية وتأليف الكتب والترجمة من الأدب الفرنسى وكتب فى الأهرام والأخبار والجمهورية فى الفترة التالية لعام ١٩٥٢

* * *

الفصل الأول

فى الجامعة المصرية

عمل طه حسين فى الجامعة عام ١٩١٩ بعد عودته من أوربا وانتقل معها عندما أصبحت جامعة حكومية ١٩٢٥ استاذا وظل يرق حتى أصبح عميدا لكلية الآداب ، ثم أخرج منها ١٩٣٢ وأعيد أواخر ١٩٣٤ واستمر بها إلى ١٩٣٨ عندما انتدب مستشاراً لوزارة المعارف ثم عمل من بعد مديرا لجامعة الاسكندرية ثم عمل بعد ذلك فى وزارة المعارف مديرا للثقافة حتى أحيل إلى المعاش ١٩٤٩ ، أى أنه ظل متصلا بالجامعة والتعليم أكثر من ثلاثين عاما متصلة كانت له خلالها آثاره البعيدة فى المناهج ونظام الدراسة وأخلاقياتها وتقاليدها .

وقد فرض طه حسين آراءه بقوة سلطانه فى الجامعة وفى وزارة المعارف فقد كانت له جماعة تحوطه وتوزع عليه نفسها على أوجه النشاط المختلفة لتؤثر فيها وتتلق توجيهاته وتلفظ من يختلف معه أو يستعلى عليه كما حدث مع على العنانى وزكى مبارك وسليم حسن ونجيب البهبيق وغيرهم ومن هذا نفهم سر عبارةالمستشرق هاملتون جب فى دراسته عن طه حسين حين قال . « وسواء قوبلت آراء الدكتور بالموافقة أم لم تقابل فلابد ان يفضى نفوذه الواسع الذى يتمتع به إلى توطيد المبادىء التى يدعو إليها » فما هو هذا النفوذ ؟

فى نوفمبر ١٩١٩ قدم عبد الخالق ثروت (بوصفه سكرتير الجامعة المصرية) طه حسين إلى الجمهور فى قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية فى محاضرة قال فيها أنه عزم على إحياء التراث اليونانى لأنه يؤمن إيمانا جازما بأن مرجع الفكر فى الشرق والغرب هو إلى القدماء من مفكرى اليونان .

عمل فى هذه الفترة الأولى ١٩١٩/١٩٢٤ أستاذا للتاريخ القديم وكانت دعوته حارة إلى بعث تاريخ اليونان والرومان ثم عمل أستاذا فى كلية الآداب بالجامعة الرسمية وعلى شرط الواقف فقد دخل فى عقد تحويل الجامعة من أهلية إلى حكومية عام ١٩٢٥

وقد اختير لطفى السيد أنذاك مديرا للجامعة .

وفى ربيع عام ١٩٢٦ ألقى دروسه المشهورة عن الشعر الجاهلى التى لم تلبث حين طبعت أن

أحدثت دويا شديداً فى دوائر الصحافة و مجلس الشيوخ ومجلس النواب والأزهر لمعارضتها لطابع الفكر الإسلامى واعراف المجتمع وعقائده .

ومنذ تصدر فى كلية الآداب فقد أخذ يعد العدة لاخراج فريق منظم يسير فى الطريق الذى رسمه وبذلك عمل على اقصاء الذين كانوا على غير هواه واتجاهه

وفى مقدمتهم الدكتوران : أحمد ضيف وعلى العنانى وكون طائفة من العاملين لطريقه المؤيدين له وفى مقدمتهم أمين الخولى وأحمد أمين وأحمد الشايب .

وقد هزه حادث الشعر الجاهلى ولكنه سرعان ما تبدد أثره بعد أن صودر الكتاب حيث أخرج بديلا منه كتاب (فى الأدب الجاهلى) وهو نفس الكتاب بعد أن رفع منه فصلاً وأضاف إليه فصولاً ، وكانت السياسة الحزبية هى الحمى المتبع الحائل دون اعتقاله أو تقديمه إلى المحاكمة والذى حماه من غضب الشعب إنه سرعان ما سافر إلى أوروبا فارا من الخطر حتى هدأت الأحوال وأعلن فى الصحف أنه يشهد بأن الله لا إله إلا هو منفذا وصية ثروت صديقه وحاميه الذى قال له : إحن رأسك للعاصفة واثبت ولا ترد على ما ينشر وكان ما ينشر كثير وخطير .

ولكنه فى عام ١٩٣٢ وقد تغيرت الحكومات والأحزاب ، أخرج من الجامعة وأعيدت مناقشة أحاديث الشعر الجاهلى وضج مجلس النواب بالثورة التى ألهبها ضده الدكتور عبد الحميد سعيد والتى كشفت الأسلوب الذى كان يتعامل به مع الطلاب فى دعوته إياهم إلى نقد القرآن بوصفه كتاباً أدبياً .

وفى هذه الفترة ١٩٣٢ - ١٩٣٤ حدث أخطر تحول فى حياة طه حسين عندما تحول من تبعيته لحزب الأحرار الدستوريين إلى حزب الوفد فلما عادت أسهم الوفد إلى الارتفاع فى آخر هذا العام وكان قد كتب باسمهم فى (الكوكب) (ثم أصدر الوادى) أعيد إلى الجامعة فى ضجيج شديد وكان انتقاله إلى الوفد عملا من أخطر الأعمال فقد اتاح له حرية العمل فى مجال الفكر على نحو أشد جرأة وقوة .

وفى الجامعة عمل طه حسين على فرض اللغتين اليونانية واللاتينية بغير حاجة إليها .

وأنشأ القسم الفرنسى واستقدم المستشرقين الأجانب وثارت من أجل ذلك تأثرات لم تهدأ دافع فيها عن هذا الاتجاه التغريبى الذى أنشأه ودعمه وعززه خلال حياته الجامعية والحكومية كلها .

يصف البير برزان سكرتير طه حسين (الذى التق به فى أواخر عام ١٩٢١ وعمل معه

فترة عشر سنوات تقريباً) عمله فى الجامعة فيقول :

كان عملى مقتصراً على قراءة كتاب تاريخ العرب فى أسبانيا وغيره باللغة الفرنسية وجريدة الطان وكانت قراءة الكتاب المذكور هى العمل الأساسى فى تحضير محاضراته بالجامعة المصرية ، وفى المساء يتوجه إلى الجامعة فيلق محاضرته باللغة العربية النقية وكان يقرأ ما سمع فى الصباح لا تخونه الذاكرة فى سرد أدق بيان من وقائع التاريخ ولا فى الأسماء التى مرت على سمعه وقت القراءة ، كان رأسه آلة تلتقط الأشياء فتحفظها وتفهمها ثم تخرجها كاملة مرتبة متجانسة ليذيعها وبجانب الأدب الفرنسى (الراق) كان الدكتور يبحث فى كتاب الأغانى . كان الدكتور يجد فيه من الشعر ما يوحى إليه كتابة تلك الفصول الطويلة والبحوث الممتعة عن أبى نواس وخمرياته وعن بشار ورزائله وعن غيرهما . (جريدة الإنذار ـ ٢٥ فبراير ١٩٣٤) .

وهكذا نجد أن الدكتور طه حسين يترجم كتاب دوزى حرفيا فى محاضراته عن الأدب الأندلسى وعن غير دوزى فى بابه ، وانه يحسن نقل هذه المترجمات حرفيا إلى الطلاب فى الجامعة باللغة العربية ، حتى الأسماء الغربية كان ينقلها بالفرنسية ويحدث بلبلة وخلطا بالغين .

وكان طه حسين حريصا على أن يفتح الطريق لخططه فى الدراسة بالإشارة إلى استقلال الجامعة ، وإلى أنها ادخلت مفاهيم البحث الحر عن حقائق العلم والأدب لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ، وسرعان ما تكشفت أولى ثمار هذا المنهج الذى استقدمه الدكتور من الغرب وفرضه على التعليم الجامعى عندما طبع مجموعة محاضراته عن الشعر الجاهلى . وتبين منها كيف أباح طه حسين لنفسه التعريض بكثير من القيم الأساسية للإسلام بالنقد والسخرية والتحريف وخاصة ما يتصل بالقرآن ومن ذلك انكاره ورود الشخصيتين الكريمتين : ابراهيم واسماعيل وتكذيب حادث بنائهما الكعبة الثابت فى القرآن الكريم .

فلما أخرج من الجامعة من أجل ذلك وأقام طلبة الجامعة فيما اطلق عليه حفل تكريم له فقال لهم : أرجو أن يكون بيننا عهد كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم « ألا تؤمن إلا بالعلم » وقد صور طه حسين العلم فى مناقشات بينه وبين الدكتور هيكل على صفحات جريدة السياسة : فقال فى إقرار عقيدته للدين ومفهومه له ما يلى « ان الدين حين يقول بوجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لا يعترف بهما العلم » وقال : ان الدين نبع من الأرض كما تبعث الجماعة نفسها « وقال : ان الكتب السماوية لم تقف عند إثبات وجود الله ونبوة الأنبياء وانما تعرضت لمسائل أخرى تعرض لها العلم بحكم وجوده ولا يستطيع أن ينصرف عنها ، وهنا ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وما وصل إليه العلم » وطه حسين فى هذا يردد ما يقوله الأوربيون عن أديانهم فهو لم يعرف الإسلام معرفة صحيحة وإلا لعرف أنه لا يوجد فى القرآن أى تناقض بينه وبين العلم وحتى ينقل طه حسين ذلك عن ملاحدة الأساتذة الصهيونيين الذين تلق عليهم (دور كايم ، ليفى بريل) وهما يهوديان ، وكازانوفا وماسنيون

وهما من اتباع الفكر التلمودى ، ويغضى بهوى وعن قصد عما يقول علماء الغرب عن أساتذة التجريب والأنابيق بما يردده بعض الفلاسفة أمثال رينان من قول علماء الغرب من « أن أحكام العلم ليست نهائية فكما نقضنا أحكام السابقين لا يبعد أن يأتى بعدنا أناس ينقضون أحكامنا) وقول باكون : (أن الحقائق الدينية لنا باطلة ولكن ذلك يحدث نظرا لضعف معارفنا ويقول فولتير الذى يعجب الدكتور طه به ويدين له بالزعامة (كما أن الساعة تدل على وجود الساعاتى فالكون يدل على وجود الله) .

ولا يكتفى طه حسين بأن ينقل إلى شبابنا ما تلقاه من كازانوفا فى الكوليج دى فرانس عن القرآن بل يدعو هذا المستشرق وغيره لإلقاء أبحاثهم تلك المسمومة فى الجامعة فإذا اعترض الشيخ محمود أبو العيون وغيره على هذا الإجراء رد عليهم فى عنف وفى جرأة وحماسة فيقول :

أريد أن يعلم الناس جميعا أن الجامعة المصرية حين تدعوا أساتذة من أوربا لإلقاء الدوروس فيها لا تأتى بدعا من الأمر وإنما تتبع فى ذلك نهج الجامعات الأوربية الأمريكية ، وهذا الرجل الذى دعته الجامعة ليس رجلا عاديا وإنما هو أستاذ حقا ولقد أريد أن يعلم الناس إنى سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيرا لغويا خالصا فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن يتجاوز باب الرواق العباسى لو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة الخالصة على نحو مفيد حقا .

ولكى نعرف وجهة نظر « كازانوفا » فى القرآن والإسلام نعرض لما قاله فى « محمد وانتهاء العالم » وفى هذا الكتاب يتعرض بالتشكيك إلى سلامة نصوص القرآن الكريم ويزعم أن آيتين ذاتى شأن لا أصل لها البتة بل وضعها أبو بكر ثم أضيفتا إلى القرآن وبعد أن خدع كازانوفا قارئه بالحديث عن الرسول ﷺ ووصفه بانه ثبت رصين آمين كما هى عادة الاستشراق الحديث ، يقول « أن العقل ونضوج الفكر اللذين دل عليهما إذ أظهر الآيات الأولى الموحاة « ثم يشير إلى ما أسماه « جلالة كلامه الذى لا يقاس بغيره ولم يخطر لبال عربى قبله » ومعنى هذا أنه ينسب القرآن إلى النبى ﷺ وينكر الوحى والنبوة . ويقول عمر فاخورى فى كازانوفا (أراء غريبة فى مسائل شرقية) الذى نقلنا عنه ان هذه اللهجة من كازانوفا أخطر خطرا على الإسلام من شتائم المستشرق اليسوعى (لا منس) التافهة . ومحاولة كازانوفا تنصب على أن النبى ﷺ لم يعين خليفة له لأنه لم يفكر أنه سيموت وأعتقد أن انتهاء العالم قريب وأنه سيكون فى حياته . ولذلك فهو يعد أن آية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) وآية (إنك ميت وإنهم ميتون) ، قد أضافها أبو بكر من بعد .

ولا توجد سذاجة ولا حمق أشد من هذا الذى وقع فيه كازانوفا والذى أراد به إثارة الشبهات وتشويه الحقائق .

ولقد رد كثيرون على كازانوفا وفندوا رأيه وأوردوا له من آيات القرآن عن يوم القيامه

ما يكشف زيفه وضلاله ومنها آية (فاما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) وآية (فاما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون) . وآيات كثيرة تكذب كازانوفا فى دعواه . وبالجملة فإن خلاصة رأى كازانوفا فى القرآن سيئة للغاية .

يقول : إنى أؤكد أن مذهب محمد الحقيق إن لم يكن قد زيف فهو على الأقل ستر بأكثر العنايات وأن الأساليب البسيطة التى سأشرحها فيما بعد هى التى حملت أبا بكر أولا ثم عثمان من بعده على أن يمدا أيديهما إلى النص المقدس بالتغيير ، وهذا التغيير قد حدث بعبارة بلغت حداً جعل الحصول على القرآن الأصلى يشبه أن يكون مستحيلا .

هذه هى عقيدة كازانوفا فى القرآن وفى الاسلام التى أشاد بها طه حسين وأعجب بها وقال أنه لم يفهم القرآن إلا بعد أن سمع دروس كازانوفا التى دعته إلى أن يردد هذه الآراء فى محاضراته ثم يدعو (كازانوفا) نفسه ليلق هذه الأبحاث على طلاب كلية الآداب .

لقد أشار محمود المنجورى إلى رأى طه حسين فى القرآن مما ألقاه على طلابه وسجل ذلك فى مقالات بمجلة الحديث الحلبية وفى جريدة كوكب الشرق وما قرأه الدكتور عبد الحميد سعيد من كراسة أحد الطلاب فى مجلس النواب أثناء عرض قضية طه حسين هذا ولم ينفك طه حسين عن التشكيك فى القرآن أبداً بل ظل يثير الشهاب حوله بصورة وأخرى وخاصة فى بحثه عن ضمير الغائب الذى القاه فى مؤتمر المستشرقين من عام ١٩٢٨ .

وقد انكشفت سريعا خطط طه حسين وأهدافه بعد صدور كتاب (فى الشعر الجاهلى) وقامت المظاهرات تطالب بقتله أو محاكمته وخطب سعد زغلول فى المظاهرة فقال : إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها ، هبوا رجلا مجنونا يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شيء من ذلك ، أن هذا الدين متين وليس ذلك الذى شكك فيه زعيما ولا اماما حتى يخشى من شكه على العامة فليشك ما يشاء وماذا علينا إذا لم يفهم البقر »[١]

ورددت الصحف صيحة الخوف التى حملها أولياء أمور الطلاب كيف يتركون أبناءهم لدى من لا يحترم دينه ولا يوثق به ولا يركن إليه ، ودار الحديث حول إستقلال الجامعة وعلاقته بتجريح الإسلام ولكن هل بعد أن انتهت غمرة الشعر الجاهلى توقف طه حسين أو ارعوى ؟ ، كان يؤمن بأن كل شيء فى مصر ينسى بعد حين فكان يعاود الكرة ، وكانت حياة الجامعة حافلة بالمحاولات ، وعندما تكشفت خطة التبشير فى الجامعات والمعاهد ، وقف منها موقفا مزريا ، حين قال ما ضر الإسلام أن ينقص واحداً أو تزيد المسيحية واحدا ، وعندما تكشف أن هناك كتبا مقررة فى قسم اللغة الإنجليزية فيها هجوم على الإسلام ورسوله قال كلمته الماكرة : أن الإسلام قوى ولا يتأثر ببعض الآراء ومن هنا تبين سبق الإصرار والترصد فى خطته فى الجامعة ،

---

(١) الأهرام [illegible]

وتساءل الناس : كيف تمكن الملاءمة بين استقلال الجامعة وبين هذه المحاولات « وإذ كان بعض الملحدين يتخذونه وسيلة لحمايتهم من الاجتماع على تدريس مبادىء الإلحاد للطلبة المسلمين » وكان يترك للاساتذة الانجليز فى كلية الآداب مطلق الحرية فى هذا العمل.(١)

ولكن الموقف فى الجامعة لم يساير إتجاه طه حسين وجماعته فقد برزت روح الغيرة الإسلامية والعزة القومية فقاومت هذا الإتجاه وحاصرت الدكتور طه فى مكتبه بكلية الآداب وكادت تفتك به لولا أن أنقذه بعض الخدم.

وعمد طه حسين إلى إخراج كل من له رأى أو اصالة من كلية الآداب واستبق أعوانه الذين سار بهم إلى الطريق الذى رسمه وأعانه على ذلك لطفى السيد الذى كان مديرا للجامعة وفى نفس الوقت تابعا لخطط طه حسين وخاصة فى خطة إنشاء معهد التمثيل والرقص التوقيعى ودعوة الطالبات إلى الاختلاط وتحريضهن على ذلك ومعارضة الجبهة المسلمة التى حاولت أن تدعو إلى الدين والأخلاق. ولما ثار علماء الأزهر بشأن ذلك الاتجاه الخطر الذى دعا إليه طه حسين وشجعه فى الجامعة قال طه حسين قولته الماكرة :

« لا أعلم نصا فى كتاب الله أو سنة نبيه يمنع إختلاط الشبان بالشابات لطلب العلم » ولكن هل كان طه حسين صادقا حقا فيما قال : أو أن هذا الاتجاه كان سليما وصادقا.

لقد كان تحريض طه حسين على هدم الأخلاق فى الجامعة واسع النطاق بعيد المدى، تحت اسم استقلال الجامعة. فقد أدخلت الفتاة الجامعة سراً وقد أشار لطفى السيد فى حديث له عن ما قام به من إدخال الفتيات المصريات فى الجامعة سراً، يقول « يسرنى أن أؤكد لكم أنى لم تعرض لى جزيئة من الجزئيات تجعلنى أندم ولو وقتيا على ما شرعته الجامعة من هذه الخطة من غير أن يستفتى العرف العام ».

وهكذا تحولت بيئة الجامعة إلى مجتمع متحلل من القيود الاجتماعية التى عرفتها الجماعة الإسلامية والعمل من غير هوادة لشيوع وتطبيق أهواء تتعارض كل التعارض مع الضوابط الإسلامية السامية الواقية.

وقد أشار الدكتور عبد الحميد سعيد إلى أن حفلات رسمية أقيمت فى دار الأوبرا جلبت لها الراقصات المحترفات ومن ثم عرفت حفلات الرقص والسمر فى البيوت مما قصت أخباره بعض الخريجات وغيرها، والرحلات المشتركة، وما كان يجرى فى أنحاء الجامعة ورابطة الفكر العالمى من محاضرات مادية الحادية، ومقطوعات فرنسية على البيانو وروايات تمثيلية تقوم على

---

(٢) مجلة الصباح - ١٩٣٩/٣/١٧

الحب والغرام، وكتب إحد الأساتذة الأجانب أنه خليق بالجامعة أن تمثل المثل الأعلى لا أن تمثل فيهم دور السكير.

وكان طه حسين يقول: إن هذا النوع من الحياة الحديثة لن يمضي عليه وقت طويل في مصر حتى يغير العقلية المصرية تغييراً كبيراً».

نعم، لقد مضت الجامعة كما قالت الصحف: فيما شرعته من هذه الخطة من غير أن تستفتى العرف العام حيال أمر جوهري يمس الأمة في أسمى ناحية من نواحيها الإجتماعية، تلك هي ناحية العرض الخاص وشرف الأسرة وضبط العلاقات بين الرجل والمرأة.

وقالت: إن مسألة قبول طالبات الجامعة أنما هي مسألة دينية إسلامية، لها مكان الصلاة في الإسلام، لأنها تتصل بصون الأعراض وعفة الأسر وشرف الجماعات، وقد عرف الأعداء أن محافظة المسلمين على الناحية الخلقية من حياتهم الخاصة حالت دون تحللهم واندماجهم في الشعوب المغيرة كما كانت السبب لحفظ كيان تلك الشعوب الاسلامية إلى يومنا هذا»

وقالت مجلة النذير: أن العرف الذي لم يستفته مدير الجامعة لم يكن عرفا كونته عادات متوارثة وتقاليد محلية وإنما هو آداب الإسلام وفضائل سامية سنها الله للبشرية حماية لها وحصنا واقيا يقيها شر التحلل والفساد، هذا العرف العام هو «دين الاسلام»[1]

(٤)

وعقد السيد رشيد رضا في مجلة المنار فصلا عن الخطة التي يقودها طه حسين في كلية الآداب «لهدم مقومات هذه الأمة ومشخصاتها ووصفها بالقديمة وقال أن هذه الجماعة تعمل في كلية الآداب وجريدة السياسة، وأنها تعمل على التشكيك في الدين وتقليد الافرنج فيما يسهل التقليد فيه من المنكرات» بل نراهم يعنون بتحقير آداب اللغة العربية ليجردوا الأمة من هذا الفضل الذي يفضلها على غيرها من الأمم.

«وقد بدأ هؤلاء الزنادقة بهدم الدين هدماً مطلقاً لا هدم تجديد كما يدعون في غيره، ثم شرعوا في تحقير آداب اللغة، وألف الدكتور طه كتباً كذب فيها نقلة اللغة العربية ورواة آدابها فيما رددوه من شعر العرب في عصر الجاهلية وزعم أنهم هم الذين وضعوا المعلقات السبع وافتروها على امرىء القيس، وقد القى هذا الكتاب دورسا في الجامعة المصرية الرسمية وربما يصدق الكثيرون من طلابها هذا الأعمى البصر والبصيرة فيما يكذب به علماء الأمة

---

(١) مجلة النذير ـ محرم ـ ١٩٤٢م

(٢) المنار ٥ م ٢٧ ص ٣٨٧

الاسلامية وكتاب وحيها وحديث نبيها المعصوم فيما يريد به تجـريد أمتهـم من الدين واللغـة والنسب والأدب والتاريخ، ليجددهم بذلك فيجعلهم أمة أوربية !! بل طعمة للدول الاوربية كما جدد نفسه وبيته بتزوج امرأة غير مسلمة وبتسمية أولاده منها باسماء الأفرنج رغبة عن الأسماء العربية القديمة والجديدة واحتقارا لها وقد حدثنا الثقة عن أحد أصدقائه أنه قال: لا مانع يحول دون اقناعنا للمصريين بسيادة الانجليز وحكمهم إلا الدين أى فلابد من إزالة هذا المانع ومن الغريب أن عمدة دعاة الزندقة فى هدم مقومات هذه الأمة ومشخصاتها وصفها ـ أى الأوزان والقوافى العربية ـ بالقديمة.

ومن عجيب أمر هؤلاء أننا نراهم يدعون إلى انتحال ما هو أقدم مما ينمون من قديم أمتهم، كالأدب الأغريق والشعر الأغريق الذى هو دون الأدب والشعر العربى الجاهلى والإسلامى. والحق أن كلمة الجديد والتجديد كلمة خادعة للنابتة مستهوية لخيال الشبيبة لأنهم لا يريدون إلا جعل هذه الأمة لقمة سائغة لسادتهم المستعمرين بتقطيع ما يربط بعضها ببعض من لغة وأدب وتشريع ودين وأنهم ليدعون دعاوى لا تثبتها بينه ويؤلون أقيستهم من قضايا لا يقوم عليها حجة بل هى كذب وبهتان » ا هـ.

والحقيقة أن إثارة أمر الشعر الجاهلى لم يكن الهدف منه تطبيق موازين النقد الغربى على الأدب العربى ولكن ذلك كان الاطار الخادع أما الأمر فكان اكبر من ذلك، كان الهدف هو فصل الأدب عن الفكر الإسلامى ودعائمه وقيمه واطلاقه حرا لا يرتبط بقيم ولا ضوابط ولا حدود وينهب إلى أقصى ما ذهبت إليه الآداب الغربية من كشف وجنس وإلحاد.

تلك هى فكرة طه حسين الأصيلة « تحرير الأدب العربى من اطاره الإسلامى العام » يقول المستشرق جب « إن الفكرة التى يرمى إليها طه حسين هى تحرير الأدب العربى من القيود التى تربطه بالعلوم الدينية وحتى يدس الأدب لنفسه ولا يكون وسيلة لفهم القرآن والحديث » بل أن طه حسين يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول (أنا أريد أن أدرس تاريخ الأدب فى حرية وشرف كما يدرس صاحب العلم الطبيعى: علم الحيوان والنبات) ونقول كيف يمكن دراسة الإنسانيات بأساليب الماديات، وذلك هو غاية المذهب الغربى فى النقد، وتلك هى غاية طه حسين من تطبيق هذا المذهب، وطه حسين جرىء فى هذا جرأة بالغة حين يقول: من الذى يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشرا للإسلام أو هادما للإلحاد، وأنا لاأريد أن أبشر ولا اريد أن أناقش الملحدين، نعم هو ليس مبشرا للإسلام ولكنه يتخذ طريقا خفيا مسروقا خادعا ليصل بالشباب إلى الإلحاد دون أن يناقش الملحدين.

(٥)

وتتابعت فى كلية الآداب خطوات طه حسين فى سبيل خطته، فأقام حفلا لتكريم رينان « الفيلسوف الفرنسى » الذى هاجم الإسلام أعنف هجوم ورمى المسلمين والعرب بكل نقيصة

فى أدبهم وفكرهم ، كذلك جعل الشعار الفرعونى هو شعار الجامعة وقد لقى من ذلك كله معارضة وخصومة واسعة وصلت إلى كل مكان فى البلاد العربية وارسل الأستاذ توفيق الفكيكى من العراق إلى طه حسين برقية خطيرة قال « أن شعاركم الفرعونى سيكسبكم الشنار وستبقى أرض الكتابة وطن الإسلام والعروبة برغم الفرعونية المندحرة » .

وكان طه حسين يصر على القول بأن مصر فرعونية ، وأنها تابعة لليونان فى الفكر ، وتابعة للبحر المتوسط والغرب فى السياسة وأن ما يصلها بالإسلام ليس شيئا له أهمية ولكنه أشبه بما يصل الغرب بالمسيحية .

وكان من أخطر ردود الفعل لهذه الآراء المسمومة : أن حرق الشباب العربى فى الشام كتب طه حسين فى ميدان عام فى قلب العاصمة دمشق وقد نشرت جريدة المقطم فى ٦ سبتمبر ١٩٣٣ أنه جاء من دمشق أن أعضاء اللجان الأدبية والجمعيات الثقافية فيها اجتمعوا ودرسوا مقال الكتور طه حسين (دائرة) وقد جاء فيه (خضع المصريون لضروب من البغى والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضا) وأن عصبة العمل القومى قررت إحراق كتب طه حسين فى ميدان عام ، لأنه واحد من الذين يهونون من أمر العرب ويصغرون من شأنهم ويرفعون الصوت بالدعوة التى يكرهونها مر الكراهية الا وهى الفرعونية » وقد كشفت مجلة النهضة الفكرية خلفيات هذه الأحداث حين قالت فى عددها ٧ نوفبر ١٩٣٢ :

« كانت هناك مفاوضات بين بعض المصريين وجماعة مستر تشارلى سميث أعضاء الهيئة التنفيذية لجمعية الإلحاد الكبرى بأمريكا ، وعرضت الجامعة الأمريكية بعض المواضيع التى يتكلمون فيها وكانت النفوس محملة بالشكوك ضد الجامعة الأمريكية واتفقوا على التأجيل ولكن الدكتور طه كان اشجع الجميع فأعلن أنه سيفتتح موسم المحاضرات فى قاعة إيوارث وقال : اننا نعيش فى شعب ينسى اليوم ما ذكره امس ولا يعيش فيه إلا الجرىء .

وقالت أن الدكتور طه تعمد فى إحدى كنائس فرنسا وانسلخ من الإسلام من سنين فى سبيل شهوة ذاتية : وهذا هو النص الكامل لما كتب الأستاذ محمد محمود بدير المحامى فى مجلة النهضة الفكرية (٧ نوفبر ١٩٣٢) قال : ان على الدكتور طه أن يحدد موقفه وأن يحرر هذا الأمر دون لبس أو إيهام « فإذا كان الدكتور لا يزال مسيحيا منذ تعمده ولا يزال أبناؤه بأسماء مسيحية ، وأن ما يبدو منه أحيانا من شكوك ونزوات لا تؤثر على مسيحيته فلن يعود بعد اليوم إلى الطعن فى الأديان والغمز للعقائد ، وإذا كان قد رأى بعد تعميده أن الدين المسيحى لا يتفق مع عقله الجبار فليترك التمسك بالتبشير والمبشرين ، أما أن يظل موزعا بين الإسلام والمسيحية مدعيا الإسلام ، أما أن يلعب فى كل جهة ويعبث مع كل طائفة فليس فى هذا شىء من خلق الرجال » ثم أورد عبارة يفهم منها أن الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى كان فى باريس فى وقت سابق يعرف ذلك فقال : عليه أن يسأل زميله السيد مصطفى عبد الرازق ويستحلفه بحق فولتير وموليير ورينان » .

وقد ترددت هذه الآراء كثيرا فى أندية القاهرة فى ذلك الوقت نتيجة موقف الدكتور طه السلبى من قضية التبشير الكبرى التى كانت قد أثارت الصحف والهيئات الإسلامية خلال عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٣ وكان يتناول هذا فى جريدة كوكب الشرق بشىء كثير من الاستهانة والسخرية فإذا أضفنا اليها سماحه بتدريس كتاب برناد شو فى قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب وفيه نقد وسباب شديد للإسلام وإصراره على بقائه بعد ثورة الطلاب عليه، فإذا أضفنا إلى هذا مواقف كثيرة وقفها مؤيدا للإرساليات ومدارس التبشير كان للناس أن يتشككوا أو يرجحوا هذه الإشاعة التى ربما كانت كاذبة، وإن كان الدكتور بديع شريف وهو أحد كبار رجال الدبلوماسية العراقية والموجود الآن بالقاهرة قد أكد لى أنه حصل على نص مكتوب لمحاضرة القاها الدكتور على العنانى فى دار العلوم فى الثلاثينات - وكان هو طالبا بها فى هذه الفترة تشير إلى هذه الشبهة التى قد ترقى أو لا ترقى إلى أن تكون حقيقة والمعروف أن الدكتور طه أخرج الدكتور العنانى من كلية الآداب.

* * *

إن منهج البحث هنا حول أخلاقيات رسالة العلم الحقيقية فى الجامعات فكيف كان الموقف فى كلية الآداب؟ لقد كان طه حسين يقرب أناسا ويبعد آخرين، وكان يتراخى فى أمر الأمانة العلمية إلى أبعد حد حتى كان يعلى من شأن رسائل لا أهمية لها ويخفض رسائل أخرى من وراء هواه، فهو قد رفع من قدر رسالة اليهودى (إسرائيل ولفنسون) واعتبر هذه النصوص الصهيونية التى وضعها اليهود خداعا للعالم وللناس بما يثبت لهم حقا فى فلسطين، ثم جمعها هذا الباحث فى رسالة علمية أقرها طه حسين وقدمها بالتقدير والاعلاء بينما كان له موقف أخر مع الشباب الذى يحتفظ بكرامته ويتعالى عن اساليب النفاق.

ويصور الدكتور نجيب البهبيتى (هو أحد تلاميذ طه حسين ١٩٣٤ وكان من خطباء حفل تكريمه بعد إخراجه من الجامعة).

يقول فى مقدمة كتابه تاريخ الشعر العربى فى القرن الثالث الهجرى[1] : لقد سلخت من هذا الكتاب ومن صنوة (أبو تمام الطائى) كتب بتمامها وقامت بها على رسلها وما كان ذلك ليؤذينى وما كنت لأضيق به أو أغضب له لو أن الأمور فيه جرت مجراها الطبيعى المألوف من انتفاع المتأخر بثمار عمل المتقدم وإضافة جديدة إلى ما أصبح عملا علميا محققا، لم يكن النقل من الرسالة حينئذ ليسىء إلى ولكن هذا النقل من الكتابين خرج على صورة الانتحال. لقد كان هذا فى الحقيقة هو الواقع المؤسف الذى يحمل على الرثاء والحزن والغضب جميعا، الرثاء للاساتذة الذين أظلوا السرقات وعاشوا عليها والحزن لأن التردى العلمى قد بلغ إلى حد

---

(١) طبعة بيروت مايو ١٩٧٠

الاستهانة بالناس وبالتاريخ وبالعقول، ثم كافأ الذين حمل إليهم هذا الخداع أصحابه بالترقية والتقدير وبالمنصب المشرف على التحكم فى عقول جيل تربى على الطريقة نفسها ويلقن الانتحال أسلوبا عمليا يسير عليه فى بناء نفسه وشق طريقه إلى مستقبله وبالغضب لأن إفساد الضمائر وزيف التكوين والخداع فى الحقائق كلها كفيلة بردنا إلى منازل الضعف والمهاوى التى رحنا نشهد آثارها فى حياة أمتنا تتجسد هزائم جرها علينا الكذب والخداع والزيف والتآمر، فإذا أضيف إلى هذا أن حامى هذه السرقات الأول وفاتح بابها وأخطر مرتكبيها فى العصر الحديث هو رجل عرف بعد أنه المستقبل الأسود لمفاخر الإسلام والعروبة، ومنافحته المتصلة عن خصومها من اليهود ومن وقف من الإسلام والعرب مواقفهم، كان ذلك اعرق فى إظهار معنى التآمر والإيغال فى النكاية بنا على طريق تربية ضمائر النشأ على الفساد والمعاونة على خلط الحق بالباطل زيادة فى البلبلة.

وليست القضية فى حقيقتها حكاية سرقة كتاب أو العمل على خنق صاحبه والتنكيل به إنتقاما منه وحقدا بقدر ما هى إفساد متعمد لضمير أجيال من ناشئتنا وأعدادها بالسلاح الخطر الذى تضرب به وتمكينها بالشهادة المزورة من أعناق أجيال من الشباب يقعون بحكم سير الحياة تحت سلطانهم وجعل « الكذب العلمى » شريعة ومنهجا متبوعا وطريقا أمينا يتخذه من شاء الانتفاع به مطمئنا واثقا بأنه بلغ به أمله فى العمل وفى الثروة أحيانا. تلك هى الظاهرة التى تبلورت فى جوانب كثيرة من حياتنا فالسرقة العلمية قد استحالت إلى وضع طبيعى مألوف يقدم عليه صاحبها هادىء البال مطمئن الضمير ثم هو بعد ذلك يجد من يقدمه إلى الناس بوصفه صاحب محاولة (أنفق فيها صاحبها وقتا طويلا وجهدا خصبا) وأن الممتحنين اعجبوا بها اعجابا شديداً وأهدوا إلى الدكتور الشاب خير ما تستطيع الجامعة أن تهديه من درجات التشريف العلمى.

تماما كما قدم هذا الأستاذ من قبل رسالة الصهيونى (إسرائيل ولفنسون) المشرف على البعوث الإسرائيلية إلى أفريقيا الآن فقال: فإذا كان عالمنا الشاب قد وفق إلى الخير فى هذا الكتاب الذى أقدمه أنا إلى القراء سعيدا مغتبطا بتوفيق مضاعف لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ووفق بعبارة موجزة إلى أن يبسط تاريخ اليهود فى البلاد العربية قبل الإسلام بسطا علميا لذيذا ممتعا فى كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة إليه فاظفرها بهذه الحاجة ولم يكن المقدم فى حاجة إلى هذا التحمس كله فالرسالة أتفه من أن تقرأ فضلا عن أن تقدم إلى القراء بهذا التهليل كله ولكن ما ذنب المقدم لها إذا كان هو نفسه الأستاذ المشرف عليها وكانت آراؤه التى كان يبثها فى الجامعة وخارجها فى محاضراته وفى كتبه هى هذه الآراء..

وأسمع رأى الدكتور فؤاد حسنين أستاذ اللغة العربية فى جامعة القاهرة فى قيمة الرسالة:

يقول : وإنى أوافق السيد المشرف فى أنه ظفر بهذا البحث اللذيذ الممتع ، ولكن أحب أن أقول له أن هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التى كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيونى باشراف (مارتن بوبر) تدعو إلى نشرها .

ثم يقول فؤاد حسنين : ليس الأمر كما يعتقد المشرف أو يريد ان يعتقد فهذه الرسالة التى اشرف عليها مشحونة بالأخطاء والتى لن تصدر عن طالب مبتدىء فضلا عن أن المراجع العبرية لا تمت إلى البحث بصلة والسيد المشرف لا يعرف العبرية وأخذ بالنتائج التى ينسبها الباحث إلى هذه المراجع دون التحقيق منها ودون الاستنارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية كانت تقتضى غير هذا » ا .هـا

ويعلق الدكتور البهبيتى فيقول : أى أمانة علمية ، اليست هذه وسيلته وطريقته فى صناعة العلماء الشبان ، ألا يصبح العلم بعد ذلك ، وبفضل من ذلك هو التهريج والسرقة ، الا يختلع ويقتلع بعد هذا ويفضل من هذا نقاب الحياء عن وجوه السارقين والمنتحلين »ا .هـا .

هذا ما أورده طالب من طلاب طه حسين وقد حرص على أن يحجب اسم استاذه لأنه كان فى هذه الفترة يمر بمرحلة المرض ، وكان هو يريد أن يقدم هذه القضية الأخلاقية بحرية تامة .

والدكتور البهبيتى والدكتور فؤاد حسنين كانا يعملان فى الجامعة إبان وجود طه حسين فهما شهود عدول (وسنورد نصوص الدكتور حسنين فى بابها من بعد) وقد عاد الدكتور البهبيتى فى ٢٠ يوليو ١٩٧٣ فافصح عن كثير مما كان أخفاه فى حديث أدلى به إلى جريدة العلم المغربية وملحقها الأدبى .

ويتحدث الدكتور البهبيتى عن الحياة الأدبية فى الجامعة وفى كلية الآداب بالذات عن أولئك الذين أخذوا آراء المستشرقين اعتباطا وإعجابا بها ، يقول : هؤلاء منهم من عاد تقوده زوجة أجنبية لتؤكد فى داره سيطرة أولئك المستشرقين عليه ، وكانت بالفعل هى الوازع العامل عن استمراره فى السير إلى الأهداف التى رسمت له ، ولا أقول هذا اعتباطا ولا أذكره تحاملا ولكنى أريد به أن أعطى للتاريخ أمانة ، فلقد لاحظت أن ممثلى هذه الطائفة كانت حياتهم متصلة بهيئات من الآباء اليسوعيين والجزويت وكان هم هؤلاء مراقبة كل الأحداث الصغيرة والكبيرة التى تقع فى المواطن التى كانوا فيها وكانوا يرعون هؤلاء الوكلاء الذين لا ادرى إن كانوا يدرون أهداف مهامهم بالضبط أم أنهم كانوا يحطون فيها على عمل يوقعهم فيه التماس للذات وادعاء للتجديد .

ولقد اجتذبت (أنا) من يوم طلعت برأى فى مستهل حياتى إلى هذه الدائرة بطريقة ملتوية لكى أوضع تحت المجهر ، ولكنى أفلت ، إلا إنى لم تفلتنى رقابتهم حتى لقد كان موضع دهشتى إنى فى يوم مناقشة رسالتى للدكتوراه ، وجدت الصف الأول من مدرج الكلية من أصحاب

الطليسانات السود والقلانس المستديرة والاحزمة المفتولة .

وعجبت لهذا لأنى يوم سللت نفسى من تلك الدائرة سللتها وقد احقدتهم أشد الحقد على فما كنت أنتظر منهم مثل هذه العناية بمناقشة رسالتى خاصة وأن أستاذهم الكبير لم يكن بين المناقشين ، وهم دائما إذا حضروا ادعوا أنها مجاملة ، هذا هو الوضع فيما يتصل بالمستشرفين ، ولذلك فإنى لا ارى فيما يصنعون جديداً يمكن أن يضاف إلى التراث الباقى من الدراسات التى ستعيش .

وأحب أن أقول لك أن المرحلة التى قدمتها لدراسة الشعر العربى فى كتاب (تاريخ الشعر) لم اغير فيها رأيا واحداً ، فهى القاعدة الثابتة الاكيدة التى ترسخ بالبرهان بين حقائق التاريخ الادبى العربى » .

ويتحدث عن منهج طه حسين الذى قدمه فى الجامعة والذى كان الدكتور البهبيتى أحد متلقيه عنه ، يقول :

« كنت أقول أن طه حسين قدم لنا طريقة بحث تابعناها فى تطبيقها وغيرها وهذا يعتبر من غير شك فضلا ولقد كان سيرنا فى الدراسات الأدبية لا بد أن يتأثر بمثل ما مضى فيه طه حسين وجد أم لم يوجد ، ولكن له من غير شك فضل الدفع الهجام لأنه لما تناول على طريقة المستشرقين ديننا وتراثنا وأدبنا بهذا التهكم والعبث ، آثار فينا انفعالا طبيعيا يوجبه قانون الدفاع عن النفس ، فهو كمن هاجم بسكين أومسدس يضطرك إلى أن توقظ كل اسباب الدفاع فيك لحماية ذاتك ، فهو اذن فضل غير مقصود ، ولكنه فى الوقت نفسه دفع بالتفكير العربى فى مجرى ضيق جداً ، ولو لم يكن قد انحسر فيه وشغل به ولو التفت إليه لا ستطاع أن يطلع على جوانب مختلفة وأن يعيد تجديد أساليبه القديمة فى ميادين العمل العلمى والفكرى ، هذا من جانب والجانب الآخر أنه حين أبى الا أن ينصب نفسه حاميا للفكرة التى كان يبشر بها وهى تهدف إلى ما قدمنا فقد كلفه ذلك حرب كل مستقل بفكرة يمضى على غير التبعية له ، وكان من نتيجة هذا فيما أعرف أنا عن طريق تعدد الأفراد الذين عطلهم طه حسين عن استغلال طاقاتهم الخصبة فى الميدان العلمى ، كان فى هذه الخسارة اضعاف ماعسى أن يكون قد كسبه البحث العلمى الجارى بين الشطئان الضيقة وبتلك القوة الكليلة التى كفل لها طه حسين الحياة وحماها لأنها تابعة له .

ومن سوء حظ العالم العربى أن الظروف السياسية قد مكنت طه حسين من حرية الحركة فى عمله هذا بقدر ما أعطته من مناصب استلم فيها الجامعة من أول تكونها . فقد بدأ أستاذا فى جامعة القاهرة وصار عميداً فوزيرا ومنشئا لجامعة الأسكندرية وابراهيم واسيوط .

وفى كل هذه الاشواط والمراحل يختار الأساتذة والمدرسين ويتجاوز فى اختياره جميع المعايير

المفروضة لاختيار هيئة التدريس الجامعية وما كان يعترضه حاجز إلا هدمه تحت ستار أنه يبنى جامعة جديدة يريد أن يوفر لها هيئة تدريس.

ويقول الدكتور البهبيق : أن طه حسين ليست له كتب بها أصالة وقد صارحته برأيى وهو وزير للمعارف ، كتابه فى الأدب الجاهلى معروف من اين استقاه ، كتاب مع المتنبى أخذه من بلاشير ، وما جاء بعد ذلك لا يعد بحثا علميا لأن كل ما عنده أنه يتلمس ركائز للطعن على الماضى ، يأخذها دائما من المستشرقين وقد ينحو نحوهم ، وما كتبه فى (حديث الأربعاء) لا يعدو كونه مقالات صحفيه تكتب بسرعة ، قطب الرحى فيها الاغراء وأحيانا الجنس ، أو الاغراء بالتحدى للشعور القومى أو الدينى فهى ليست دراسات وليست أبحاثا ولا منهج له فيها . وله بعد هذا القصص التى يكتبها وأشهرها (الأيام) والأيام فى رأيى أنا قطع مظلمة كئيبة لم تنته إلى نفسى إطلاقا بمعنى من التأثير العاطفى وإنما كنت أحس فيها دائما با نقباض .

سار فى الأيام مساراً دار فيه حول موضوع طالب تأثر بالدكتور أحمد ضيف وبمستشرق آخر كتب كتابا عن الأزهر واسم الكتاب على ما أذكر (الأزهر) وبطله طالب اسمه منصور ، أما كتاب على هامش السيرة فأصله كتاب لمؤلفه الأخوين جيروم وسع فيه ومطط على طريقته .

ومحصلة هذه الواقعة الخطيره أن تلاميذ من الطلاب الذين شهدوا محاضرات طه حسين فى كلية الآداب قد استفاق فيهم شعور بالكرامة والعزة لوطنهم ولدينهم فقاوموا هذا الخطر واحتملوا فى سبيل ذلك إبعاد طه حسين لهم عن مجالات العمل والترق والحظوة فى الجامعات والمعاهد . ا . هـ .

وما أعلنه الدكتور البهبيق مؤخرا فى مقدمة كتابه المطبوع فى بيروت وبدون ذكر اسم طه حسين ، قد أشار إليه قبل ذلك الدكتور غلاب فى مجلة النهضة الفكرية (نوفبر ١٩٣٢) حين قال ان وزارة المعارف قد وكلت أمر تدريس الأدب العربى فى الجامعة المصرية إلى (رجل بعيد عن الاخلاص للعلم والوفاء للحق بعد الظلمة عن النور والعدم عن الوجود . رجل لم يكن رائده فيا يسميه بالتحقيقات العلمية إلا أغراضه ومطامعه ، وفوق ذلك كان يدرب الطلاب على أساليب الملق والرياء ويمرنهم على أفانين الكذب والخدع ، ولا يقبل من أحدهم أن تكون له شخصية بارزة ، أو رأى مستقل صريح ، ولا يرضيه من الجميع إلا أن يكونوا أبواقا يرددون الدعاية لمجده الزائف وعظمته الفارغة وصيته الموهوم ، ولم تكن هذه الروح الوضيعة التى خلقها الدكتور طه فى الجامعة المصرية قاصرة على الطلاب والناشئين وإنما تعدتهم إلى جو الأساتذة والمدرسين فى كلية الآداب فلبدته بسحب الملق والتزلف ونشرت فى أرجائه ضباب الذوبان والانمياع ، ولقد وصل عدم احتفاظ الأساتذة بشخصياتهم فى هذا المعهد إلى درجة أفعمت نفس الرجل بالغرور وسولت له أنه أصبح فى هذه الكلية الحاكم المتصرف وهم

جميعاً بين يديه يسألون ومن صولته يفرقون . فإذا أنعمت النظر فانك ستر تاع من هذا المنظر المفعم بالخوف والذلة والانكسار على مستقبل هذا النشء الذى إذا شب على ما رسمته له تعاليم طه حسين من الجبن والذلة والانكسار لا يرجى منه أى خير »

هذه الصوره التى رسمها الدكتور غلاب رحمه الله عام ١٩٣٢ هى التى كشفت عن مدى خطرها وآثارها البعيدة بعد ذلك الدكتور البهيتى عام ١٩٧٢ وكأنهما بعد أربعين سنة من حيث الالتقاء فى المعانى يصدران من نبع واحد .

هذه الصورة المتجهمة الضالة للحياة الجامعية كما صنعها طه حسين تبدو فى نماذج أخرى من الذين عملوا معه وعرفوه عن قريب : ومنهم الدكتور على العنانى الذى ابعده طه حسين من كلية الآداب يقول الدكتور غلاب ان لطفى السيد سلم زمام الجامعة إلى الابن البكر الذى لا يوجد مثله فى الشرق ، ورأى الدكتور طه أن العنانى يجب أن يكون بعيدا عن الجامعة ويقول الدكتور العنانى انه اخذ على طه حسين رأيه القائل (بوجوب تخلى الأديب عن العاطفة الدينية والقومية) وأن هذا الرأى فاسد من أساسه لأن الأديب إذا خلا من هاتين العاطفتين يفقد كل معانيه ومميزاته وتصبح الأمة التى يوجد فيها هذا النوع مقفرة من الأدب كل الاقفار .

ويقول :[1] إن طه حسين قد بنى مجده عن طريق النيل من الأدب العربى والطعن فى أعلامه ، فحمل على كبار أدباء العربية يريد هدمهم وتناولهم واحداً واحداً بالتجريح الباطل كالأساتذة حفنى ناصف والشريف وجرجى زيدان والمهدى عبد المطلب وشوقى وحافظ ومطران وصادق الرافعى والمرصفى والأسكندرى وعلام وضيف ومنصور وغير هؤلاء كثير ، وكان فى جدله معهم جموحا فى المسائل الأدبية والحقائق العلمية والحوادث التاريخية ، وقد أظهر هؤلاء الأدباء تمويهه وتلبيسه غير أنه أمام الحجة الدامغة لا يدركه خجل المخطىء المريب فكان يعمد إلى نقل الحوار من موضوعه إلى تغرير وافتراء فى الأدب اليونانى علما منه بأن أدباء العربية غير متفقين فى أدب الفرق فيروى ما يبرأ من هذا الأدب ، ويعمد إلى التجريح الشخصى بالقذف والشتم فيتوارى بالطبع الأدب ويظهر هذا الدعى السبابة أمام الجماهير بأنه نال النصر واحرز التفوق وقد اتهم الأدب فى عصره الذهبى وجرده من كل خير وفخر ، وشنع عليه بما يحتوى فى الشعر من فسق وفجور واستهتار ومجون وزندقة وكفر ، ودعا إلى الأخذ بالشك والابتعاد عن العقيدة والتجرد من العاطفة القومية كذلك فقد جرد الحضارة العربية والأدب العربى من قومية العرب واسندها إلى الأعاجم وطعن فى وحدة العرب وأغرى الشبان بما أسماه الحضارة القومية والفرعونية .

---

(١) النهضة الفكرية ـ ٥ ديسمبر ١٩٣٢ .

نزع هذا الهادم المتقدم إلى هدم الأدباء والأدب العربى فلم ينل فى ذلك شيئاً سوى أنه هدم نفسه، ثم أراد أن يبنى له مجداً من جديد بترك طريقة الهدم والالتجاء إلى استعمال وسائل البناء فى صرح الأدب العربى ولكنه فى الواقع قد نصب نفسه بناء لا يعرف فن العمارة فهدم نفسه ثانية فوق الهدم الأول بمحاولة القيام ببناء لا يعرف له أصلا ولا يدرك له فرعا »

ولا ريب أن تفاصيل رأى الدكتور فى الأدب العربى مما سيجىء بعد، ولكنا الآن بصدد تاريخه وأعماله كشفاً عن شخصيته قبل أن نصل إلى مفاهيمه وآرائه.

* * *

ومثل هذا الموقف يقفه الدكتور من كل الشخصيات ذات الكرامة والتى لاتساير أهواءه فقد أشار الكاتب (كويتب) فى ٢٢ فبراير ١٩٣١ إلى سوء معاملة طه حسين للعالم الا ثرى سليم حسن ومن قبله العالم الا ثرى الكبير أحمد كمال باشا.

يقول الكاتب : أنه ليسوءنا وأيم الحق أن يقف الدكتور على محاربة أعمال النوابغ من أبناء البلاد والحط من قيمتها تحت ستار التمحيص العلمى، فلقد قام الدكتور منذ سبع سنين يحارب نابغة مصر « أحمد كمال باشا الاثرى » لما علم أن وزارة المعارف تفكر فى طبع قاموسه الكبير الذى ألفه باللغات الهيلوغرليفية والعربية حيث كتب فى العدد ٢١٤ من السياسة مقالا يطلب فيه من وزارة المعارف الا تقدم على طبعه الا بعد استشارة رجال المتحف على انى لا أدرى إذا كان الدكتور لا يشك فى أن كمال باشا قد أتقن اللغة الهيروغليفية وإنما يشك فى أنه قد أتقن اللغة العربية ويشك الشك كله فى أنه أتقن اللغات السامية، إذا كان يقصد إستشارة رجال المتحف من الأجانب فإنهم لا يعرفون اللغة التى يقول كمال باشا أن لها صلة بالهيروغليفية.

وبدلا من أن نسعى بكل قوتنا لطبع هذا القاموس قام الدكتور يعطل هذا المسعى بالإشارة إلى نفقات الطبع مرة والخوف من انتقاد الأجانب مرة، واليوم يعود الدكتور ويحارب سليم حسن تلميذ كمال باشا بتأخير اذاعة أخبار مكتشفاته بحجة ذلك الستار : التمحيص العلمى.

« كنا نحسب أن الدكتور طه وقد أصبح عميد كلية الآداب قد خلف على باب الجامعة الأسلوب الذى جرى قبل أن يتولى منصباً ذا مسئولية وكنا نود أن يربأ بمقام العلم ومقام عميد كلية الآداب عن ضرب من الجدل لو عرض على سنن العلم والأدب لأباه، أو أن : يرد على ما كتب بالحجة ولكنه لم يفعل، وكنا نحسب وهو مدين للصحافة بما وصل إليه أن يقدر مهمتها ويكون عونا لها لا حربا عليها ولكنه لم يفعل ونحن نقول اننا نقدر مثله ضرورة التحقيق العلمى ونعرف الأشياء التى يجب عدم نشرها احتفاظاً للجامعة بفضل السبق فيها »

وهذه قضية أخرى يقف منها الدكتور طه موقفا مريبا، ذلك أن قاموس أحمد كمال باشا هو بمثابة رد حاسم على شبهة يثيرها الاستشراق فيدحضها من أن المصريين عرب أصلا فهو

لا يريد الابقاء هذه الشبهة لصالح الإستعمار وأن لا يصدر بحث علمى يدحضها.

***

وممن شق بخلافه مع طه حسين: تلميذه القديم وسكرتيره فى وقت ما: زكى مبارك الذى كشف من أمر طه حسين ما لم يكن يعرفه أحد فيقول: (الصباح ـ ٤ أكتوبر ١٩٣٥) طه حسين لم يقرأ فى حياته كتاباً كاملا وإنما قرأ فقرات من هنا وهناك إلى أن اتصل بالمرحوم ثروت باشا فوضعه فى الجامعة المصرية، وظل طوال عمره ظلا من الظلال فى عالم السياسة ولم يترك أحداً الأخدمة ودبج فى تقريظه الوانا من الرسائل الطوال ولا ريب أن الاتجاه السياسى صورة من الاتجاه العقلى والرجل الذى يتردد بين المذاهب السياسية ولا يبعد عليه أن يعيش فريسة الحيرة بين المذاهب الأدبية. اتفق للرجل الصالح جدا طه حسين أن يخدم قبل الحرب ثلاثة أحزاب، وأن يخدم بعد الحرب أربعة احزاب، وحظه من الثبات فى المذاهب الأدبية يشبه حظه من الثبات على المذاهب السياسية وقد بذل الدكتور جهوداً عنيفة فى إخفاء حقيقته الأدبية.

ويقول (٣٥/١٠/١٧ ـ البلاغ) لقد عرف طه حسين أنه لن يستطيع أن يواجهنى فى ميدان النقد الأدبى لأن وسائله فى ذلك ضعيفة جداً، وقد مرت عليه أعوام لم يقرأ فيها كتابا كاملا، وقد حلا له أن يناقش ما دمغته به فى كتاب النثر الفنى، ولكنه سكت خوفاً من العواقب لأنه يعرف أن اليوم الذى يصطدم فيه بى سيكون يوما عبوسا ولن تغيب شمسه الا وقد انكشف الغطاء عمن يعيشون على فضلات المستشرقين ويقول: كنت أصاوله على صفحات (البلاغ) وكان هو يدير لى المكايد فى الظلام حين عجز عن حرب البينات والبراهين.

ويقول فى (اغسطس ١٩٣٦ ـ البلاغ) أن من العجيب فى مصر بلد العجائب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربى فى الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغانى وفصول من سيرة ابن هشام، إن الأستاذية فى الآداب عبء لا ينهض به إلا الأقلون وهى تفرض الإطلاع الشامل على خير ما أبدع العرب فى خمسة عشر قرنا وهى تفرض البصر الثاقب بأصول الأساليب، وهى تفرض العناء المطلق فى التعرف إلى فحول الكتاب والخطباء والشعراء، وطه حسين ليس من كل أولئك فى كثير ولا قليل».

وهذا الذى أشار إليه الدكتور زكى مبارك قد ردده كل الذين كتبوا عن طه حسين فهو أصلا لم يدرس الأدب العربى دراسة علمية لا قبل سفره إلى أوربا ولا هناك وان كان قد عنى بدراسات فى التاريخ اليونانى والرومانى، كذلك فإنه على حد تعبير المستشرقين وتلاميذهم ومنهم (إسماعيل ادهم أحمد) لا يعرف شيئاً من اللغات الشرقية أو القديمة تعينه على أن يصدر رأيا فى المقارنة بين الآداب العربية والآداب الفارسية والعبرية وغيرها.

كذلك فإن من أخطر الأمور التى أشار اليها سكرتيره ، والتى أثارت ضجة كبرى خطأه ، فى الأسماء العربية فهو ينقلها نقلا حرفيا من المصادر الأجنبية وقد أخذ عليه قوله : « ولكن شجرت بين الفريقين اليمانيين والقيسين معركة « مرجرات » السياسية ٢٢ فبراير ١٩٣٤ ، وقد كانت مرجرات هذه الفرنسية هى « مرج راهط » العربية .

ولطه حسين غمزاته لاصدقائه وخصومه على السواء فهو فى السياسة الأسبوعية (٢٨ يونيه ١٩٣٠) يتحدث عن زيارته إلى أثينا ويوجه كلامه إلى منصور فهمى ، فى عبارات يثبت بها فهمه للتاريخ والفكر اليونانى وجهل منصور وقد أورد بضع أشياء أراد بها أن يقول بجهل الدكتور منصور بتاريخ اليونان وآدابهم إلى حد شوه ذلك التاريخ وقد أشار الدكتور محمد غلاب إلى هذا ورد عليه .

يزعم الدكتور طه أن أثينا لم تكن تعنى بالجمال كما ظن الدكتور منصور وهذا زعم فاسد من أساسه باطل فى جوهره يدل على الجهل الفاضح بأبسط الأساطير اليونانية وأكبرها (ذيوعا وانتشاراً) ولكن الدكتور طه أراد أن ينشر فى الناس أن الدكتور منصور جاهل بتاريخ اليونان وآدابهم ولم يبال فى سبيل هذه الرغبة أن يقترف نحو الحق والتاريخ والعدالة والنزاهة ما اقترف من سيئات » وبعد أن كشف عن خطأ الدكتور طه فيما ذهب إليه قال « قد تبين إذا أن الدكتور طه إما أنه يجهل الأدب اليونانى جهلا تاما وهذا ما لا نظنه وإما أنه بعيد عن النزاهة فى النقد والإخلاص فى العلم بعداً تاماً وهذا ما أعتقده ولا أتردد فى التصريح به » .

* * *

ولما أصر الدكتور طه فى استبقاء كتب برناردشو وغيره التى تهاجم الإسلام فى كلية الآداب حاصره الطلبة المسلمون فى مكتبه وآذوه وكان أن هرب وخلصه البعض واعتكف كمقدمة لخروجه من كلية الآداب .

وقد أقام الأساتذة والطلاب المناصرون للدكتور طه حسين بكلية الآداب حفلا تكريمياً لحضرته بمناسبة تعيينه مراقباً للثقافة العامة وكان مما قال الدكتور فى هذا الحفل .

« ثم أريد أن أنتهز هذه الفرصة أيها الأصدقاء لأقول ما قلته ألف مرة وما سأقوله ألف مرة فقد يظهر أننا هنا لا نسأم من القول والتكرار هو أن الإسلام أثبت مكانة فى قلوب المسلمين وفى قلبى أنا كذلك من أن يتعرض لخطر لأن فلانا قال أو لأن فلانا لم يحسن القول .

أيها الأصدقاء أرجو ان نكون احسن ظنا بالإسلام وأحسن ظنا بأنفسنا وأن نكون أحسن ظنا بالله من أن نظن أن الإسلام معرض لأى خطر لأن فرداً يرى هذا الراى أو ذاك واتمنى ان يقيض الله للإسلام من يدافع عنه كما ادافع أنا عنه وان ينشره ويحببه للناس كما ابشر به انا وكما احبب مبادئه للناس » .

وقد عقد الأستاذ حسن البنا فى مجلة التعارف فصلا تحت عنوان :

« إذا كان هذا صحيحاً يا دكتور فقد اتفقنا ».

قال فيه : إذا صح ذلك يا دكتور فقد اتفقنا كل الاتفاق ، واعتبرنا أيها الداعية المسلم من جندك منذ الساعة فإنا للاسلام نعيش وله نحيا وفى سبيل الدعوة إليه شهداء . صدقنى يا دكتور طه من غير ان أقسم لك وإن شئت فأنا أقسم على هذا ، أننى لأتمنى من كل قلبى مخلصاً أن أرى ذلك اليوم الذى تدعو فيه أنت للإسلام وتيسره بين الناس وتحبب تعاليمه إليهم .

فإنك رجل جرىء لك قلم ولك لسان ولك تلامذة معجبون واصدقاء مخلصون ، وفيك دأب ونشاط وإنتاج خصيب وما نحسدك على هذا ولكنا نتمنى أن يكون ذلك فى ميزان الإسلام لا عليه ولا فى كفه الخصومة له وتوهين أمره بطريق غير مباشر فهل يجىء حقا ذلك اليوم .

اسألك يا دكتور مخلصا لأطمئن لا متصديا لأ تعنت . ان لك تلاميذ قد اختصصت بهم واختصوا بك فأيهم ظهر اثر دعوتك فيه فكان لسانا إسلامياً أو قلما إسلامياً أو صفحة من صفحات الفكرة الإسلامية أو مظهراً من مظاهر التمسك بإسلام ، وإنك قد ساهمت فى خدمة كثير من القضايا الإجتماعية وحضرت كثيراً من الاحفال والمؤتمرات فى داخل القطر وخارجه ففى أى من هذه جميعاً نطقت باسم الإسلام أو دعوت إلى تعاليمه .

وأنت يا دكتور استاذ فى الجامعة منذ أنشئت فأنشدك الحق هل تذكر أنك عرضت فى دروسك ومحاضراتك بطلبتك بما يلفت أنظارهم إلى جلال هذا الدين وروعته ونقاء تشريعه هذا والمادة التى اختصصت بتدريسها ألصق مواد الدراسة بالإسلام وكتاب الإسلام ، ولا احرجك فأقول :

وانشدك الحق يا دكتور افتحيا انت فى حياتك اليومية على نمط إسلامى وتطبع اسرتك كرب بيت بهذا الطابع ودع البيت وما فيه ، أتقوم أنت فى حياتك الشخصية بواجبات الرجل المسلم فضلا عن الداعية الذى يتمنى أن يقيض الله للإسلام من يدافع عنه .

لا أحرجك بهذا السؤال الأخير ولا أطالبك بجوابه فأنتم معشر الدعاة العصريين تفرقون بين الحياة الشخصية والحياة العامة . كأن واجبات الفضيلة وتعاليم الإسلام لا تتناولها جميعاً وكأن الحياة العامة للفرد ليست مرتبطة بحياته الخاصة كل الارتباط .

وبعد يا دكتور طه : فهل من الدعوة للإسلام . أن تعرض للنظر فى القرآن بالأسلوب الذى اخترته لنفسك من قبل ولعلك عدلت عنه من بعد ـ وهو ماأسر له ـ حتى مع تسليم الدعوى بأن البحث علمى بحت . وهل من الدعوة للإسلام أن تقف وقفتك المعروفة فى شأن الكتابين الانجليزين وما كان عليك ولا على الجامعة ولا على حرية الفكر من بأس أن تستجيب لأبناء مؤمنين من تلامذتك رأوا فى هذا الكتاب طعنا فى مقدساتهم فلجأوا إليك بالطريق القانونى فى

هدوء وآدب أو ما كان أولى بالداعية إلى الإسلام أن يشجع هذه الغيرة ويسرها ويعطف كل العطف على القائمين بها ؟.

وهل من الدعوة للإسلام أن تنادى فى صراحة لاتعادلها صراحة أنه لا سبيل لنا إلى الرقى إلا إذا قلدنا أوربا وسلكنا مسلك الأوربين لنكون لهم شركاء فى حضارتهم خيرها وشرها حلوها ومرها، نافعها وضارها، ما يجب فيها وما يكره وما يمدح فيها، وما يعاب، ومن زعم لك غير فهو خادع منها أو مخدوع.

ولعلك تقول كما قلت: إنما أريد الدعوة إلى العلم وإلى القوة وإلى الخلق وإلى النظام وهذا حسن جميل، ولكن افترى أن الإسلام لم يأمر بها ولم يسلك المسلمين السبيل إليه قبل أن تخرج أوربا من ظلمات جهلها بمئات السنين فلم تدعونا إلى العلم والقوة والخلق والنظام باسم أوربا الناشئة المتخبطة ولا تدعونا إلى ذلك باسم الإسلام الثابت الدعائم الراسخ الأركان.

وهل من الدعوة الإسلامية يا دكتور أن تخلط بين الفتيان والفتيات، هذا الخلط فى كلية الآداب فتحذوا حذوها غيرها من الكليات وتبوء أنت بإثم ذلك كله.

وتريد للفتيات فى صراحة هذا الإختلاط وتحثهن عليه وتدعوهن إليه ولا تقل أن هذا عمل غيرك فما تحمس لهذا ودعا إليه وحمل لواءه واستخدم نفوذه فى تحقيقه أحد كما فعلت ذلك أنت، ولعلك تعتبر هذا من مآثرك ومفاخرك ولكنى أخالفك يا دكتور، وأصارحك بأن هذا الاختلاط ليس من الإسلام وقد رأينا وسنرى ما كان وما سيكون له من آثار. هذه صحيفتك يا دكتور فى الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه فهلا نراك بعد هذا الحساب اليسير غير العسير الذى لا مناقشة فيه ولا قسوة ولا عدوان مصراً على أن يقيض الله للإسلام من يدافع عنه كما تدافع عنه ومن ينشر ويحبب تعاليه إلى الناس كما تفعل.

على أننا على استعداد لأن ننسى الماضى جميعه ونأخذ فى جديد مثمر منتج على الأساس الذى وضعته أنت وارتضينا نحن أن تثبت فى نفوسنا ونفسك مكانة الإسلام وأن تدافع عنه وأن تنشر تعاليه وأن تحببه للناس وعلى أن يكون هذا الإسلام هو كما تفسره اللغة العربية الواضحة وسنة رسول الله ﷺ الثابتة الصحيحة كما فهمها السلف الصالحون رضوان الله عليهم.

فهل يضع الدكتور طه يده فى يدنا على هذا الأساس ثم نعاهد الله جميعاً على أن نكون أمناء له مخلصين له مجاهدين فى سبيله، وكلمة أخيرة يا دكتور: لقد قلت وهو قول حق: أن حياتنا موقوتة وكل ما فيها موقوت وأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يسترد المنحة التى منحها لنا وهى الحياة فى أى لحظة وهو قادر على أن يسترد ما يمنحنا أثناء الحياة.

ما أجمل هذا الإيمان. أذكرك هذه الكلمات وأذكرك أنك الآن رجل قد تجاوزت سن الأمال

الخلب وصرت إلى الآخرة أقرب وأسأل الله أن يطيل حياتك خادماً مخلصاً للإسلام وأن هذا الشعب شعب كريم طيب القلب سرعان ما تنسيه الحسنة الواحدة كثيراً من السيئات وأن الله تبارك وتعالى واسع المغفرة عظيم الفضل كريم فلا عليك يا دكتور أن تختم المطاف بتوبة صادقة نصوح وبتجرد للإسلام ولخدمة الإسلام ولنشر الإسلام ولتحبب تعاليمه بحق إلى الناس فتفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة . ذلك ما نرجوه منك ولك وقلوب الناس بيد الله يصرفها كيف يشاء فمن يرد الله يهديه يشرح صدره للإسلام » ا . هـا .

* * *

طه حسين ودار العلوم

هناك قضية هامة من أخطر القضايا التي تعرض لها طه حسين وهو أستاذ في الجامعة ، تلك هي إنه لم يكن في الحقيقة أستاذاً للأدب العربي تشغله هذه المهمة ولكنه كان قد أعطى نفسه صفة المراجعة والإشراف والنقد لكل ما يتصل بالمؤسسات التي في مستوى كلية الآداب : وأهمها دار العلوم ومدرسة المعلمين العليا وكانت كتاباته لا تكف عن مهاجمة الأزهر ونقد وزارة المعارف ومناهج التدريس في التعليم الابتدائي والثانوي (مما سنعرض له في مكانه) وتحس من هذا الاتجاه الخطير أن طه حسين يعد لأن يجعل كلية الآداب وحدها المختصة بإخراج المدرس المصري ، وقد ظل سعيه حثيثاً في هذا الاتجاه مع نمو نفوذه عميداً لكلية الآداب ومستشاراً في وزارة المعارف ومراقباً فنياً ومديراً لجامعة الأسكندرية ثم وزيراً للمعارف وفي كل هذه الفترة مشرفاً على المناهج وهيئات التدريس (كما أشار إلى ذلك الدكتور البهبيتي) استطاع أن يضم دار العلوم إلى الجامعة وأن يلغى مدرسة المعلمين العليا .

وقد دارت بينه وبين دار العلوم معركة شديدة ، فقد كانت دار العلوم هي الواجهة الأصيلة التي قاومت فكره ومفاهيمه وسمومه التي قدمها في كتابه الشعر الجاهلي وحديث الأربعاء ولذلك فقد نقم عليها نقمة شديدة وظل يحمل عليها مرة بعد مرة مدعيا أن وجودها لا ضرورة له بعد كلية الآداب ، وقوله في أحد الأحاديث تلك العبارة القاسية « لابد من هدم قرطاجة » .

بدأ هذا عام ١٩٢٧ وعاد إليه عام ١٩٣٥ أما في عام ١٩٢٧ فقد كتب يقول « أنا لا أفهم دار العلوم ولا فائدة دار العلوم »

قال أحمد يوسف بدر : لعله لم يقل كلمته التي قالها عن دار العلوم إلا لأنه يحمل موجدة على بعض اساتذتها وكبار المتخرجين منها لتصديهم لنقد نظرياته والوقوف في وجهه حينما اراد العبث بعقول الناشئة والمتأدبين فهو يكتب بذوب قلبه لا بمداد قلمه ونتاج فكره ومن أجل ذلك كان كلامه غريبا مريبا ، أما فضل دار العلوم فذلك ما نحيلك على صفحاته الذهبية في سجل التاريخ .

وقال الأستاذ محمود غنيم : قلب صفحات الماضى من زمن يسير ترشخصك ماثلا فيه على بابها تود أن ان تكون كمن بها استاذا للأدب العربى ولكن ابى الله إلا أن يبعدك عنها » ويقول : الضجة التى قامت حول كتابه فى الشعر الجاهلى كان منبتها دار العلوم : المدرسة التى غضبت لدينها ولغتها وعز عليها أن تنتهك حرمة العلم باسم العلم ويتجلى الجهل فى ثوب البحث الطليق فقد تناولت الكتاب بالنقد ومزقته كل ممزق وجلت للملأ منهجه وأزاحت الستار عن زلاته (وما أكثرها)

إذا كان طه حسين لا يفهم بعد ذلك دار العلوم فلأنها خرجت أمثال الخضرى وعبد المطلب وعلام سلامة هؤلاء الذين وأدوا كتابه فى مهده ونبهوه من احلامه فصار كلما تذكرها تجلت له اشباحهم المخيفة فوقفوا شجا فى حلقة وقذى فى عينيه ، نعم ان دار العلوم خطر يهدد تعاليم الدكتور وما دامت تلك المدرسة فى نفلق فبضاعته فى كساد ، فليس عجيباً أن يرفع عقيرته مطالباً بالغائها وليس عجباً أن يرميها بوخزات من قوارص كلامه (كوكب الشرق ـ ١٧ ، ١٩ مارس ١٩٢٧) .

وعادت القضية لتثار مرة أخرى بعد أن أعيد طه حسين إلى الجامعة فى عهد الوفد وكان قد أصبح وفديا يكتب فى صحف الحزب الشعبى الكبير يقول الأستاذ محمد هاشم عطية :

« عاد طه حسين إلى الجامعة بعد أن أبعد عنها فترة قدر خلالها أن ينفض يديه من أخوانه الدستوريين وأن يجفو سياستهم وصحفهم ومجالهم ويصير فى غمضة عين وطنياً مؤمنا بمبادىء الوفد وكاتباً فى صحفه وزائراً لبيت الأمة ومؤيداً لخليفة سعد وصديقاً لأنصاره ، بعد عمر طويل افنى زهرته فى التشهير بهم ومحاولة النيل منهم بما يتعفف كثير من أهل الحزازات عن التهاجى بمثله تنزها عن مشابهة اخلاق العامه من الناس وقد كنا نحسب انه بعد هذه المحنة سيكف عن عادته فى التغرير بالعقول وجرأته فى التمويه على الناس بعد ما انجاه الله من حياة قليلة السكينة يرتهن فيها الرزق بما يبذله العاملون من جهد مقبول وسعى صالح إلى الرزق المضمون والسريع الثابت فى منصبه الكبير بالجامعة ، ولكنه عاد ثانية إلى زمانته القديمة ينفث ما فى صدره من السل على أساتذة اللغة العربية ويريد فى هذه المرة أن يدمر عليهم قرطاجة قبل أن يضع الناس لبنة واحدة فى بناء رومه !

ولو كان فى وسعه أن يهدم ويبنى لكان قد فعل والدنيا معه والعمارة فى يده وأكثر الناس مخدوع به ، فاما اليوم وهو حين وكل إلى نفسه ادرك الناس حظه من خلوص النية ومبلغ حرصه على احترامه للرأى ، وشهدوا كبرياءه حين صار تواضعاً ولطفاً ، فلم يعد لأحد أن يخشاه أن يحسن الظن بمكانه لأن من بواعث النفور من منهب المصلحين أن يتعلق الناس عليهم بقول لا يحقق عملا ليكون ذلك وحده كافيا لاسقاطهم فضلا عن المزهوين بأنفسهم من المتظاهرين بالغيرة على غير منافعهم الذاتية حين ينسيهم التحفظ عادة الحزم فى ستر نياتهم

الخبيثة فيعرفون حينئذ كما يعرف أمثالهم بسياهم .

وإنما لنبادر فنكشف للدكتور عما تنطوى عليه هذه الحملة الجديدة من دس خفى وان حاول توجيهها فى ظاهر الأمر إلى الإصلاح المنشود ، ذلك أنه يريد أن يكره الناس إلى الانتساب إلى قسم اللغة العربية فى الجامعة المصرية قبل أن يشعر ولاة الشأن بقلة الحاجة إليه لما هو حاصل الآن من انصراف الطلاب عنه وزهادتهم فيه ، ولما أحس به المتخرجون فيه من قبل من التضييع والالتجاء إلى العمل فى دواوين الحكومة كاخوانهم من حملة الشهادة الثانوية نتيجة تلك الدراسات المفرغة فى صورة من المصانعة للطلاب واعفائهم من كلفة التحصيل والبحث وما سوى ذلك من الإباحات .

والدكتور كان يعلم أن فى الأرض كلية أخرى تعد طلابها لهذه المزاحة بعينها وهى كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية : ذلك ما يريده الدكتور هو أيضاً ما كان منذ عدة سنين يوم أعلن مثل هذه الحملة على الأساتذة المتخرجين فى دار العلوم ، والجامعة يومئذ حديثة العهد وكل جديد ظريف فأقبل عليها الطلاب وتزاحموا على دروس الدكتور وقابلوه بالهتاف والتصفيق ومضت الأعوام وخرجوا من القسم فلم يجدوا شيئا ولم يحصلوا أدبا ولا علماً إلا ما اشتهرت به تعاليم الأستاذ من التهجم على كل معقود من آدب أو أعادة أو دين وصرت متى شئت أن تسمع منْ يتناول الآية من كتاب الله كما يتناول الناقد كلام الناس بالنظر والرأى .

سمعته من غير واحد فى هذه البيئة وإن الأدب القديم منحول وليس فى الأدب الإسلامى خصب والأدب العباسى فارسى ويونانى مما لم يتنبت عليه الذى نقله عن قائله ، ولا ابتكاراً فى البحث من عند نفسه ورجع عنه بعد أن ذاق لمدة الخلاف على الناس وتمتع حيناً بما يقول المثل (خالف تذكر) .

ولقد كانت فترة غيابه عن الجامعة فألا على هذا القسم تماثل فيه نوعا إلى الحياة الدراسية البعيدة عن اساليب التهريج والدعاية للأشخاص أقبل فيها الطلاب على النقد والمراجعة وعملوا بمناهج القدماء فى الاستظهار والتحصيل وعكفوا على الجد فى سكون ودعة وإذا وضح الأمر وظهر أن ما أبداه الدكتور من الغضب للغة وما لبسه من زى النساك وما حاول أن يزينه للناس بالخلابة والمنكر ، إنما هو الجزع والخوف من أن يتزلزل به كرسيه ويصير هو قرطاجنة أخرى تدمر بنيانها بيديها .

وقد كان خليقاً بمن يريد دائما أن يقول أنه هو وحده الأديب الفرد وأنه هو وحده الذى يحسن اللغة وهو الذى يستطيع دون سواه أن يكون مصرفا للثقافات المختلفة فى البلاد وهو القادر على إنشاء المعلم الصالح لهذا العصر الحديث الا تغلبه الموجدة على اساتذة اللغة العربية فيدعوهم إلى مناصبته بما لا ينطبق على أهون أساليب التجمل فى الحديث والأدب فى الجدل ، إذ يقول فى صحيفة كوكب الشرق : انهم لا يعرفون لغة ولا يحسنون أدبا وقد قيل (استح الحياء

كله أن تقول لصاحبك أنك عالم وأنه جاهل مصرحا لا مفرضا) وإنهم لقادرون على أن يردوه عن غيه ويكفوه عن طريقته فى الاملاء للأحكام والتعرض لما لا شأن له فيه من أمور الناس ويستجيبون لكرامتهم العلمية ومكانهم المعروف فى خدمة التعليم فى البلاد أن يقابلوا هذا التحلك بغير الأعراض والتهكم ويأتفون أيضا أن يحاولوا رد هذه التهم عن أنفسهم لما فى ذلك من سوء الظن بفهم القراء والارتياب فى صحة تقدير العقلاء لمعانى الكلام ولتلاميذهم فى المدرسة فكان لا يجهل فى الصحائف الأدبية من الجرائد الكبرى وهم لا يزالون فى دور التكوين ومهلة التخرج والتمرس بالكتابة والأدب والعلم.

ومن الغريب ان يقترن هذا التعدى من الدكتور بنوع من الاستخفاف لكاتب آخر يذكر حضرته مدرس النحو فى مدرسة القبة الثانوية بأشياء تعتبر داخلة فى عمله وجزءاً من دراسته وتعد مثلا من مسائل فن من فنون اللغة وهو علم الصرف الذى يبحث مآخذ الكلمات وأحوال تصريفها واشتقاقها ما يسمى فى النهاية العليا منه بعلم فقه اللغة أو علم أصول اللغات ولا ندرى على أى وجه تقع السخرية فى مثل هذا المقام إذا كان البحث فى رد الكلمات إلى أصولها ومعرفة مجردها من مزيدها وأصيلها من دخيلها ، وما يكون وجه العيب فى حمل التلاميذ على معرفة ذلك والتحقق من هذه المعرفة »[1]

* * *

وكتب الدكتور أحمد الحوفى (وكان إذ ذاك ما يزال طالباً بدار العلوم) مقالا نشر منه قدر كبير فى جريدة كوكب الشرق (٢٦ فبراير ١٩٣٥) تحت عنوان (لابد من بقاء قرطاجنة) قال فيه : لعل من جد دار العلوم الناهض وحظها الموالى أن تعلن تفوقها وجدارتها وابتداعها ختام مقام خصيمها الدكتور طه حسين إذ يقول « أنا شديد الاعجاب بالكلمة التى كان يقولها السياسى الرومانى كانو : لابد من هدم قرطاجنة » قال الأستاذ الحوفى : ان رأى طه حسين فى دار العلوم التى ستدت اللغة والأدب والتربية قرابة قرن من الزمان ليس وليد اليوم فإنك تقرؤه فى كتاب (الأدب الجاهلى) إذ وقف على محاولة النيل من هذا المعهد الجليل نحو عشرين صفحة زجها فيه زجا ، واراد أن ينفس بها عن نفسه مايرهقها من شنآن ونقمة ، لأن أكثر الذين ابلوا فى هدم آرائه فى الشعر الجاهلى ممن تخرجوا فيه .

ورد على ما أشار إليه الدكتور طه من ضرورة أن يتعلم القائمون على تدريس اللغة العربية فى مصر لغة أجنبية ، فقال أنه لا يريد من هذه الآداب الأجنبية إلا شيئاً واحداً هو السطو على آراء المستشرقين وإنتحالها وإدعائها والتباهى بها صحيحة أو خاطئة وإذا فعيب شنيع ونقص ذريع فى أبناء قرطاجنة أنهم لم يتأثروا بالمستشرق مرجليوت فى إنكاره للشعر الجاهلى . ولكنهم

---

(١) البلاغ ١٩ فبراير ٣٥ حول اصلاح اللغة العربية بين الدكتور طه وأساتذة اللغة

وقفوا من الشعر الجاهلى وقفة الدارس الباحث الحديث.

وعيب قرطاجنة الشنيع وتقصيرها الذريع أن واحداً من أبنائها لم يتابع (كليان هوار) فى زعمه أن القرآن من آثار النبى وانه استق كثيراً من شعر أمية ابن أبى الصلت وان القرآن « تأثر باليهودية والنصرانية ومذاهب أخرى كانت شائعة فى البلاد العربية وما جاورها » و « للقرآن أن يحدثنا عن ابراهيم وإسماعيل وللتوراة أن تحدثنا عنها أيضاً ولكن ورود هذين الأسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى » وأن بناء الكعبة خرافة استغلها الاسلام والمسلمون. نعم عيب دار العلوم أنها لم تزعم هذا ولم تتصيد آراء الفئة المغتصبة من المبشرين لنشرها فى كتاب تدعى أنها به تنهض للقديم وتصمد له وتبتدع فى دراسة الأدب طرائق جددا.

وعيب دار العلوم أن أحد أبنائها لم يسجل على نفسه فى مقدمة كتاب فجر الإسلام أن يدرس الحياة الأدبية وأن لا يفرغ القراء من أحد أقسامه، حتى يظهر لهم قسمه الثانى ثم الثالث ولكن الايام دارت وارتفعت الشمس حتى قابلت الوسط وصدر ضحى الإسلام بعد بزوغ فجره ولم يقدم الدكتور طه الجزء الخاص بالحياة الأدبية الذى وعد به ثم الم يخجل من دعواه بأن طلاب دار العلوم لا يجيدون الأدب القديم، أيعرف كيف يدرس غطاريف هذه الدار لاشباهم الأدب وتاريخ الأدب، وهلا يذكر أنهم فرعوا أخوانهم من طلبة كلية الآداب فى مسابقتين عقدتها وزارة المعارف ثم الم يسمع ويقرأ آثار هؤلاء الطلاب النابهين فى كتبهم ودواوينهم ومقالاتهم وهل يستطيع أن يكاثرنا فى عدد ما دبجت أقلامنا وعدد ما أخرجنا من كتب ولولا إبقاء على الود بيننا وبين أخواننا الأعزاء من طلبة كلية الآداب الذين يورطهم الدكتور لكشفنا له عن وجه الحق.

وهل نسى أن جمهرة الأساتذة فى كلية الآداب هم من المتخرجين فى قرطاجنة، ثم ما له يشتط فى كلمته فيورط نفسه فى أمر لم ينصب له ولم يزعمه لنفسه، ولن يستطيع أن يزعمه، وأن حاز على عقول جمهرة من الناس أنه دكتور فى الأدب لا فى التاريخ القديم فلن يجوز على فئة قليلة من هذه الجمهرة أنه عالم فى التربية، ما له ورط نفسه فادعى ان دراسة التربية لا تجدى المعلمين فلما أحس شذوذ هذه الدعوة شفع إليها أن وزارة المعارف ستسخطها والحق إنى ليضجرنى هذا الكلم الناكب عن كل محجة أما بعد فأود أن يعلم الدكتور وهو رضى النفس أو حانقها أن قرطاجنة خالدة ولابد من بقاء قرطاجنة » ا. هـا.

ويعلق الدكتور زكى مبارك على موقف طه حسين من دار العلوم فيقول: قل الحق مرة واحدة يا دكتور، كيف تجاهلت اقدار من خرجت دار العلوم من الرجال الذين سيطروا على الحياة الأدبية.

أيمكن أن يقال أن دار العلوم تخرج منها عبد العزيز جاويش وحفنى ناصف ومحمد المهدى ومحمد الخضرى وعبد المطلب وعبد الوهاب النجار وأحمد السكندرى ، من حقك ان تدوس دار العلوم لانك مقتحم ولكن يعز على وعليك ان تنهزم دار العلوم بعد أن صنعت فى التاريخ ما لم يصنع الأزهر ولا الجامعة المصرية ».

* * *

الفصل الثانى

فى وزارة المعارف

عمل طه حسين فى وزارة المعارف(١) مراقبا للثقافة (٢) مستشاراً فنياً للوزارة (٣) وزيرا - واتصلت أسبابه بوزارة المعارف منذ كان أستاذاً فى كلية الآداب وعميداً لها فقد كان مشاركا فى مناهج الأدب فى المدارس الثانوية على أساس خطة رسمها فى السيطرة على الطلاب فى المدارس الثانوية .

حتى إذا انتقلوا إلى كلية الآداب كانت المقدمات كلها تهيىء لهم تقبل ما يدرس بها من مخططات فإن سيطرة طه حسين على المناهج فى اللغة والأدب وخاصة إشرافة على كتاب المجمل فى الأدب العربى كان يعمل على تحقيق الهدف . وكان المستشرق جب قد أشار إلى نفوذ طه حسين الواسع فى توطيد المبادىء التى يدعو إليها وصدق مستر جب وآية ذلك أن آراء طه حسين التى نقضها الباحثون فى الشعر الجاهلى وأعلاء الفكر اليونانى على الفكر العربى والقول بأن عصر الإسلام الثانى عصر شك ومجون ، هذه الآراء كلها قد تضمنها كتاب المجمل فى تاريخ الأدب العربى فى نفس العام الذى نشر فيه جب تقريره (١٩٣٠) وأنه استطاع بقوة نفوذه أن يثبت كثيراً من أهداف التغريب والشعوبية فى وزارة المعارف بعد أن ثبتها فى الجامعة .

وكانما كانت خطة توليه منصب مراقب الثقافة من أواخر ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢ والمستشار الفنى للوزارة من فبراير ١٩٤٢ إلى أكتوبر ١٩٤٤ ، مرتبة ترتيبا محكماً لأداء هذا الدور الخطير .

وقد تناول كثير من الكتاب هذا الكتاب بالنقد كاشفين من خلاله عن العمل الذى يدبره طه حسين للمناهج فيقول الأستاذ عباس حافظ : (كوكب الشرق ٢٦ و٢٧ مارس ١٩٣٠) .

العجيب أن روح طه حسين قد سرى فى الكتاب من أوله إلى آخره ، وهى إرادة جبارة من عصاها فنى يده لمثله العصا . أن الكتاب قد تعرض فى التاريخ الأدبى العربى لجملة من القضايا والنظريات والتخريجات والآراء الخطيرة التى لم تبت فيها بعد ولم يستقر العالم الأدبى منها على أحكام حاسمة ، فالتشكيك فى الشعر الجاهلى واستباق الشعر للنثر وأثر الحضارات الأجنبية فى

حضارة العرب قد ألقيت إلى الناشيء طالب الثانوية كقضايا مفروغ منها وأحكام نهائية ، وهو منهج خطر على الناشئين مضلل للعقول الصغيرة .

أن التشكك فى حقيقة الشعر الجاهلى وما إليه بضاعة ازجاها طه بلطف الحيلة لتندس فى المنهج وتكتسب صفتها الرسمية فى المقرر ، وأن لم تصب صفتها الجنائية فى التحقيق ، وقد ذكرنا بكتابه الماضى فى الشعر الجاهلى وما أسماه تاريخ إبراهيم والكعبة بالأساطير التى إستغلها « القرآن » وإن لم تصلح للتحقيق التاريخى . (هذه الشبهات) التى أفلتت من القصاص هى اليوم فى دار الجامعة تنساب متسللة إلى نفوس الطلاب انسياب الأفعى نافثة سمها الزعاف فى أذهان الناشئين مخرجة لنا كتائب من الملحدين تلقوا المبادىء الخطرة المسممة قضية مسلمة ، أنها نفثة خبيثة موبوءة من نفثات طه حسين نفخها فى المنهج وعاد يبعثها فى المجمل لتشيع الشك فى النفوس الطرية والأذهان النقية .

وكذلك لا يقنع الأستاذ الملحد بالخمائر التى لديه فى تلك الكلية يصطنع منها ملاحدة معجونين فى الالحاد ويخبزهم فى أتون التشكك خبز التخمير والعجين واللت والتربص .

هذا ما يحزننا من ناحية هذا الملحد الجرىء الذى اجترح اشنع الجرم فى حق الدين الرسمى للدولة ثم مضى ناجيا من العقاب ، ضاحكاً من أذقاننا ، مجمعاً أمره لينتقمن للالحاد من إيماننا ولقد أسرها فى نفسه ورسم الخطة لثأره فلن تهدأ له هادئة أو أن يحيل أكثر شباب البلد كفاراً مثله موضعين فى الكفر .

ماذا يفيد الطالب الناشىء من وراء تلقينه أن كثيراً من الشعر الجاهلى مثار للشك فى نسبة الجاهلية ، أن هدم الذهن الصغير منذ الوهلة الأولى بالتشكيك خطر على الذهن نفسه ، وتسرب إلى الشك فيما بعد الشعر الجاهلى إلى الأدب كله ، فاذا مشى بهم خلال الأدوار الأخرى من الأدب فالى الغاية التى تجتث العقائد وتذهب بموروث الايمان .

وعنده المجال الوسيع ما دامت الآداب تحت سلطانه وقد شاع الغرور فى نفوس صبيان هذا الشيخ ، فإذا عرفت أن الإلحاد باب إلى الاباحة أدركت الخطر الذى أوشك أن يفجأ الحياة المصرية ، يوم يسرى الإلحاد فى الشباب فيعمم جمهرة المتعلمين » .

وقد أثار كتاب المجمل فى تاريخ الأدب العربى مناقشات كثيرة تناولتها أقلام متعددة كاشفة عن الخطة المسمومة التى تنظم الكتاب كله : يقول إسماعيل حسين (وهو واحد من كبار رجال التربية) البلاغ (٢٠ مايو ١٩٣٠) .

أولاً : يحوى المجمل مغامز خسيسة لا ترتكز إلى مصادر قوية من التاريخ كنسبة العصر العباسى كله إلى الزندقة والفجور والغزل بالمذكر ، وأظن أن الفضيلة والرذيلة لا يخلو منها عصر فى كل زمان ومكان وتلاميذنا أحوج إلى تربية الفضيلة وأمانة النقل فكان يجب أن تذكر

الفضيلة وهى موجودة فى العصر العباسى بوضوح جنباً إلى جنب مع الرذيلة كما يفعل كل مؤرخى الأدب أو على الأقل عملاً بواجب الأمانة العلمية.

ثانياً : النهضة الحديثة يجب أن تبنى على المستندات الرسمية والوثائق وأن تخلو من التحيز السياسى وهذا يبين ما فى الجمل ، فقد أخذ تاريخ النهضة الحديثة عن تلك الكتب المزيفة التى يعتقد العلماء المختصون بطلانها ويعدونها دلالة على العبث والتزييف أكثر منها دلالة على الحقيقة العلمية ، أو على الأقل أنها وضعت لتسدل على الماضى ستراً من النسيان ونسوا ما فى هذا من التجنى على الثقافة العلمية التى يجب أن تقرر لفائدة الأبناء والأحفاد. (ويشير الكاتب إلى أن بعض الكتاب قد وضع كتاباً لتاريخ المملكة المصرية من عهد محمد على وسلك فيه طريقة جديدة : هى طريقة خلق المعاذير للأشخاص وتجاهلوا أن تلك الوثائق منتشرة بين أيدى الناس ولا تخلو منها مكتبة).

ثالثاً : أشار إلى خطأ الاشادة بذكر المعاصرين لأن أعمالهم لم تكتمل بعد ولذلك لا يصدق الحكم عليهم ولكن القصد أن يذكر الدكتور طه لأنه صاحب الرأى الجديد فى إقامة الدليل بتكرار اللفظ كما قال (للمعليمن قضية وللمعليمن قصة ، نعم للمعلمين قضية ولهم قصة إلخ) وله فضل نقل آراء المستشرقين فى الأدب العربى القديم بجرأة نادرة وتصرف غريب وأن عز عليه ذكر المصادر.

* * *

ولا ريب أن قصد تعيين الدكتور طه مراقباً عاماً للثقافة إنما جاء على أثر صدور كتابه (مستقبل الثقافة) الذى حاول أن يرسم فيه طريقة العمل فى التعليم بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية مونترو التى تعثرت كثيراً تحت تأثير مخاوف فرنسا والدول الغربية من سيطرة البلاد على مصائر المعاهد والارساليات الأجنبية.

وحتى قيل إذ ذاك أن الدول اشترطت على مصر أن تنقاد للقانون الوضعى وأن تقبل إشراف بريطانيا على هذه المعاهد والأرساليات الأجنبية ، فى هذه الفترة أخرج طه حسين كتابه وكأنه برنامج للعمل وسرعان ما كلف بهذا المنصب ، وقد عجب كثيرون لهذا الاتجاه فقالت إحدى الصحف : تحت عنوان إلى أى طريق تسير بنا وزارة المعارف : ان الدكتور طه الذى يعلن صراحة أن العقل المصرى لا يتصل بالشرق أوأن الدين شىء والسياسة شىء آخر ، وإن الدعوة إلى الفكرة الإسلامية لا تقابل بغير السخرية وأن مصر لا تنهض إلا إذا قلدت أوربا فى كل شىء ، يعين مراقباً للثقافة ويصبح فى يده صناعة النشء أو بناء الجيل الجديد (جمادى الأولى ١٣٥٨ : النذير).

وقد زار مصر فى هذه الفترة رئيس مجلس نواب فرنسا (مسيو هريو) لتوطيد حياة المعاهد الفرنسية والذى استقبل استقبالاً حافلاً ، وكان الدكتور طه حسين مستشار الثقافة هو حجر

الرحى فى الربط بين الثقافة الفرنسية فى مصر ومعاهدة مونترو ، وقال الدكتور هيكل وزير المعارف أن هريو جاء إلى مصر بوصفه رئيس الجمعية العلمانية الفرنسية ، وأن كل أحاديثه وخططه تدور حول علاقات الثقافة بين مصر وفرنسا وما يجب أن يكون أساس هذه العلاقات وقال فى خطابه بمدرسة الليسيه فرنسيه أن الغاية التى يجب أن ترمى إليها الثقافة المصرية الفرنسية إنما هى أن تغرس عن طريق المعرفة حب مصر فى نفوس الناشئة الذين يتلقون العلم فيها ، وأشار إلى تضحيات فرنسا للحرية والإخاء والمساواة .

وعلى أثر هذا حدثت فى الغرب محاولات ضخمة لتكريم طه حسين .

نال الدكتوراه الفخرية من جامعة ليون ١٩٣٨ وقال فى خطابه أن مصر مدينة بكثير من الفضل لفرنسا (الصحف ١٩٣٨/١١/٥) وكانت الحكومة الفرنسية قد أنعمت على الدكتور طه بنيشان اللجيون دونور من درجة أوفيسيه .

يقول زكى مبارك البلاغ ١٣ سبتمبر ١٩٣٦ : وقد دعا ذلك إلى التفكير فى جدارته بهذا النشان والحق ان الدكتور طه حسين خدم الثقافة الفرنسية أجل الخدمات ولعله أظهر مؤلف مصرى أولع بتلخيص الاقاصيص الفرنسية باسلوب ممتع جميل وهو إلى ذلك أظهر من تحدثوا عن المؤلفين الفرنسيين ومن أشهر من تخرجوا من جامعة باريس .

وكتبت صحيفة البروجريه التى تصدر فى ليون (الأهرام ١٩٣٧/١٢/٥) تقول تحت عنوان (ربنان مصر الضرير) انه ألف عدداً من الكتب فى مختلف الموضوعات مبيناً فيها الأفكار اليونانية المنقولة إلى العبرية ثم إلى العربية ومنها عن الحضارة الغربية حيث ازدهرت فى علم الأدب الفرنسى وكيف رسخت فيه الأفكار الفرنسية فاعطاها فى بلاده قوة شديدة مؤثرة .

ومما صرح به طه حسين : نحن مع تعلقنا بفرنسا بالفكر والقلب ، نحافظ على اتفاقنا الصادق مع انجلترا فإنها برت بوعدها لنا بمساعدتنا على توطيد أركان استقلالنا الوطنى وقال انه يجب على مصر أن تتوخى سنن الحضارة الغربية والرقى الديمقراطى ناهجة فى ذلك نهج فرنسا وانجلترا فى القريب العاجل بلا قيد ولا موارية .

وقد وصفه الكاتب الفرنسى(ايمى جونى) فى مقال له تحت عنوان (مصرى القرن العشرين) بقوله : « الأزهرى المتمرد على بعض العقائد الدينية » .

وقالت الصحف إن منح طه حسين هذا النيشان بعد توقيع المعاهدة ومنحه الدكتوراه الفخرية يعد توثيقا لعرى التعاون الفكرى بين مصر وفرنسا (الصحف ٦ أكتوبر ١٩٣٨) .

وكتب زكى مبارك مقالا فى الرسالة بعد تعيين طه حسين مراقبا للثقافة(٢٥ ديسمبر ١٩٣٩) قال فيه : أنت صرحت مرات كثيرة بأن العقلية المصرية عقلية يونانية وأن تلك

العقلية يجب مراعاتها فى التعليم والتثقيف . وأنت دعوت إلى تعليم اليونانية واللاتينية بحجة أنهما أصل للحضارة الأوربية فهل تظن أن تلك الدعوة لا يزال لها فى مصر والشرق مكان . إن محاسنك هى عيوبك يا سيدى الدكتور فأنت تفر من السكون لأنه ينافى الحياة ، ولعلك لا تحب الحياة فى الحقيقة كما تحبها فى الخيال وإلا فكيف جاز عندك أن تدرس الخطب القديمة فى وطن ديوستين قبل أن تدرس الخطب الحديثة فى وطن زغلول وكيف صح فى ذهنك أن تدرس مجادلات الأحزاب فى اثينا قبل أن تدرس مصاولات الأحزاب فى البصرة وبغداد ، أنت تلوذ بالقديم فى كل وقت لتأمن سيطرة الناقدين ولكن القديم اندحر أمام الجديد فمن واجبك أن تفكر فيما تقدم عليه قبل أن تذكرنا قدرك » .

ومما يذكر أن الدكتوراهات الفخرية قد توالت على الدكتور طه حسين من بعد ذلك من جامعة مونبيليه ١٩٤٦ ، جامعة روما ١٩٥١ ، جامعة اكسفورد ١٩٥٠ ، جامعة باريس ١٩٥٠ ، إلى جائزة سانتوا عن رسالته عن ابن خلدون .

وقد كشف طه حسين عن هدفه من العمل فى وزارة المعارف فى محاضرة القاها فى ١٩٣٦/١٢/٢٠ فى قاعة إيوارت التذكارية فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة تحت عنوان (واجبنا الأدبى بعد المعاهدة) .

جدد فيها دعوته المسرفة فى دفع الأدب إلى الشك والالحاد والكشف والإباحة وعرض لما جرى له مسجلا موقفه كرائد فى مجال الفكر الحر ليثبت أمام السادة أنه يبدأ هذه المرحلة من حياة الأمة بعد عقد المعاهدة مع بريطانيا ـ وهو حدث جد خطير فى مصر ـ انه سائر على نفس الطريق المرسوم له .

يقول : إن الأدب الحق هو الأدب الذى لا يجد من العرف ولا من القانون ولا من سطوة السلطان ما يعوقه عن القيود . إن أول ما ينقص البيئة المصرية الحديثة مما يحتاج إليه الأدب هو الحرية : فالأدباء ليسوا أحراراً وحرمانهم الحرية يقص أجنحتهم ويحول بينهم وبين الإنتاج الحق ، وهم لا يستطيعون أن يفكروا وقد يتاح لأحدهم أن يتمرد على الجماعة فيفكر برغم الجماعة ولا يعلن ما يعن له من الأفكار والآراء وقد يعلنها فى شىء من الحرية ولكنه لا يكاد يفعل حتى تقوم من حوله القيامة وحتى يهاجم أشد مهاجمة وحتى يضطر إلى الانزواء ويخشى شر الناس ويخشى الناس شره فى وقت واحد »

ويقتضى انطلاق البحث إلى غايته فى الحديث عن حياة طه حسين أن نقول انه فى عام ١٩٣٤ غير طه حسين مجرى حياته تغييرا كليا عندما انفصل عن حزب الأحرار الدستوريين وانضم إلى حزب الوفد . وكان طه قد فقد كل سمعته وكرامته فى نظر الناس بعد كتابيه الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء فقد كشفت التقارير عن خبيئة سيئة وراء هذه الكتابات تهدف إلى

غايات وصفت بأنها معارضة للاسلام أو حربا له وبذلك سقط طه حسين سقوطا تاما ، غير أن الذين من ورائه كانوا يريدونه إماما مسلما يتصدر باسم الاسلام ويشكك من داخل الإسلام حتى يمكن أن يقال من بعد أن آراءه هى آراء أزهرى مسلم وبذلك تصبح أداة قوية لتبرير تفكيك قيم الإسلام وكان أسلوب الحرب من الداخل هو الذى فرض نفسه فى هذه المرحلة حيث بدأ طه حسين يكتب عن الرسول فى مجلة الرسالة تحت عنوان (على هامش السيرة) وأذيع وراء ذلك وحول ذلك دعاوى كثيرة عن الرجل الذى عاد إلى الإسلام وبدأ يكتب تلك الفصول البليغة خداعا وتضليلا وهى تحمل فى أعماقها سخرية وشبهة لا حد لها ، وعندما أخذت هذه الدعاوى مكانها ، كانت قفزة طه حسين إلى الوفد حتى يكون فى إطار الحركة الوطنية وحزب الأغلبية فيعينه ذلك على العمل ويحميه من هجمات العلماء المسلمين وهو فى ظل الوفد استطاع فعلا أن يخطو خطوات واسعة فى سبيل تحقيق هدفه سواء فى الجامعة أو وزارة المعارف وكان من ثمارها كتابه عن مستقبل الثقافة وفى ظل الوفد استطاع طه حسين أن يتقدم حتى أصبح وزيراً للمعارف .

وجاء بعد ذلك من اتخذ كتاباته عن الإسلام وكأنها رأى عالم اسلامى متخرج من الأزهر لتكون حجة على المسلمين والإسلام وهذه هى نقطة الخطر الحقيقية فى عمل طه حسين فى هذه الفترة . فكيف يمكن توجيه الاتهام إلى مؤلف هامش السيرة ، فى ضوء هذه المظلة الواقية المزدوجة : الوفد وهامش السيرة ؛ كان طه حسين أشد جرأة فى تحقيق أهدافه عن طريق التعليم والمناهج والجامعة من ناحية وعن طريق إذاعة آرائه وشبهاته وكان أخطر أعماله فى هذه الفترة كتاب مستقبل الثقافة الذى حاول يجعل الفكر والثقافة والتعليم فى مصر والبلاد العربية تابعا وضالعا ومنصهرها فى الفكر والثقافة الغربية قاضيا على المفهوم الإسلامى العربى الواضح الذى له طابعه وذاتيته .

وقد أشارت مختلف الكتابات إلى أن طه حسين فى هذه الفترة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٢) وفى خلال منصبيه : مراقب الثقافة والمستشار الفنى انه كان هو الوزير الحقيق . فقد كان مع الدكتور هيكل ومع أحمد نجيب الهلالى من بعد منطلقا للعمل ومسيطراً ومندفعاً لتحقيق أهدافه فى إعداد المناهج وتعبيرها وفى السيطرة على التعليم الإبتدائى والإعدادى والثانوى ورجاله جميعاً . ثم كانت أعماله فى جامعة الأسكندرية وهو مديرها خطوة واسعة فى سبيل أهدافه : وكان يحاول أن يحمى نفسه فى هذه الفترة بدعويين : استقلال الجامعة وديمقراطية التعليم وهى كلمات براقة مطاطة تخفى وراء مظهرها عمله الآخر العميق الذى حاول فيه « تغريب المناهج » ليس فى الجامعة وحدها بل وفى التعليم كله .

* * *

ولقد كانت دعوة طه حسين فى كل أمور التعليم إلى استدعاء من أسماهم : « الفنيون » فاذا لم نجدهم فى مصر فقد نجدهم فى أوربا « ورأيى ان من الاثم التردد فى دعوة الفنيين بحجة إننا مستقلون وأننا نريد الاستقلال » السياسة الأسبوعية ١٢ مارس ١٩٢٧ وهى نفس الدعوة إلى استدعاء المستشرقين فى الجامعة.

وقد ووجهت كلتا الدعوتين بالمعارضة والرفض . ذلك ان التجارب العديدة قد أثبتت أن الفنيين فى التعليم لم يكونوا إلا قسسا امثال دنلوب أو مستشرقين متصلين بالكنائس او الاستعمار الغربى أمثال ماسينيون ولم يكن هناك الفنيون المتجردون من الهوى والغاية والذين يفهمون كيف يكون التعليم فى بلد مسلم ، وليس عندهم إلا مناهج الارساليات وهى موجودة والحمد لله فى مصر والعالم العربى بوفرة وقد نقلت مناهجها إلى المدارس الوطنية منذ قدوم دنلوب ١٨٨٦ تقريبا.

* * *

طه حسين والأزهر

ولقد كان لطه حسين مواقفه الواضحة الغرض القائمة على الهوى من الأزهر ، وقد جاء هذا انطلاقا من حفيظته القديمة وخصومته المتجددة لمواقف الأزهر من آرائه التى تعارض الإسلام ، ونحن نعرف أن طه قد حمل على الأزهر منذ أسقط فى امتحان العالمية وقد أثار المستشرقون الخصومة حادة بينه وبين الأزهر حتى ظلت مشتعلة الأوار إلى نهاية حياته وفى خلال عمله فى الجامعة ووزارة المعارف وبعد ان أحيل إلى المعاش لم يتوقف عن مهاجمة الأزهر فى أسلوب مراوغ باسم الدعوة إلى الاصلاح ولم يتوقف عن السخرية منه ، يقول عام ١٩٢٥ موجها كلامه إلى صديقه الآبق : على عبد الرازق بعد الحكم عليه با خراجه من زمرة العلماء : ايه ايها الطريد من الأزهر ، تعال نتحدث ضاحكين عن هذه القصة المضحكة ، قصة كتابك والحكم عليك وطردك من الأزهر ، فما بال رجال الأزهر لم يقضوا على كتابك بالتحريق فقد كان علينا أن نرى نسخه تجمع فى صحن الأزهر أو أمام باب المزينين .

تعال نضحك فقد كان كتابك مصدراً لتغير الارثوذكسية فى الإسلام ، ولست أنت الذى غيرها أيها الطريد المسكين وإنما غيرها الذين طردوك وأخرجوك من الأزهر ، وقد كنا نعلم أن القاهرة مركز السنة ومواطن الأشاعرة ومستقر الأرثوذكسية الإسلامية ، ما هذه الهيئة التى أخرجتك من الأزهر ، وما سلطتها الدينية ، هى أثر من آثار الإستبداد أنشأها عباس يوم كان يريد أن يستهوى ويوم كان يريد أن يكيد وهى أثر من آثار الاستبداد لا يليق بعصر فؤاد مصدر الدستور » . ا

ثم يواجه طه حسين عام ١٩٢٦ الأزهر فى موقف حاسم إزاء كتابه (فى الشعر الجاهلى) وفى الأدب الجاهلى .

ومنذ ذلك اليوم وطه حسين لا يدع مناسبة إلا ويعرض فيها للأزهر والأزهريين بالسخرية والنقد فهذا (موضوع) أساسى فى حياته الفكرية كلها وأخطر ما يكون فى مجال التعامل بين الأزهر ووزارة المعارف فهو يرد الأزهريين عن العمل فى وزارة المعارف ويدعو إلى أن يكونوا زاهدين فى المناصب ، ويدعو الأزهر إلى إن يكون إدارة للوعظ والإرشاد .

وعندما شدد الخناق عليه أعلن فى بيان خطير أنه يؤمن بالله واليوم الآخر.

وعندما نوقشت آراؤه فى البرلمان عام ١٩٣٢ حاول الدفاع عن نفسه فقال فى صلف عجيب « أؤكد لك إنى أشد دفاعا عن الإسلام وحماية له واظهاراً لجمال القرآن واعجازه عن رئيس الوزراء وشيخ الأزهر . واجمل شيء ضحكت له اليوم شيخ الأزهر أن يعدم كتاب الشعر الجاهلى ، هذا شيء مضحك ليس أقل سخفاً من رضى شيخ الجامع بفصلى على أنه حماية للإسلام وإنى أقترح على صدق باشا (رئيس الوزراء) أن يقيم حفلا من شيوخه ونوابه فى حرم الجامعة وأن يلبس رئيس الوزراء عمامة شيخ الأزهر وأن يتقدم فيلق بيده الكريمة فى النار المضطرمة أول نسخة من هذا الكتاب ثم يتبعه القوم فيفعلون فعله » . (كوكب الشرق ٢ أبريل ١٩٣٢)

ويمضى فينتهز كل فرصة ليهاجم الأزهر فنى عام ١٩٣٤ يقول:

« ثم شيخ الأزهر وما شيخ الأزهر : ان له بركات ظاهرة وأخرى خفية ان له مساعى واضحة وأخرى غامضة إنه يستطيع أن يقرأ العدية الكبرى ومن ورائها الدعاء المشهور ، ان له عند الأولياء وسائل انه يستطيع ان ينفق ليله ساهراً فى غرفة يطلق البخور ويجرى لسانه بما تيسر من الكلمات فإذا النظام باق لا خطر عليه وإذا الشيوخ والنواب لا يتعرضون لشر ولا يخافون بأسا » الوادى ـ ٢١ نوفبر ١٩٣٤

ولاريب أن مثل هذه الكتابات كان لها فى وقتها أثر خطير فهى تنفث فى روع الشباب والشعب السخرية والإستهانة بالأزهر ورجاله ، وهى فى الوقت نفسه ترضى المستشرقين والقوى التغريبية لإنها توهين للدين نفسه ، ذلك أن طه حسين قد تعلم شيئا هاما جداً بعد التجارب المريرة أن لا يهاجم الدين بل يهاجم المؤسسات والأفراد ، فهو حين يهاجم الأزهر إنما هو يهاجم الإسلام من الداخل ، وذلك أسلوب كانت له أثار بعيده فى خلق جو من إستهانة الناس بعلماء الإسلام والنظر إليهم على أنهم ليسوا أهلاً لأن يقدموا التوجيه للمسلمين.

وفى عام ١٩٣٢ يقول : ما دامت هذه الآيام السود قد جعلت رأى الشيخ الظواهرى فوق الدين والعلم وفوق الحرية والدستور والقانون ، فمن الحق على هذا (البابا) أن لا يحكم رعاياه البائسين حكم قراقوش وان لا يقضى فى أمر حتى يفهم ويتبصر ، وأنا أعلم أن عمامة الشيخ تضيق بفهم هذه الكتب العلمية الخالصة التى يطبعها فى مصر جماعة من المصرين والأجانب الشرقيين والغربيين » السياسة ١٩٣٢/٦/٢٨

وواضح أن هدف طه حسين هو فتح الطريق أمام الأجانب الغربيين وحدهم فى نشر ما يشاءون من آراء سواء أكانت معارضة للإسلام أو مهاجمة له.

ويقول : لا : ليست المسألة مسألة دين ولامسألة علم ، وإنما هى مسألة سياسية ليس غير ،

رأت الوزارة فى الجامعة معهدا خطراً على سياسة القهر والتسلط فغضبت عليها ورأت الوزارة فى الأزهر أو قل فى شيوخ الأزهر أو قل فى الهيئة الرسمية للأزهر، أو قل فى شيخ الأزهر مؤيدا لسياستها هذه فرضيت عنه وآثرته بالخير، فاما الأمة فإنها تعلم حق العلم من الذين يؤيدونها وينصرونها ويهيئون لها الوسائل إلى الحرية والعزة والكرامة فتنظر إليهم فى حب وترمقهم فى أمل وتعدهم بان تمنحهم بسبيله من سعى إلى الحرية، فليهنأ الأزهر برضى الحكومة ولتهنا الجامعة برضى الأمة وغضب الوزراء» كوكب الشرق ١٩٣٣/٣/٢٩.

وهكذا يستمر طه حسين فى إثارة الحفائظ وبث الفتن والتفريق بين الصفوف من أجل ارضاء هواه، وارضاء سادته المستشرقين والتغريبين.

وفى عام ١٩٣٥ يعود طه حسين إلى الجامعة فيواصل الحملة فى عنف على الأزهر فهو يتحدث عن رجال الدين فى مصر ورجال الدين فى أوربا ويتحدث عن القسيس المهندس، والقسيس الطيار والقسيس المنقب عن الآثار ويهاجم علماء الإسلام ويستنقصهم. ويرد عليه الكثيرون كاشفين عوراته ثم ينهب إلى أبعد من ذلك فيبعث بمذكرة إلى وزير المعارف يطلب فيها ضم دار العلوم إلى كلية الآداب ثم يعرج على الأزهر بطعناته المعروفة ويقول الأستاذ على محمد عامر فى مقال مطول نشرته السياسة ١ يوليو ١٩٣٦:

ان الدكتور طه له مع الأزهر ماض معروف وقد كنت أتمنى لهذا الرجل الكبير أن ينساه ولكن خاب هذا التمنى حينما قرأت له هذا التقرير الذى رفعه إلى وزير المعارف بشأن ضم مدرسة دار العلوم للجامعة المصرية فقد قال فيه عن الأزهر.

(فليس من حسن الرأى ولا من النصح للغة العربية وآدابها ولا من الإخلاص للشباب المتعلمين أن يثقل الأزهر المثقل فنكلفه مهمة جديدة هى تخريج المعلمين لمدارس الدولة فى الوقت الذى لا يتسطيع فيه القيام بمهمته الأولى) ما شاء الله يا دكتور: هل هذه هى خلاصة فلسفة الآراء الحديثة فى الحكم على الأشياء ويقول (ان الطريق أمام الأزهر ما زالت غامضة مبهمة شديدة الغموض والإيهام ولأن الظروف الخاصة والعامة التى تحيط بالأزهر ما زالت غامضة مبهمة شديدة الغموض والابهام أيضاً) فالطريق واضحة جلية لا تخفى على ذى عينين ولا على ذى رأى بصير، فلا غموض ولا ابهام لا فى نواياك نحو الأزهر، وها هى الطريق معبدة تحرسها قوانين الإصلاح وتضىء جوانبها. وها هو الشباب الأزهرى المتعطش للاصلاح يكد ليل نهار فى مدارسة العلوم وها هى ذى البعثات العلمية تنهل من علوم الغرب لئلا يكون لك ولأمثالك على الأزهر حجة بعد ذلك. أليس من العجيب أن تقول عن الأزهر فى تقريرك:

(واتصال التعلم الأزهرى والشهادات الأزهرية بوزارة المعارف غير واضح بل غير موجود والأصل فى بلاد الأرض كلها أن الذين يتعلمون فى مدارس الدولة يجب أن يسيطر

وزير المعارف نوعاً ما على تعليمهم ، ويتلقوا إجازاتهم العلمية والتعليمية من وزير المعارف ويجب الا يخضعوا حين ينهضون بالتعليم لغير السلطات التعليمية المدنية ، هذه الأصول المقررة فى جميع البلدان المتحضرة من غير استثناء لا تلائم مطلقاً ما ينتهى إليه الأمر إذا ترك للأزهر تخريج معلم اللغة العربية وآدابها لمدارس الدولة) .

الم تعرف يا دكتور أن للأزهر مجلساً أعلى يرأسه الأستاذ الأكبر ومن أعضائه وكيل وزارة المعارف ، وان الجامعة والمدارس العالية والثانوية وابتدائية عشرات من المدرسين الأجانب لم يسيطر على تعليمهم وزير المعارف ولم يتلقوا اجازاتهم العلمية والتعليمية منه ؛ فهب ان الأزهريين مثل هؤلاء الأجانب من الانجليز والفرنسيين أم أنت تحل ذلك للأجنبى وتحرمه على المصرى الأزهرى . أما قوله : (ويجب أن لايخضعوا حين ينهضون بالتعليم لغير سلطات التعليم المدنية) فمن قال أن المتخرج من الأزهر حين يلتحق بخدمة الدولة فى وزاراتها لا يخضع لها ويظل خاضعاً لسلطان الأزهر ، ان نظام هيئة كبار العلماء يمحو ويقيد على الأقل تقدير سلطان الدولة تقييداً خطيراً إذا تخرج المعلمون من الأزهر ، ان هيئة كبار العلماء التى تتحرق غضباً منها لم تحارب يوماً من الأيام حرية العقل التى لم تخرج عن حدود الأخلاق والآداب والدين » .

ويقول الأستاذ محمد أحمد السقا : يعلم الله أن الدكتور يريدها غربية لا شرقية زاعماً أن الثقافات كلها من الغرب وأن يسلب الشرق أخص خصوصياته وهى آدابه ولغته وكان الأجدر بالدكتور أن يدعو إلى ضم كلية الآداب إلى دار العلوم وأن يشفق على نفسه وعلى الشباب الذى يزعم أنه يحتضر من سياسة التعليم العربى فإن من الحقوق للشرق أن يتبع سنن الغرب فى كل شىء ، حتى فى العلوم النظرية ولعل الدكتور يعلم أن الغرب لم يعن الآن بالعلوم النظرية ، ألا فليرفه الدكتور عن نفسه وليرحم شباب هذه الأمة الذى طالما فتح أمامه أبواب الشك والريب فطوراً ينشر لهم منهب ديكارت ومنهب غيره من فلاسفة الغرب وملاحدتهم ، هل ينسى الدكتور فضل دار العلوم وهل نسى الأزهر الذى ثقفه وكونه وجعله يتكلم بالمنطق السليم حتى أصبح يطعنه بسهامه التى طالما طعنه بها من هو على شاكلته » .

وبعد فإن المذكرة الموجهة إلى وزير المعارف ، لم تكن إلا علامة على طريق جديد فإن وزير المعارف هذه المرة هو ـ لطفى السيد ـ زميل طه حسين فى الجامعة منذ انشائها وقد نقل إلى هذه الوزارة ليؤدى دوره ولابد أن يكشف له طه حسين الطريق الذى يستهدف اقتلاع الثقافة الإسلامية من أفق التعليم وذلك بابعاد الأزهر وانتقاصه وحجب خريجيه عن التدريس ، جرياً على الطريق التغريبى المرسوم لهدم كل مقومات نظم التعليم والتربية الإسلامية وابعادها عن الطريق الصحيح إلى التحولات التى يرسمها الإستعمار والاستشراق .

* * *

ولقد حرص طه حسين فى مختلف محاضراته وكتاباته أن يعلن أن الجامعة المصرية هى الجهة الوحيدة التى ينبعث منها نور العلم فى مصر، والتى يكون فيها طلب العلم لذاته.

أما الأزهر فلا يصح أن يطلب المدرسون فيه شيئاً من المال لأنهم يجب أن يكونوا متزهدين فى الحياة الدنيا » محاضرته فى جمعية الشبان المسيحيين (مارس ١٩٣٠) ومن مقال له فى مجلة الرابطة الشرقية تحت عنوان إصلاح الأزهر يدعو إلى إماتة الأزهر بأن يعتبر مدرسة وعظ وإرشاد وألا يكون للمتخرجين فيه حق فى الوظائف وأن يعيشوا عيشة الرهبان ويدعو الدنيا وأغراضها وقد رد عليه الشيخ محمد الخضر حسين فى مجلة الهداية، وكتب غيره : فقال كاتب فى البلاغ) : (٤ أبريل ١٩٣٠) أنظر كيف يدعو إلى إيجاد الرهبانية فى الإسلام، لقد عاد إلى جنايته وارتد إلى جريرته فى وقت تفكر فيه الحكومة فى وضع إصلاح للأزهر يحفظ عليه مجده ويمكنه من أداء مهمته.

ويقول الكاتب : من قال أن الجامعة هى الجهة المصرية الوحيدة التى يجب أن ينبعث منها النور العلمى فى مصر.

هل نسيت أن مصر بلاد إسلامية وأنه لحفظ الإسلام يجب أن يبقى الأزهر ويعنى بأمره ليتولى حراسة الإسلام من إعتداءاتك واعتداءات أمثالك.

ويعلق الكاتب على تحول الدكتور من الهجوم على الإسلام إلى الهجوم على الأزهر فيقول : ما هذا الانقلاب يا دكتور، أمن رمى القرآن باستغلال الأساطير واختراع القصص وارتباك فى ضمير الغائب واسم الاشارة إلى تصوف وورع ودعوة إلى النسك والزهادة.

يظهر أن الدكتور اقتنع بأن الناحية الدينية لم تجد نفعاً فى تسليط معاول هدمه، وأن الكرم فيها مظهر لجهله فاضح لعوراته، فراح يحارب المسلمين فى ناحية أخرى يظنها هينة عليهم رخيصة عندهم لا يحفلون بها حفلهم بالدين وقداسته والإسلام وخطوته فبسط فى الأزهر الأذى والتحدث إليه بالمنكر ولو علم أن الأزهر حصن الإسلام ومعقل الدين وحامى الشريعة وأن الأمة لا تترك لساناً يلوكه بالسوء إلا قطعته ولا تدع قلماً يذكره بالشر إلا حطمته لوفر عليه هذه الناحية »

وصدق الكاتب الأسبانى ايمر چومى الذى قال عن طه حسين : « أنه الأزهرى المتمرد على بعض العقائد الدينية » وقد أشار مؤلف كتاب الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية إلى دور طه حسين فى قضية التغريب والأزهر فقال : دعا طه حسين إلى إلغاء الأزهر وإلى منع خريجيه من الاشتغال بأى عمل من الأعمال، ودعا فى كتابه (مستقبل الثقافة) إلى أن يصبح الأزهر كلية دينية يدخلها من شاء أن يتم تعليمه الثانوى ولطه حسين مقال معروف بعنوان « وجه الصواب فى إصلاح الأزهر » عبارة عن حمله عنيفه على نسق الشعر المنثور :

وهكذا هم جاهلون فى اللغة العربية ، هم جاهلون فى الفارسية والتركية والهندية عاجزون عن أن يذودوا عن الدين ويردوا عنه كيد خصومه.

هم عاجرون لأنهم يجهلون الديانات الأخرى ، هم عاجزون عن أن يؤدوا ما للإسلام عليهم »

والمقال كله قطعة من الحقد والخصومة والتعصب (السياسة : ٣١ أغسطس ١٩٢٣) وقد جلا هذا الكتاب مؤامرة الاستعمار والتغريب فى مواجهة الأزهر التى قام الدكتور طه حسين فيها بدور خطير.
وكانت مقالات طه حسين عن ما أسماه (الخطوة الثانية : من أخطر محاولاته لهدم الأزهر.

وكان أن أعلن الغاء المحاكم الشرعية فإذا الدكتور طه يتقدم يطلب الغاء الأزهر تحت اسم الخطوة الثانية فى مقال بجريدة الجمهورية ١٩٥٥/١٠/٢١ دعا فيها إلى توحيد التعليم على الأساس المدنى وجعل الأزهر كلية لاهوتية للدراسات الدينية ثم أردفه بمقال آخر فى ١٩٥٥/١١/٢ ثم بمقال ١٩٥٥/١١/٦ ثم مقال رابع ١٩٥٥/١١/٢٧.

وفى هذه المقالات يرد على المعارضين من رجال الأزهر وغيرهم الذين تتابعوا فى نقد رأيه ومعارضته والكشف عن خطأه فى دعوته هذه ، وتجديد الحديث معه فى محاولاته المتابعة منذ عام ١٩٢٦ تقريباً وهو لا يكف عن مهاجمة الأزهر والتشهير به والدعوة إلى جعله مدرسة للوعظ أو كلية لاهوتية.

وقد جدد الأزهريون فى مقالاتهم التى نشرتها الجمهورية فى هذه الفترة والعدد الخاص الذى صدر من مجلة الأزهر عن طه حسين (نوفمبر ـ ١٩٥٥) أشياء كثيرة من حياة طه حسين وإتجاهاته وكان أحدهم جريئاً فى القول بأن طه حسين هو سفير سرى للكاثوليكية الفرنسية وهذا ما ردده طه حسين نفسه بعد فى مقال بالجمهورية ٩ يوليو ١٩٦٠ تحت عنوان (عندما اتهمونى بأنى سفير سرى لفرنسا) وقال الدكتور محمد محمد أبو شبهه.

لقد جعل الدكتور من نفسه داعية لرجال الدين المسيحى يصفهم بوفرة النشاط والتصرف فى كل شئون الحياة ويصف شيوخ الدين الإسلامى بالعجز والقصور وليس هذا بجديد عليك فقد نصبت نفسك داعية للمبشرين واضرابهم من المستشرقين وحاولت أن تشكك الناس فى عقائدهم وقرآنهم فعثرت على ذيل مقال لمبشر تحت اسم هاشم العربى فنسبت ما جاء فيه لنفسك (مقاله فى الإسلام لجرجس صال) الا فليعلم الدكتور ومن على شاكلته أنه لن يكون شيء من ذلك ودون ما يريد خرط القتاد وصعود السماء (فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) والمعروف أن المرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدى كان أول من كشف فى الأهرام عام ١٩٢٦ عن مصدر مزاعم الدكتور طه حسين الشعر الجاهلى مما أورده جرجس صال فى كتابه مقال عن الإسلام كما سيرد فى موضعه.

وكتب أحد الباحثين فقال : لقد تساءل الدكتور طه فى مقال فى جريدة الجمهورية عمن أنبأ شيوخ الأزهر أنى سفير فوق العادة لفرنسا وهو التعبير الذى أطلقه الأستاذ زكريا البرى .

وإنى أحيله فى ذلك إلى جوه الفرنسى الذى يعيش فيه وإلى ما نشر عن أولاده فى كتاب (أصدقاء الثقافة الفرنسية فى مصر من ١٩٢٥ ـ ١٩٤٥) ودعوته الملحة فى الأخذ بالحضارة الغربية خيرها وشرها ثم أحيله إلى إبنه كلود صاحب الاسم الفرنسى وهو يتغنى بموسيق الكنيسة .

وكان الاستاذ زكريا البرى قد أشار إلى أن كلود طه حسين هو ناظم ديوان (EL Le Matim Clair)

الذى يتغنى فيه لأمينة أخته بموسيق نواقيس الكنيسة وذلك فى القصيدة التى عنوانها (La Cal hedrals Enjlouite)

وكتب أحد الباحثين يقول : أن الخطوة الثانية يجب أن تتجه نحو تطهير الجامعة من هذا التيار العدوانى للقانون والاخلاق والواجب والطهارة والبراءة وحماية الجامعيين من هذا الوباء الجارف الذى يدعو إلى الإثم ويهدد مستقبل مصر وكيانها وينادى بالقضاء على ما يختلف به الأزهر فى مناهج تعليمه عن مناهج من يسميهم الناس فى مدارس وليس بين مناهج الأزهر والمناهج الأخرى من فرق إلا بتعلم القرآن والحديث والسيرة النبوية والفقه الإسلامى ، فالقرآن وهذه العلوم هى الخطر كل الخطر على مصر ويجب أن تكون الخطوة الثانية متجهة نحو تحطيمها وإبادتها بتوحيد التعليم فى طور الصبا والشباب .

وكان رأى الدكتور : « حسب الازهر أن يكون مستقلا بالتعليم العالى فى الدين وعلومه أما التعليم الإبتدائى والثانوى والإعدادى فيجب أن يكون من شأن وزارة التربية والتعليم تنفرد به فى مدارسها » .

ومات طه حسين ولم يتحقق هذا الأمل بل لعله شهد جامعات إسلامية متعددة تنمو وتزدهر فى المدينة المنورة والرياض وأزهر لبنان وقد اشترك فى معارضة الدكتور طه والرد عليه : عبد الفتاح الهوراى وعبد المنعم النمر ومحمد الشربينى وصادق عرجون وكامل محمد حسن وسعد غراب .

وعقد السيد محب الدين الخطيب رئيس تحرير مجلة الأزهر مقالا رئيسيا حول الخطوة الثانية وقال فيه : المناهج الازهرية تمتاز عن المناهج الأجنبية التى اصطنعناها فى مدارسنا العامة باشتراط حفظ القرآن فى الازهر وإذا كان هذا هو موطن الضعف والخلف عندنا فى مناهج الازهر ومنه جاء الشذوذ والالتواء فاستحق الازهر أن يهدم من أساسه بسبب هذا الإثم

العظيم فليرفع البرقع عن وجهه وليناد على ملأ الأشهاد بأن اشتراط حفظ كتاب الله هو العقبة التى تقوم بين شبابنا الازهريين وتعلمهم كما يتعلم الناس.

فإذا كان تدريس تفسير كتاب الله لشبان الأزهريين من السنة الثالثة الثانوية يعد فى نظر صاحب الخطوة الثانية مما يستحق أن يهدم أساس الأزهر من أجله لأنه مما يجافى دنيا الناس فليكن صريحا وليقترح الإستعاضة عنه بكتابة فى الشعر الجاهلى لينشأ الأزهرى فى الأزهر كما نشأ صاحبه الخطوة الثانية فى باريس مؤمنا « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن تحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة »..

فإذا كان الذى لا يصلح للبقاء فى ثانويات الازهر وابتدائياته هو : « القرآن » وتفسيره، والحديث ومصطلحه والسيرة النبوية والفقه الإسلامى فليصرح بذلك مؤلف (فى الشعر الجاهلى) تصريحا لا احاجى فيه ولا الغاز وليقل أن هذا هو الذى يضيق به قوم وصفهم فى كتابة (على هامش السيرة) بأنهم يكبرون العقل ولا يثقون إلا به ولا يطمئنون إلا إليه وهم لذلك : (يضيقون بكثير من الأخبار والاحاديث - أى التى فى سيرة المصطفى ﷺ - التى لا يستسيغها العقل ولا يرضاها وهم يشكون ويلحون فى الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار.

أما لو كان المراد بالخطوة الثانية : أن يكون للأزهر نصيب فى تدريس هذه العلوم الكونية والمدينة فإن ذلك من تحصيل الحاصل لأن الأزهر قائم بذلك من عشرات السنين فلم يبق إذن مما يفارق به الأزهر دنيا الناس إلا ما زاد على ما فى الدنيا وهو هذا القرآن وتفسيره والحديث ومصطلحه وسيرة النبى وكبار الصحابة ثم هذا الفقه الإسلامى، فهل أثار الرجل عجاج هذه الفتنة لأجل الخلاص من هذه المواد. وسمعتهم يتساءلون عن هذه البذور التى زرعت فى تربتنا الجامعية منذ نحو ثلاثين سنة بشهد من صاحب الخطوة الثانية كما يشهد له بذلك كتابه فى الشعر الجاهلى وأعمدة الصحف ومحاضر مجلس النواب وبعض قرارات النيابة إلى أن انبتت تلك البذور رجالا صار منهم الآن مدرسون وأساتذة كالذى كان يمزح مع طلابه على حساب إيمانهم فيقول أنه سيعطى درجات إضافية فى الامتحان للذين يفطرون فى رمضان وكالذى يعتبر الآن حجة الفلسفة الوجودية فى مصر.

ويحاول طه حسين أن يرد على الصواعق التى صبها الأزهريون عليه فيقول : ما رأى الشيوخ فى أنهم يتهمون بالكيد للاسلام رجلا أبلى فى الذود عن الإسلام خيرا مما أبلوا واعلن اليهم الف مرة ومرة انه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يبلغه الشك ولا يجد إلى قلبه سبيلا، من الذى انبأ شيوخ الازهر بأنى سفير فوق العادة لفرنسا أنشر لها فى مصر وفى غيرها

كيدها للإسلام والمسلمين وأثبت سلطانها على البلاد الإسلامية التى تذيقها الوان البأس والعذاب .

أم تراهم قد تحسسوا وبثوا العيون والارصاد حتى علموا علم هذه السفارة التى تلقيتها من فرنسا لتنشر فى مصر وفى غير مصر كيدها للإسلام والمسلمين .

ولا تجد أبلغ من تلك النفثة الصارخة التى القاها طه حسين من وراء الوعى ذات مقال حتى قال :

« بعضهم يرانى ازهريا قد نشأت فى الأزهر وقد نشأت فى الأزهر ما فى ذلك شك » ولكن ما رأيهم فى أن الأزهريين قد لفظونى منذ زمن بعيد ، أقصونى عن الازهر حينا ما ، ثم ردونى اليه بعد ذلك فلما تقدمت لا متحانهم نهائيا وظننت انى سأظفر باجازته الاخيرة ردونى عن هذه الإجازة أعنف الرد فحمدت الله على السلامة وقنعت من الغنيمة بالإياب . أنا إذن أزهرى عند بعض الناس وغير أزهرى عند الأزهريين فأنا ساقط بين كرسيين كما يقول الفرنسيون . يرفضنى الأزهريون لأنهم لم يمنحونى إجازتى ويرفضنى المثقفون ثقافة أجنبية لأنى أزهرى لا أعرف من ثقافتهم إلا القشور ، والغريب أن كلمة القشور هذه قد كتبت على منذ أول الشباب فقد كان شيوخنا فى الأزهر يعيبون على طلب الأدب الذى كانوا يرونه قشوراً والتقصير فى طلب اللباب وهو العلم الأزهرى الخالص . كنت طالبا للقشور عند الأزهرين ، وأنا متعلق من الثقافات الأجنبية بقشورها عن المناضلين عن هذه الثقافات فانا صاحب القشور شابا وصاحب القشور شيخا ، وقد كتب على ألا أعرف من كل شىء إلا قشوره . وكذلك كنت دائما ضائعا يأبى الأزهر أن أكون أزهريا ويأبى غير الأزهريين إلا أن أكون أزهريا وتأبى الجامعة أن أكون جامعيا ويأبى غير الجامعيين من الأدباء أن أكون إلا جامعيا »

ونقول للدكتور طه صدقت والله ، وأجرى الله على لسانك هذه المرة كلمة الحق .



٣

طه حسين وزير المعارف

وتحقق للدكتور طه حسين ذلك الأمل الضخم الذى ظل يسعى اليه منذ عرف الحياة السياسية والجامعية فاصبح وزيراً من وزراء حكومة الوفد : وزيراً للمعارف (يناير ١٩٥٠) يقول كريم ثابت فى مذكراته : لما حمل حسين سرى (رئيس الديوان) إلى فاروق مشروع التشكيل الوزارى الذى سلمه اليه : مصطفى النحاس (باشا) رئيس حزب الوفد ، أخذ الملك فى مراجعته ولما بلغ اسم طه حسين : قال : مستحيل مستحيل قال فاروق : أنتم لا تعرفون خطورة هذا الرجل ، إنه الرئيس السرى للشيوعية فى مصر والحكومة نفسها لا تعرف ذلك ولكنى أؤكد لكم أن المعلومات التى عندى تثبت انه الرئيس الأعلى للحركة الشيوعية عندنا فمن المحال أن أوافق على أن يكون وزيراً للمعارف بالذات . مستحيل .

يقول كريم ثابت : وتدخلت لانقاذ الموقف (قلت) ان عدم تعيين طه حسين وزيراً لا يحل الاشكال لأن النحاس باشا سيعين رجلا آخر سيرشحه له طه حسين فيحركه من وراء الستار معتمدا على منزلته عند النحاس : فى حين أنه لو كان وزيرا لأمكننا مراقبة تصرفاته ومحاسبته عليها بوصفه رجلا مسئولا ولبعثه ذلك على الحذر والاحتياط على أن يقال للنحاس انه إذا ظهر بعد شهر ما يوجب إخراجه من الوزارة وافق على إخراجه دون خلق أزمة بسببه .

وفيما روى كريم ثابت أشار إلى ما قاله حسين سرى إذ ذاك . بينما عجزت عن اقناع فاروق بالعدول عن تعيين طه حسين وزيرا للمعارف نجح كريم ثابت بطريقته وقرنها بإشارة من يده وحركة من وجهه توهما بأن الطريقة التى لجأ اليها كريم ثابت لاقناع فاروق كانت حتما طريقة غير مشروعة أبت عفة حسين سرى أن يفصح عنها » هذا ما ذكره كريم ثابت فى مذاكراته التى نشرتها الجمهورية ٢٦ يوليه ١٩٥٢

وليس هناك شك فى أن اللقاء تام بين كريم ثابت وطه حسين حول هدف ما و ربما يربطهما اشتراكهما فى المحافل الماسونية وما تفرضه من تيسير الوسائط لوصول رجالها إلى الأماكن العالية فى الحكم وقد أشار كريم ثابت فى مذاكراته ان ما قاله الملك عن طه حسين ليس صحيحا وهو بالطبع ليس صحيحا فليس طه حسين رئيس الشيوعيين فى مصر ولكنه أخطر من

ذلك لأنه يعمل مع مخططات التغريب الواسعة النفوذ عبر الاستعمار والاستشراق والصهيونية وغيرها لأهداف أكبر.

وقد سارع طه حسين بإذاعة تصريحه عن ان التعليم كالماء والهواء حتى أطلق عليه وزير الماء والهواء. ولم يكن ذلك من صنع طه حسين ولكنه كان عملا سياسيا لحكومة الوفد التى كانت تريد أن تدعم مركزها فى نظر الجماهير، وكان كذلك من خططها القديمة منذ بدأت حركة الوفد وقبل أن يشترك فيها طه حسين بسنوات طويلة.

ولم يكن من رأى طه حسين شخصيا مثل هذا الاتجاه فإنه يسجل على نفسه مما ذكره فى المحاورة التى دارت بينه وبين اسماعيل القبانى عام ١٩٣٩ ونشرتها السياسة الأسبوعية فى عدد ٢٢ إبريل قوله:

التعليم العام ليس كالتعليم الأولى لا يستغنى عنه فرد، فالتعليم العام فرض كفاية لا فرض عين وإذا كان يكلف الدولة نفقات طائلة فليس من الحق أن نطالبها بتعميمه. نحن نعترف أن للدولة الحق فى فرض أجور الانتفاع بالتعليم العام بشرط أن تحمى الفقراء الأذكياء من عدم الإنتفاع به ولو كلفها ذلك أن ترهق المقتدرين بأجر التعليم.

الثانى أن التعليم العام مهما يكن حقا للناس جميعا فإن على الدولة أن لا تبيحه للناس جميعا بل تمنعه عن الذين تأبى ملكاتهم إساغة هذا النوع من التعليم والواجب على الدولة أن تبيح التعليم لكل قادر عليه وأن تلاحظه فى أثناء الدراسة أمستعد هو للإنتفاع بالتعليم. وقال: حين أعود إلى إطلاق التعليم العام أقيد هذه الحرية بقيدين: مقدرة الدولة على أجور التعليم وتحققها من إنتفاع الطلبة به».

ومعنى هذا كله أن طه حسين إنما يدعو إلى فتح أبواب التعليم «الأولى» فقط على مصراعيه أما التعليم العام فله دون ذلك محاذير.

ولذلك فإن الذين يرددون دون معرفة أن طه حسين دعا أن يكون التعليم كالماء والهواء هم مبالغون لأن الوزير هو جزء من حزبه وحكومته ورأيه المعلن هو رأى حزبه وحكومته وسنرى كيف فشل طه حسين من بعد فى تنفيذ هذا الوعد الخادع.

فقد كشفت الصحف الحزبية المعارضة للوفد بالأرقام مدى فساد خطة طه حسين وقد جاءت الوقائع خلال عمل طه حسين فى وزارة المعارف تؤكد ما يأتى:

أولا: ان طه حسين عمل فى قضية استقلال الجامعة التى كانت رأس ماله إبان عمله فى الجامعة فأفسدها تماما وسيطر على الجامعة من خلال عمله فى وزارة المعارف. وتحدى مديرى الجامعات وأثبتت واقعة معروفة أنه عارض مدير الجامعة الأستاذ كامل مرسى فى عرض

قرارات مجلس الجامعات على المجلس الأعلى للجامعات وكان هدفه من ذلك السيطرة على أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات حتى تكون مصائرهم متعلقة بإرادته ومشيئته لا بمشيئة مجلس الكليات أو مجالس الجامعات من وراء مديريها وقد بلغ التذمر أشده بين مديرى الجامعات وأعضاء هيئات التدريس نتيجة لذلك ولإصرار الوزير على التدخل فى كل شئون الجامعات كبيرها وصغيرها مما جعلهم يعتقدون أنهم أصبحوا أشبه بالمدارس الثانوية الخاضعة لإدارة الوزير المباشرة . كذلك فقد تذمر عمداء الكليات وأساتذتها من تعديل قانون اختيار العمداء وجعل سلطة اختيار العميد بيد الوزير وقالت الصحف إن طه حسين ١٩٢٢ ، ١٩٣٩ ليس هو معالى طه حسين وزير المعارف ١٩٥٠ ، ١٩٥١

ثانيا : أخذ على الدكتور طه حسين أنه سافر إلى أوربا ثلاث مرات خلال عشرين شهرا ، أمضى منها ستة أشهر فى رحلاته فى أوربا على نفقة الحكومة ، وأن ذلك كان إبان الموسم الدراسى وكان فى فترات الإمتحانات وقالت الصحف : عسى أن يتبين وزير المعارف أن المرتب الذى يتقاضاه ، والأمانة الملقاه على عاتقه وما جرى عليه العرف والعمل فى جميع بلاد الدنيا من أن وزير معارف أى دولة يجب أن يكون موجودا فى البلاد التى وكلت إليه إدارة معارفها .

ثالثا : فشل سياسة الماء والهواء التى بدأ بها عهده فى وزارة المعارف فإنه لما سئل كيف سيكون التعلم ميسرا على هذا النحو أجاب إجابته المشهورة : أن على وزير المال أن يمدنا بالمال وعلى وزير الأشغال أن يبنى لنا المعاهد أما نحن فسنعلم الشعب وقد طرح بين يدى الوزير ثلاثة ملايين ونصف مليون أكثر مما عليه الاعتماد فى السابق . وكانت النتيجة كما يلى :

تخلص الدكتور طه حسين من كبار رجال الوزارة (إسماعيل القبانى . شفيق غربال) وأسند الأعمال إلى بعض الموظفين غير الفنيين . وقد واجهتهم مسألة نقص المعلمين فاعتمدوا فيها على أسلوب مرتجل . وكانوا من المرتجلين أيضا فى مسألة تكديس التلاميذ فى الفصول . واهمل التوسع فى إنشاء معاهد المعلمين واعتمد على نقل مدرسى الإبتدائى إلى الثانوى ومعلمى الأولى إلى الإبتدائى ، وعين فى التعليم الأولى مدرسين من راسبى كفاءة التعليم الأولى . وكان بعض هؤلاء يعملون فى المدارس فى وظائف صغيرة .

وقد شنع خصوم الوفد على طه حسين بأنه حول الفراشين إلى معلمين ثم لما لم يجدوا معلمين دعوا إلى فصول ليلية لتعليم متوسطى التعليم أساليب التربية والتعليم فى أسابيع قليلة . ونشرت الصحف كثيراً من الإحصائيات التى تثبت عدم جدوى أسلوب طه حسين فقد أقيمت فى أحواش المدارس حجرات من طوبة واحدة وازدحم فيها الطلاب وارتفع عدد طلاب الفصول إرتفاعا حال دون قدرة المدارس على ضبط التلاميذ أو تعليمهم ، وظهرت نتائج الإمتحانات فسجلت أرقاما سيئة : التوجيهية مثلا ٣٪ (١٩٥١/٩/١٩) وعدد التلاميذ نقص ٣٪ عن العام

السابق ، والمدارس لم تزد مدرسة واحدة وقال طه حسين : خير لنا أن يجلس التلاميذ على الأرض . وأعلن فى خطبته الجامعة الحاجة إلى المال وإلى المعلمين ، وقال إن إعداد المعلمين يحتاج إلى معاهد (خطبته فى ١٩٥١/١٠/٦ الصحف)

رابعا : سجل طه حسين إنه استعان خلال العامين من تولية منصبه بالمنبر والقلم والسينما لنشر آرائه التى كان يروج لها قبل تولية الوزارة وأشارت الصحف المعارضة (الأساس ١٩٥١/٩/١٧) إلى أن طه حسين كان له تاريخ فى التحريض على الشيوعية تعرفه الرقابة وتعرفه وزارة الداخلية وتعرفه الصحف والمطابع التى كان يرسل إليها مقالاته وكتبه ، وقالت الأساس : قد كان مفهوما وقد أصبح طه حسين وزيراً أن يطوى فى صدره على الأقل نزعاته الهدامة وأن يقبل على العمل الذى ندبه له حزبه وهو تعليم الناس ولكن ما أن جلس طه حسين على كرسى الوزارة وأفاق من نشوة الفرح حتى عاوده داؤه القديم فإذا به يلق خطبا تظهر الغيرة على الشعب وتبطن التحريض الآثم الكربه . وقد كتب حامد جوده تحت عنوان (أيتها الدعوة السافرة إلى الشيوعية) مستشهدا بما قاله فى كتاب مستقبل الثقافة .

خامسا : كشفت قضية القذف التى أقامها على الأستاذ محمد صبيح مدير تحرير الأساس إن وزارة المعارف كانت قبل عهد الدكتور طه حسين لا تتعامل مع المؤلفين غير أن الدكتور فرض على لجان شراء كتب المكتبات التوقف عن شراء كتب الأستاذ العقاد .

وقالت جريدة الأساس ١٩٥٢/٥/٨ : قبل ربع قرن من الزمان وقف العقاد فى مجلس النواب يدافع عن طه حسين وسارت الأيام وإذا بطه حسين ينتقل بين معسكرات الأحزاب حتى أصبح محاسيا ثم وزيرا للمعارف وإذا وزارة المعارف فى عهد طه حسين تغلق أبوابها دون كتب العقاد التى لم يمض عام منذ سنين طويلة لم تقدم فيه وزارة المعارف من مؤلفات العقاد زاداً لطلابها ومكتبات مدارسها . (يراجع مقالات الاساس خلال عام ١٩٥١ بقلم الأستاذ محمد صبيح تحت عنوان (طه حسين بين عامين) وحول موقفه من الجامعة وهو وزير المعارف كتب الاستاذ نجيب البهبيتى تلميذ طه حسين القديم والاستاذ بالجامعة خطابا يكشف عن أسلوب عميد الأدب وزير الماء والهواء كما يقولون . قال (الأساس ١٩٥١/٦/٤) :

انى أعرفه معرفة وثيقة منذ اثنين وعشرين عاما بلوت فيها حلوه ومره ، وعرفت قدره معرفة لم يحملها إلى وهم ولا إيهام ، عرفت الرجل وعرفت مقدار علمه ان كان عالما ومقدار جامعيته إن زعم الناس إنه جامعى ومقدار معرفته أو نكره انعام من أحسن اليه وعرفت مقدار ما كان يشرئب إلى الشهره ويتحرق الى السلطان ومقدار ما كان يتعشق الثناء ومدى ما كان يفعل بنفسه نقلك له خبرا عن عدو أو صديق .

ويوجه كلامه إلى الدكتور بشر فارس فيقول : لقد نبذت صداقته فى سبيل استقلال الجامعة وعرفت أثرته وتهالكه على الاستعباد وكذلك لا زلت عند حسن ظنك به إنه « عالم » وهو غل

أرجو أن أحلك منه فأنت تتهمه بعلم اخترته كان أولى أن يسترشد به وما كنت أحب لك أن تذهب فى هذا مذهب المخدوعين من هؤلاء العامة الذين يأخذون علمهم عما تشيعه الصحافة فيهم ، وطه يا صديقى من القادرين جدا فى هذا ، فقد استطاع أن يحجر فى وقت ما على الصحف المصرية جميعا مناصرة له ومعارضة حتى إنى مع ما جاهدت فى مستهل العام الماضى لم أستطع أن أتصل بالناس معارضا اتجاهه فى تحويل انتخاب العميد إلى تعيين وفى محاربة ما سماه مجلس الجامعات الأعلى ليرضى عن طريقه شهوة التحكم فى أشخاص الجامعيين قبل أن يرمى به إلى شيء آخر . وقفت أحاربه فى ذلك فلم أجد صحيفة واحدة تقبل نشر كلمة واحدة لى إلا هذه الصحيفة (الاساس) فهذا الرجل استطاع أن يستغل السياسة وقدرة خاصة منه على الاكثار من الكتابة حتى اشتهر لكثرة ما كتب فى السياسة وتقلب فى الاحزاب بانه العالم ، ونحن فى عصر ديمقراطية الحكم ، يترجم الرجل فيه رواية فيعرف بين الناس بانه كمائى عظيم ، ويكتب شعرا فيشتهر بين الناس بالطب مثلا وهكذا فلا غرابة أن يشتهر طه حسين بين كثرة الناس بانه عالم .

ولكن الغرابة فى أن تجرفك أنت على أعرف من نفاذ نظرك هذه الشهرة وأنت رجل بعد هذا قرأت دون ريب اثارة وعرفت أن كتابه فى الشعر الجاهلى قد استعاره ثم رده مفكر إلى أصحابه وانه لم يكن يساوى نقيرا فى معيار الأبحاث العلمية ، وعرفت أن كتابة فى الأدب الجاهلى ليس الا تمطيطا لبعض ما قال فى الأول مخلوطا برغاء مملول يذهب فيه صاحبه اذ يحارب مدرسة المعلمين القديمة منهبه فى مقالاته السياسية أما بقية ما كتب من قصص ونقد فليس يدخل فى دائرة العلم وهو فى الأدب الخالص ، هذر مطول ولف ودوران لا تقبلها النفس اليوم فى عصر استغلال الوقت بعد أن مضى عصر الحواديت على الدكك فى الحارات . أما أسطورة جامعيته فاظنك الآن تحققتها وتحققها كثيرون ممن كانوا يخدعون فى الرجل دفاعنا عنه عام ١٩٣١ ما كنا ندافع عنه إلا دفاعا عن استقلال الجامعة وما كنت أظن يومئذ أنه كان يدافع عن سلطانه هو فى الجامعة الا بعد ما شهدته يحزم معه هذا الاستقلال الجامعى ويضعه تحت ابطه يوم خرج من الجامعة وخشى أن يحول بين هذا الاستقلال وبين أن يطلق يده فيها ، فطه كان يحمى كل يوم استبداده الشخصى فإن أستاذا ممن فوقه وإن كان مديرا أو وزيرا فمن دونه وهكذا تدور الدائرة . ولما رأى من يدافع عن استقلال الجامعة كشر عن أنيابه وأنذر إنه سيحبس عنها إعانة وزارة المعارف وغلا فراح يشتم الأمة التى أقامته من نفس هذا المقام ، وأحلته من دارها هذه المنزلة فوصف المصريين كلهم بالبطر .

إن البطر لا يكون الا بنعمة منعم ، فما هى النعمة التى أغدقتها على المصريين أهى المجانية وقد وعد بها الوفديون الأمة منذ مؤتمراتهم منذ عام ١٩٣٠ جئت أنت فقررتها صدفة كما جئت إلى الوزارة صدفة . إنى لاذكر فى حزن عميق إن هذا القول يقوله اليوم ذلك الرجل الذى كان يلتف فى الأزهر بحصيرة وينام فى حجرته ويلبس طاقيته المبرقشه ، ويعيش على التعريفة إذا

جاد بها عليه الشيخ أحمد أخوه الأكبر . هذا الرجل الذى ربته الدولة ورفعته إلى حيث يجلس اليوم قد تنكر لماضيه ونسى نفسه وخال طه القديم قد ذهب من ذاكرة الناس فلن يعود، فتعالى واستكبر، إن تكن نسيت هذا يا صديق فإن الناس لم ينسوه وأن أصدقائك لن ينسوه » .

ثم عاد الدكتور نجيب البهبى فوجه خطابا مفتوحا إلى صديقه طه حسين بعد نشر مقاله فأحاله الوزير إلى التحقيق : قال فى الأساس (١٩٥١/٦/١١) إن طلبك إحالتى على التحقيق لا يمنعك من الإعجاب ولا ريب عندى أنك الآن ترى مدرسة من غرس يدك تزهر إزهارا تأتى بالخير ، قرأت حديثك ورأيتك فيه تتهافت ولا تتماسك ، ورأيتك تنهب إلى إرضاء العامة قبل الخاصة ما أذعته فى الناس على أنه حديث لم يكن شيئا ، كان لغوا من لغو القول طابعه الأول « المغالطة » وتعلم أن المغالطة باب من أبواب المنطق هدفه الأول : الكسب .

قلت : « وأحب شىء الينا أن ننظر إلى الخطأ وأحب أن تكون بعض الصحف المؤيدة معارضة لنا فنحن فى حاجة إلى النقد أكثر مما نحن فى حاجة إلى الثناء » أنت تغالط يا صديق فليس يضيق صدر إنسان ضيق صدرك بالنقد ، و ليس يهيج النقد انسانا قدر ما يهيجك ، وبخاصة إذا خلت نفسك قادرا على العقوبة مبسوط اليد فى تحويل الوعيد إلى إيذاء توقعه بناقدك ، وآية ذلك يا صديق القديم إنك طلبت توقيع الجزاء الزاجر على وإجراء التحقيق معى لأن مقالى الماضى على تلطفه بك وحسن مداعبته لذكرياتك القديمة ، هذا المقال قد أوجعك وآلمك وهاج بنفسك وجدا ، والثانية : يا صديق نتائج العام الحالى شئت أن تقول إنها خير منها فى أى عام ، لقد افترضت من غير شك ، أنك تخاطب جماعة من الأغبياء البلهاء وإذا كنت بلغت إلى أن تساوى مع هذا كله نتائجك هذا العام بنتائج العام الماضى فى فضل هذا النظام .

ثم أشار إلى ما دعا اليه طه حسين من الغاء الامتحانات فى المدارس وإطلاق يد المدرس فى تلاميذه فقال : أيها الرجل اتق الله فى قومك فإن إهدار حياة أجيال من أمة ترجو عمل كل فرد منها تثقل به الضمائر وتتهاوى له القلوب والأحلام . اقلع عن هذه الفكرة فإنها خطرة خطرة شديدة الخطر » .

وهكذا نجد طه حسين وقد ألغى استقلال الجامعة الذى كان يدعو اليه وفرض إرادته عليها ، وفشل فى تحقيق جعل التعليم كالماء والهواء وغلبه هواه ، واندفع إلى تحقيق أغراضه ومطامع التغريبين من وراءه فقد ذهب إلى بريطانيا وأقر الرابطة بين الاستعمار والتعليم وحاول أن يوازن بين النفوذ الفرنسى فى التعليم وبين السلطان السياسى البريطانى وسار بين الخطين فارضاهما على حساب البلاد ، وحصل من بريطانيا على نيشانات ودكتوراه ! وفى مصر وقف وقفته الخطيرة فى صف معاهد التبشير ومدارس الإرساليات سواء الداخلية منها أو الخارجية

على نحو وصف فيه بأنه يوالى عقائد وعهود وقد جرت إشاعات حول حملة أختامه وإثارهم فى رفع بعض شأن العاملين فى وزارة المعارف وخاصة أهليهم وقد أشارت الأساس إلى هذا فى عدد ١٩٥١/٩/١٩ حيث قالت « لقد وصل الأمر بهؤلاء الصغار أن ظهرت حولهم إشاعات كثيرة مؤداها أنهم كانوا يعبثون بخاتم الوزير ومن أشياء من هذا النوع رفعت إليه فضاق بها ولم يحسمها ».

وفى لندن القى المستشرق هاملتون جب بحثا مطولا عن التعليم فى الشرق الأوسط (فى مؤتمر شئون الشرق الأوسط) تناول فيه مشكلة التعلم فى مصر واتجاهات طه حسين وقد وصفه بانه صديقه الخاص ووصف طريقته التعليمية بأنها لا تقوم على أسس علمية صحيحة وأن تكن أقرب إلى فهم الجماهير. وقد تعرض المستشرق الكبير لسيل من الأسئلة والمناقشات الحارة حول رأيه فى خطط طه حسين العلمية فى نشر التعليم ولكنه أصر على نقده واصفا طريقة وزير معارف مصر بأنها تهديم سياسى لا عمل علمى، وبعد انتهاء المناقشات توجه المستشرق بالرجاء إلى مستمعيه بألا يخرج كلامه من القاعة لأن وزير المعارف صديقه الشخصى والمعروف أن الدكتور طه حسين من أشهر المعجبين بالمستشرق جب وأنه يؤمن بأبحاثه فى العلوم الشرقية، يقول الأستاذ عبد المنعم الصاوى فى مقاله « جامعة لندن تتهم طه حسين بالتهريج » (مجلة روز اليوسف ١٩٥٢/٤/١٠) قد كان الإيمان بالرجل أحد الأسباب الهامة التى جعلت له مكانته فى الأوساط العلمية الشرقية ودفعت به لعضوية المجمع اللغوى وقد رد جب على هذه المجادلات بأنه هو الذى رشح طه حسين لنيل الدكتوراه الفخرية من جامعة اكسفورد وجب هو أحد المستشارين المعروفين لوزارة الخارجية البريطانية فى الشرقين الأوسط والأقصى.

ومما يذكر أن طه حسين سافر إلى انجلترا فى رحلة بدأها بزيارة أسبانيا وانجلترا (من أكتوبر إلى ديسمبر) وهذه هى التى أحرز فيها الدكتوراه الفخرية من اكسفورد، وعندنا ان رأى (جب) ينبعث أساسا من معرفته ان أمانة طه حسين لفرنسا أكثر من أمانته لبريطانيا ولذلك فقد أكرموه فى بريطانيا حتى يكسبوه إلى صفهم.

* * *

الفصل الثالث

فى الصحافة والسياسة والحزبية

كان اتصال طه حسين بالصحافة والسياسة والعمل مع حزب الأحرار الدستوريين أولا ثم مع حزب الاتحاد ثانيا ثم مع حزب الوفد بعد ذلك، كل هذا بمثابة الإطار الخارجى لدعوته وعمله الذى كان يمارسه فى الجامعة وزارة المعارف والمظلة الواقية لآرائه التى أذاعها فى الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى، وفى حديث الأربعاء، وفى مستقبل الثقافة، وهى أراء تتصل بالدين والأمة والحضارة واللغة والأخلاق والقيم والتاريخ وكلها تستهدف صهر آراء الاستشراق والتغريب فى بوتقة الفكر الاسلامى والثقافة العربية عن طريق فرضها على الشباب فى الجامعات والمعاهد والمدارس ثم عن طريق الصحافة والتأليف. ومن هنا نفهم أن صلة طه حسين بالصحافة السياسة انما كانت بمثابة الاحتماء بمؤسسة تدفع عنه الخطر، وقد دفع عنه حزب الأحرار الدستوريين خطر كتاب الشعر الجاهلى ودفع عنه الوفد مخاطر أرائه كلها بعد ذلك. وكان يجد فى حماية هذا الحزب الشعبى الواسع النفوذ قوة يواجه بها خصومه ويمكن بها لنفسه تحت اسم الدعوة إلى الحضارة والعلم والمدينة.

لقد اتصل طه حسين بحزب الأمة قبل سفره إلى أوروبا وكان يتأرجح بينه وبين الحزب الوطنى ولكن ما إن هاجر الشيخ عبد العزيز جاويش عام ١٩١١ حتى استقر نهائيا فى أحضان الحزب الذى أنشأه كرومر وحمل لطفى السيد لواء الدعوة فيه إلى هدم الجامعة الإسلامية والعروبة والنظام الإسلامى والدفاع عن النظام الديمقراطى الغربى وتعليم أبناء الأغنياء وقبول التفاهم مع الاحتلال البريطانى والتعامل معه على النحو الذى كان يؤمن به زعماء الاقطاع الذين كونهم الاستعمار والذين تشكلوا بعد الحرب العالمية فى حزب الأحرار الدستورين ولاء للإنجليز ومحاربة للحركة الوطنية وقد جمع الحزب دعاة الفكر الحر أمثال محمود عزمى، على عبد الرازق، طه حسين فكانوا ممن يحتقرون آمال الأمة فى الحرية والاستقلال وهم من دعاة التغريب واتباع الغزو الثقافى وقد حملت جريدة السياسة منذ صدورها فى أواخر عام ١٩٢٢ لواء هذه القضية إلى أن غير الدكتور هيكل اسلوبه عام ١٩٣٢ عندما ألف كتاب حياة محمد وهنا وقع الخلاف بينه وبين طه حسين ولتستمع إلى البير برزان سكرتير طه حسين يتحدث عن عمل طه حسين فى هذه الفترة:

بدأت فى مصر حركة عنيفة عقب رجوع المغفور له سعد باشا من أوروبا إذ كانت الشخصية البارزة على رأس هذه الحركة هى عدلى باشا وكنا فى سنة ١٩٢٢ ولم يكن المقصود بهذه الحركة مناوأة سعد باشا كما زعم كثيرون ولا محاربة شخصه وإنما اختلاف الرأى على الطريقة التى يجب أن تتبع ، كان السبب فى إيجاد الحزب الجديد الذى سمى إذ ذاك حزب عدلى ، كما وأن الحزب الأول كان يسمى حزب سعد وكثيرا ما كنا نسمع على أفواه البعض كلمة العدليين والسعديين . فحزب عدلى كان إذن فى بادىء تكوينه وكان يلزمه الأعضاء والاتباع كما كان يلزمه اللجان والفروع وجريدة . وكان مركز الحزب والجريدة بشارع المبتديان وقد خوطب الدكتور طه فى موضوع تحرير الجريدة وقبل العرض وبدأ العمل . رئيس تحرير الجريدة الأستاذ هيكل ولكن للحزب مبادىء معينة يجب التعبير والدفاع عنها وكان عامل الاتصال بين الحزب والجريدة الدكتور حافظ عفيفى . كان يجتمع برئيس التحرير والدكتور طه فينصرف إلى مكتبه وتبدأ الكتابة فى الموضوع الذى ثم الاتفاق عليه فكان عامل الاتصال يتلق الوحى من زعماء الحزب الجديد وأقطابه ثم ينفخ هذا الوحى فى صدر كل من المحررين العظيمين أما الذى يتطلب مرونة ونعومة وهدوءا فكان يعطى للدكتور هيكل فهذا ما يلائم مزاجه ويتفق وقلمه ، والموضوع الذى تلزمه الشدة والعنف والتهكم فكان يطلب من الدكتور طه أن يكتب فيه . أكثر مقالات الدكتور كانت توجه إلى سعد باشا فكانت مقالات مكتوبة من نار عنوانها يكفى للدلالة على الشدة والعنف اذكر منها : (طاغية) . (دجالون) . (الأقطاب وأنصاف الأقطاب) و (الأبطال وأنصاف الأبطال) .

أعيد الجملة الأولى فيسمعها ويعيد هو الثانية على حتى ينتهى المقال ، ولكن لابد من عنوان لهذه المقالة . وكثيرا ما كنت أسأله عما إذا كانت هذه المقالة أو تلك مكتوبة عن عقيدة أو لمجرد أداء عمل ، وكان بيننا نوع من المداعبة فكان يلفتنى إلى أن هذا السؤال فيه كثير من الجرأة ومساس بشخصه وبحزبه وانه مهما كان الأمر فلا يقبل بأى حال أن يكتب كلمة واحدة لا تعبر عن رأى لم يكن مقتنعا به كل الاقتناع ، فيعجب بها كثيرون غير أن الوحى الذى كان يهبط على محررى هذه الجريدة لم يكن مصدره الحزب وحده ، بل كان ينزل على الدكتور طه وحى آخر من مصدر آخر فى ظروف خاصة ، : اتصال الدكتور طه بالمغفور له عبد الخالق ثروت ، أيام كان رئيسا للوزارة فيتقابل الرجلان مقابلة لا يشعر بها أحد وذلك فى منزل ثروت باشا وفى ساعة يخلو فيها المنزل من الناس ثم يشير إلى بالجلوس فى غرفة أنيقة فاخرة ثم يمضى مع الدكتور حيث لا أعلم ولم يمض على انتظارى أكثر من ساعة حتى يقبل الباشا ومعه الدكتور وتمضى لحظة ونحن فى سكوت تام والدكتور غارق فى تفكير عميق وعلى محياه علائم خاصة تدل على أنه متأثر ثم يفاجئنى الدكتور بكلمات فيقول لى إن المقابلة كانت لمسألة خطيرة ولا أريد أن يعرفها أحد . ثم يدخل جريدة السياسة وغرفته ، ويطلب إلى أن أقفل الباب ثم يبدأ بالكتاب دون مقابلة أحد مهما كان والكتابة فى موضوع خطير جدا منه تلميح إلى مسألة

سياسية دقيقة أو جهات عالية . اذكر أت ثروت كان فى ذلك الوقت منهمكا فى مسألة تصريح ٢٨ فبراير ، هذا التصريح الذى اتخذ بعد صدوره أساسا للسياسة الانجليزية فى مصر .

وكانت كتاباته بعد أن تنشر يعجب بها كثيرون ويسخط عليها كثيرون لما فيها من خطورة ولا يدرى أحد من أين استق الدكتور معلوماته التى نشرها ويظل هذا الأمر مكتوما حتى على أقرب الناس اليه .

وقد دعانى الدكتور يوما لعمل لم آلفة من أعماله اليومية العادية من قبل فابتدأ على كلاما لا هو موضوع مقال ولا هو موضوع درس ، آملى على كلاما طويلا أوله الحركة الوطنية ومقدماتها وعقباتها وشخصياتها وما وصلت إليه إلى الوقت الحاضر الذى كنا فيه (أكتوبر ١٩٢٢) فاعتقدت أنه يؤلف كتابا تاريخيا يتناول هذه الحركة ولكنه على غير ما يجب أن يذكر المؤرخ فى كتاب تاريخ فالمؤلف يجتهد أن يكون مع الحق والواقع ليس غير ، محايدا كما يقولون ولكن كتاب الدكتور طه فيه مطاعن على بعض الأعمال والأشخاص فى مصر ففكرت أن يكون هذا العمل مذكرات يحفظها الدكتور للمستقبل حتى يأتى أوان تحرير هذا الكتاب المرغوب وربما كان لجيل غير جيلنا ، استمر هذا العمل يوما كاملا وبعض يوم ، وملأنا صفحات لا تقل عن ثلاثين من الحجم الكبير وكان أسلوب الكتابة من غير المألوف عند الدكتور طه وهو أسلوب أقرب إلى أسلوب الخطابة منه إلى أسلوب المقالات ، ومما زاد فى حيرتى أن الدكتور طلب إلى أن أقوم بنسخ هذا الكتاب على ورق جيد وخط واضح ففعلت ثم أخذ منى الأصل والمنسوخ على غير عادته، وانتهى هذا العمل عند هذا الحد ولم يكد يمضى أسبوع واحد على هذه المسألة حتى أعلن حزب الأحرار الدستوريين عن اجتماع جديد يخطب فيه محمد محمود باشا وسمعت أحد الموجودين يقول إن الخطبة ستكون هامة فيها من الفضائح السياسية ما تصفر له وجوه وتشرق وجوه أخرى وسمعت أن دولة الخطيب سينبىء السامعين بخفايا السياسة مما يحدث أزمة تهتز لها مصر وسمعت كثيرا من هذا الكلام وفى الواقع قد لاحظت على الحاضرين اهتماما وأشدهم اهتماما هم شيوخ الأزهر فما حانت الساعة الرابعة حتى أقبل الباشا فاعتلى منبر الخطابه فساد المكان سكون عميق . أما الخطبة فكانت فى نظر الدكتور طه وفى نظرى أحسن ما سمعنا من الخطب لأنها هى الخطبة التى (أملاها الدكتور على بالحرف) وما كنت أعرف مصيرها حتى سمعتها من فم دولة محمد باشا محمود » (ا . هـ جريدة الانذار ـ ٢١ أكتوبر ١٩٣٤) ذلك هو طه حسين فى عهده الأول : تابعا للاحرار الدستوريين يتلق عنهم الوحى ويكتب لهم الخطب احيانا . وقد أشارت الصحف إلى مدى آثار هذه العلاقة فى الأدب والفكر تقول جريدة الشعب ١٩٣٢/١١/١ . ومما لاريب فيه ان الدكتور طه حسين هو أحسن ألسنة دولة محمد محمود باشا إنما جاء ينال من شوقى بعد مماته وينسب إلى حافظ بعد مماته ما نسبه إليه ليشنق حقد الباشا على شوقى ، لأن حافظاً رحمه الله لم يستطع بعد أن وضع دولته تحت تصرفه وماله وما يملك ليهدم شوقى ، فلم يشف حقد الباشا عليه ولم يطفىء غليله ، ولكن

هل يستطيع طه حسين أن يؤدى المهمة التى عجز صاحبه حافظ بشهادته عليه أن يؤديها ؟ وهل فى مقدور هذا الرجل أن ينال من صخرة شوق أكبر من أن يتحطم قرنه دون النيل منها ؟ » .

* * *

وفى هذه المرحلة كانت مهمة طه حسين شتم سعد زغلول والسخرية به كما ذكر سكرتيره الأول .

ضعاف : « سعد وأصحابه ضعاف يخافون الحق ويفزعون منه ويذعرون من النقد ويضطربون له ، ضعاف لا يستطيعون أن ينهضوا للحجة بالحجة ولا يستطيعون أن يقرعوا الدليل بالدليل » .

بغاة : « واقسم لقد بغى سعد وأصحابه على اخوانهم فاسرفوا فى البغى واقسم لقد طغى سعد وأصحابه على اخوانهم فاسرفوا الطغيان واقسم لقد حق على كل مصرى أن ينهض لهذه الطائفة الباغية الطاغية فيردها إلى طورها وينزلها منزلتها » .

ثم ترك جريدة السياسة وحزب الأحرار إلى جريدة حزب الاتحاد . هذا الحزب الذى انشأه الملك فؤاد وفى العدد الأول من جريدة الاتحاد لسان حال حزب الاتحاد (١١ يناير ١٩١٥) يقول طه حسين : مساكين سعد وأصحابه لأنهم يدورون فى دائرة عرفها الناس وأصبحوا لا يخفى عليهم من أمرها شىء . مساكين لأنهم لا يعرضون لفن من فنون الحيلة ألا سمعوا الناس يصيحون بهم من كل وجه : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . وأمر سعد لا يقف عند هذا الحد فهو ذليل ولكنه متكبر هو يلجأ إلى العرش ولكنه يناهض العرش ، هو يستوفد الناس من الأقاليم لا لينهبوا إلى القصر بل إلى داره هو . ان أمر سعد لمنكر وان فيه لا سراراً ودخائل يسوء سعد أن تكشف . وفى مقال آخر : نعم يلعب بكل شىء . يلعب بآرائه وعقائده ، يلعب بانصاره وسامعيه . يلعب بنفسه أيضاً ، يكفى أن تقرأ هذا الكلام الذى يلقيه سعد على الناس كل يوم وتنشره صحفه فترى ان الرجل فارغ البال يلعب بالناس وبنفسه وآرائه .

وعرض لمصطفى النحاس الذى أسلم نفسه إليه من بعد أن أصبح رئيسا للوفد يقول عنه فى ٢ مارس ١٩٢٥ « إنَّ لمصطفى النحاس باشا نوعاً من الفهم وضرباً من السيرة لا تستطيع أن تفهم كيف يمكن أن يضاف إلى رجل كان قاضيا ووزيرا وهو الآن محام وهو من الذين يشتغلون بالسياسة والسياسة العليا .

ثم لم يلبث طه حسين أن ترك حزب الاتحاد وعاد إلى الأحرار الدستوريين فأقام معهم حتى تركهم بعد ذلك إلى الوفد ففى صدر كوكب الشرق فى ٨ مارس ١٩٣٣ كتب حافظ عوض مقاله (طه حسين : المامه صديق عليم) قال : حدث سياسى حقا قمين بأن نحفل له أيما إحفال وخليق بأن نؤمن به لجد خطورته وبليغ أثره فى الصحافة المصرية وذلك أن طه حسين يشترك

بقلمه الفياض وإيمانه الفياض وعقله الفياض فى الصحافة المصرية ، فى السياسة المصرية ، فى الأزمة المصرية الحالية » .

كتب هذا وأكثر منه حافظ عوض فى جريدة كوكب الشرق الذى حمل وحملت على طه حسين حملات قاسية إبان معركة الشعر الجاهلى (راجع كتابينا : المعارك الأدبية والصحافة السياسية فى مصر) وكتب طه حسين أول مقالاته فى ٩ مارس ١٩٣٣ تحت عنوان « عهد » قال :

وأى شيء يستطيع العاملون أن يقدموه إلى مصر فى هذه الأيام التى قصت فيها الأجنحة وشدت فيها ألسنة فلا تقول إلا بحساب : ليس الوفد اسماً ولا لفظاً إنما الوفد قوة حقيقية قائمة يستطيع كل إنسان أن ينظر إليها وأن يمتحنها وأن يحقق فيها النظر ويلح عليها بالامتحان . الخ .

وقال رئيس الوفد مصطفى النحاس فى تصريح له : إنى لمغتبط باشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين فى تحرير كوكب الشرق على المبدأ الوفدى الذى دلت الحوادث على أنه مبدأ الحق ودين الأمة الذى قامت عليه نهضتنا نحو غايتها السياسية فى الحرية والاستقلال . وقالت جريدة كوكب الشرق أن طه حسين تحدث فى حفل اقيم له فى دار محمود بسيونى عضو الوفد ونقيب المحامين (الصحف ١٤ مارس ١٩٣٣) بمناسبة رئاسة تحرير كوكب الشرق عبر فيها عن إحساساته العميقة نحو الوفد المصرى والنحاس باشا وشعوره بالغبطة وتحدث فى بلاغه مؤثرة عن مابثه الوفد والرئيس الجليل من عطف عليه منذ ترك الجامعة » .

ثم ما لبث أن كتب مقاله المشهور عن سعد زغلول بعنوان : « عظيم » بعد أن نشر عام ١٩٢٣ أكثر من اربعين مقالا فى ذم هذا الرجل تحت عناوين مختلفة خلال فترة قيامه برئاسة الحكومة فى صحيفة السياسة وفى الاتحاد من مثل ما نقلت ، قال : رحم الله سعداً ، لقد أيقظ مصر ثم عاهدها على أنه سيحول بينها وبين النوم عن الحق ولقد وفى لها بعهده حيا وهو يوفى لها بوعهده ميتا ، ولقد جعل نفسه وجعل أمته غصة للمستعمرين لا يرأون منها إلا أن يعترفوا بالحق لأصحاب الحق ، ويؤمنوا بالاستقلال لهؤلاء الذين أقسموا وبروا ان لن يرضوا إلا بالاستقلال .

ولقد واجه طه حسين بعد ذلك خلافاً فى الرأى مع الأحرار الدستوريين وجريدة السياسة فى مسائل كثيرة وتحول فى موقفه فقال لهيكل رئيس تحرير السياسة وصديقه القديم : إذا لم تصمت فسأفشى أسرار الأحرار الدستوريين .

وقالت الصحف ان طه حسين أمضى سنوات طويلة يشتم الوفد ويقول انه يزدريه ويحتقره فإذا به يتحول وفدياً يشتم خصومه .

وقالت جريدة الشعب . سؤال لابد منه انه كان بين الدكتور طه وصاحب الكوكب خلاف فى الرأى وخلاف فى المذهب وكان يهزأ بصاحبه ويسخر منه حتى كان صاحب الكوكب إمعانا فى هذا وذاك لا يدعو الدكتور طه الذى يشيد الآن بمناقبه إلا بالشيخ بقدونس والشيخ سلاطه ، وكان هذا لا يجد فى السخرية أبلغ من اهماله واغفاله ، لأنه يرى نفسه أكبر من أن يتدلى إلى مجاراته فهل هوى الدكتور إلى تيارات الكوكب وصاحبه وطاب له ذلك الهوى ولذ له الانحدار أو نرى الكوكب صعد إلى حيث كان يرى الدكتور لنفسه ولرأيه ومنهبه .

وقال : لقد حارب الدكتور طه الوفد لما كان الوفد وفداً واليوم يحارب تحت لوائه بعد أن أصبح عصابة فهنيئا له هذا الموقف (٨ ، ١٦ مارس ١٩٢٣) .

وقالت جريدة الاتحاد : استقبل الدكتور طه عهده الوفدى الجديد بمقال فى جريدة كوكب الشرق عاهد فيه قراءه أنه سيكون عند ظنهم فيه من الصراحة والجهر بالحق . ونحن نعاهد الدكتور طه على أننا لن نرى فيما يكتبه فى عهده الوفدى إلا أنه رجل موتور ،يريد أن يشفى غيظه وينفث سموم أحقاده ، إلا أنه طالب قوت يلتمسه فى الجامعة فاذا استعصى عليه فليطمع فى مناصرة أصحابه الدستوريين ، فان لم يحدث ذلك عندهم فلا بأس أن ينضم إلى صفوف خصومهم ولا بأس أن يكون وفديا اسماً ولحماً ودماً وأن يكون ذنباً للنحاس باشا ومجاهده الكبير ولن نسأل أنفسنا كيف يستطيع الدكتور أن يحلل اليوم ما حرمه بالأمس ، وكيف يجعل الأبيض أسود ؟ ، الحر الدستورى سابقا ، الوفدى الصميم فى الآونة الحاضرة ، وزير المعارف الذى كبح جماح الدكتور طه ومنعه من البقاء فى الجامعة ليدعو إلى ما يسميه تجديداً وليشكك الناشئين فيما ذكره القرآن الكريم ، ولا نطيل جدال الدكتور طه فى معنى الكرامة وتعريف حدودها وأوضاعها ، ذلك أن للدكتور ماضيا يكرهنا أن نقف فى حديثه موقف الحيطة والحذر ، وبحسبنا من هذا الماضى أن نذكره بأنه كان يتقاضى مرتبه من الجامعة وهو يقول أنه مسلم يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ولكنه لم ير مما تأباه الكرامة أن يذيع بين طلبة الجامعة أن قصة إبراهيم وإسماعيل من القصص الموضوعة . تلك صور عملية من صور الكرامة . وثمة صورة أخرى لا علاقة لها بالجامعة ولا بالتعليم ، وإنما علاقتها بالصحافة فقد كان الدكتور كاتباً من غلاة الأحرار الدستوريين ثم بدا له وجه النفع فى أن يكون كاتباً اتحاديا ، وليس إلى هنا تنتهى كرامات الدكتور فهو برغم التشيع للأحرار الدستوريين قد رضى أن يأجره الوفديون على مابين الفريقين من خلاف بل يرضى أن يكتم الطعنة ، كما صوبها إليه النحاس باشا فى خطابه ولم ير غضاضة فى أن يكون كاتبا على مبدأ الوفد فإن صح أن للكرامة مراتب مختلفة فهل يقول لنا الدكتور طه أين موضع هذا كله من الكرامة (١٩٢٣/٣/١١) .

وقالت : تحت عنوان احساساته العميقة نحو الوفد ورئيسه : أى احساسات عميقه ، أهى التى جعلته يمضى الشطر الأكبر من حياته وهو يشنع على الوفد والوفدين أشنع الصفات وأبشع النعوت أم هى الإحساسات مقالات (كذابون . منافقون . أفاكون . دجالون) أم هى

الاحساسات العملية التى حملت سعد باشا على أن يجعل من فصله من الجامعه ووجوب محاكمته مسألة رئيسية لولا حكمة رشدى باشا وتدخله لأودت بائتلاف ١٩٢٧ . إذا كان الدكتور لم يبصر شفاه سامعيه وهى تفتر عن ابتسامة السخرية عندما تكلم عن احساساته العميقة نحو الوفد ورئيسه الجليل فهل لم يدرك أن هؤلاء السامعين سخروا منه وهزوءا به وتساءلوا : ما هذه الكرامة المنتحرة ؟ » .

وتحدث الدكتور محمد غلاب فى مجلة النهضة الفكرية (١٥ مايو ١٩٣٢) عن تكون الدكتور طه السياسى وتقلبه بين الأحزاب المصرية من حر دستورى إلى اتحادى ثم عودته إلى الدستوريين ثم قفزه إلى الوفديين : ان ماضيك يا دكتور أشبه شىء بشعور غوانى باريس التى تعطيه السيدة فى كل يوم لون الفستان الذى تلبسه . أقول : لو أن الشبان الناشئين تأملوا فى كل هذا ورجعوا إلى ما كتبه الدكتور طه فى جريدة السياسة ، تشهيراً بسعد زغلول حين كان الدكتور دستوريا وما طعن به عليه ورفع به من قدر صدق باشا فى جريدة الاتحاد حين كان الدكتور اتحادياً وما يكتبه اليوم فى جريدة الكوكب بعد أن أصبح وفدياً ، لو تأمل الشبان فى كل هذا لقذفوا الصحف على الأرض وداسوها بأقدام ثائرة مهتاجة غيورة على الشرف والنزاهة » .

ولم يلبث طه حسين فى عهده الوفدى أن كشف عن آهوائه وأهدافه فكان موقفه المؤسف من مقاومة حركة التبشير التى قامت بها الارساليات التعليمية الأجنبية فى مصر وتوجهت همة الصحف وجريدة السياسة فى مقدمتها إلى الحملة المتوالية على هذا الاتجاه الخطير أما طه حسين فقد صمت صمتاً تاماً ، وانتهز فرصة حادث فتاة تدعى نظلة غنيم فقال كلمته المسمومة « من المحقق أن الإسلام لن يضعف إذا خرجت منه نظله غنيم وان المسيحية لن تقوى إذا دخلت فيها نظلة غنيم » .

ومن هنا نجد أن طه حسين كان يتخذ من الأحزاب أوعية ووسائل ومظلات واقية لإذاعة آرائه وأفكاره محميا من ضربات القوى المتيقظة لسمومه . ولقد ارتبطت مرحلة الوفد السياسية فى حياة طه حسين الفكرية بالكتابة عن الإسلام من خلال هامش السيرة . ولكن ماذا كان هدفه ؟ لقد كان يرى حركة اليقظة الإسلامية التى تتحدث عن تطبيق الشريعة الإسلامية وأن الإسلام دين ودولة فكان يعمل على أن يبث فى الناس أن الانسان دين روحى فقط . وهكذا اتخذ من حائط الوفد حماية للعودةبقوة إلى الحديث عن الإسلام بعد أن قطع عنها بعد الشعر الجاهلى متهما بأنه أحد خصوم الإسلام . ولا شك أن التحول إلى الوفد وكتابة هامش السيرة إنما كانا بمثابة خطوة جديدة لكسب ثقة الأزهر والمسلمين وذلك ليتحقق عن طريقه أمر خطير .

ولم تكد تمر أيام حتى تحدث طه حسين عما كان يسره أو يكتبه فى خارج مصر ، تحدث فى أسف عن أن الدستور المصرى به مادة عن أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام وقد تحدث عنها

فى اشمئزاز عجيب قال فى كوكب الشرق ١٢ اغسطس ١٩٣٣ « لم أكن فى اللجنة التى وضعت الدستور القديم ولم أكن بين الذين وضعوا الدستور الجديد ولم يستشرنى أولئك وهؤلاء فى هذا النص الذى اشتمل عليه الدستوران جميعاً والذى يعلن أن للدولة المصرية دينا رسميا هو الإسلام ولو قد استشارنى أولئك أو هؤلاء لطلبت إليهم أن يتدبروا وأن يتفكروا قبل أن يضعوا هذا النص فى الدستور » .

وحين نقارن بين موقف حافظ عوض فى نفس الصحيفة كوكب الشرق بين عام ١٩٣٣ وبين عام ١٩٢٦ ندهش. هذا حافظ عوض يقول عن طه حسين :

ماهو عذر الشيخ طه حسين الذى يقول أنه مؤمن بالله واليوم الآخر وأن الإسلام دينه فى الثورة التى يحاول إضرام نارها ضد التعليم الدينى فى بلد نص الدستور ان دين حكومته الإسلام ، هل مجرد اعترافه بالله والرسول واليوم الآخر ، عاصم له من الاشتباه فى مقاصده كلما هب لمحاربة دين الله . إذا شئت أن تعرف إلى أى مدى أسرف الشيخ طه حسين فى الحملة على الدين ورجاله فاعلم أنه وصف الشيوخ جميعا بلا استثناء بالجمود وحث على استئصال هذا الجمود ووقاية الأجيال الحاضرة والمقبلة من شره ، ثم يريدنا الشيخ طه بعد هذا كله أن نعتقد أنه متدين وأنه مسلم ولو كان الشيخ طه حسين مسلماً حقا كما يدعى لماسوغ لنفسه أن يقول بأن الدين عقبة كأداء فى طريق العلم وليس بدعا أن نرى هذا الشيخ يستأنف الحملة على الدين ورجاله بعد أن شن على الدين الغارة فى كتابه فى الشعر الجاهلى » (كوكب الشرق ١٩ يوليو ١٩٢٦)

* * *

أما موقف طه حسين من سعد زغلول فقد كان طه حسين مدينا لسعد زغلول قبل سفره إلى باريس « دينا ماديا » وقد أشار إلى ذلك فى مذكراته وأنه ذهب ليقابله عندما وصل إليها ليسدد دينه ، ومع ذلك فقد حمل عليه تلك الحملات القاسية ، ثم عاد فاعترف بعظمته بعد أن أصبح من أنصار الوفد .

وقد عاش طه حسين حياته كلها هكذا ينتقل من رأى إلى رأى ، وعندما دخل إلى الوفد ، كان العقاد من كبار كتابه فأراد أن يسترضيه فأهدى إليه امارة الشعر ، بعد أن كان قد أهداها مرة إلى الزهاوى فى بغداد ، ثم أعادها بعد ذلك إلى مطران ثم عاد طه حسين فأعلن انه لم يهد امارة الشعر إلى العقاد (راجع كتابنا المعارك الأدبية) .

وعندما اتجه طه حسين إلى الوفد لم يلبث أن هاجم جريدة السياسة وحزب الأحرار الدستوريين فكتب فى ١٥ مايو ١٩٣٣ يقول : كان المعقول أن تسلك السياسة مسلك الأهرام فتعرف للوفد بلاءه « وتؤكد كما أكدت الأهرام أن الوفد لم يكن يستطيع بحال من الأحوال أن

ينزل على ما يريد الأنجليز . أما ألا يكون الوفد قد كسب هذه الأشياء فمن الحق على السياسة أن تبين ذلك للوفد من غير غضب ولا سخط ، ألاتوافقنى السياسة أنها تبحث عن خصومة فى غير إبانها وتلتمس خلافا لم يأن له الوقت بعد ، ألا توافقنى السياسة على أن الخير فى أن تنتظر حتى يكون لهذه الخصومة معنى وحتى يكون من ورائها نفع للأمة أو لبعض الأحزاب على أقل تقدير .

ثم كتب يوم ١٦ مايو ١٩٣٣ فاتهم السياسة بالتواء طرق التفكير فيها وإساءة الظن بعقول قرائها قال : إذا التوت على الناس طرق التفكير واضطرب من حولهم الجو فهم يغالطون ويتورطون فى السفسطة ويزعمون كما زعمت زميلتنا السياسة أمس ، تقول زميلتنا السياسة هذا الكلام ، إنها لتسىء الظن بعقول قرائها فتسرف ولكنا نؤكد أنها لم تسىء ظنا ولم تعتمد مكراً وإنما التوت عليها طرق التفكير واضطرب من حولها الجو فقالت هذا الكلام .

وقالت السياسة ١٩٣٣/٦/٢ : نود قبل أن نناقش مقال صديقنا طه الأخير أن نذكر له صراحة أن السياسة لم تغير موقفها منه وأنها لا تزال تعتقد أن مكانه الصحيح هو فى الجامعة وفى كلية الآداب وأنها لم تغير رأيها فى تصرف وزير المعارف حين نقله من الجامعة . ومن تصرف الوزارة حين أقصته عن خدمة الدولة . وإن كنا نعتقد أنه أخطأ حين طلب إلى الناس أن يغضوا النظر عما تكتب الجرائد التى تنال من كرامات الناس ومن أغراضهم . وكنا نخشى أن يفسد هذا الخطأ تلاميذه الذين يحبونه ويقدرونه فنحن نعلم أنه خطأ جر إليه الجدل الصحفى ولولا هذا الجدل ما تورط فيه وآية ذلك أنه قرر أمس أنه لا يدافع عن هذه الصحف الهازلة . وإنه نزل أمس عن رأيه فى أن تنشىء الهيئات السياسية صحفاً مثلها تجادلها بمثل أسلوبها فلم يتمسك به وهذا وذاك ما نحمده له » .

تقول جريدة الشعب : يرى الدكتور طه أن الشكوى من الصحف الماجنة إذا أساءت إلى الكرامة أو انتهكت الحرية هو دليل على ضيق الصدر ، وهى كذلك من ذا الذى لا يضيق صدره بالاعتداء على كرامته وانتهاك حرمته ، لقد زعم الدكتور طه بعد ذلك أن الصحف الماجنة قد نالته كثيراً بالأذى ومع ذلك لم يهتك لها ستراً ولم يستعد عليها القضاء ولم يشكها إلى السلطان حتى واجهه الأستاذ هيكل بإنه رفع دعواه على الاستاذ عبد القادر حمزة والأستاذ عبد الله حبيب ومعنى هذا أن الدكتور طه إذا دعا إلى الاباحية لم يتورع فى تدعيم دعوته بالاختلاق والافتراء وانكار ما وقع منه وما جرى له . فالواقع ان الدكتور طه قد أقام الدليل بهذا الرأى الآفن على أن وزارة المعارف كانت على حق إذ أبعدته عن الجامعة وإذ وقت عقائد الطلاب وأخلاقهم من شره فقد أثبت أنه ليس حرباً على الدين فقط وإنما هو حرب على الخلق . (١٩٣٣/٦/٢)

وقالت : الحق ان غلبة الدكتور هيكل على الدكتور طه فى المناقشة قد أثارت فى نفوسنا

عوامل الرثاء له . فقد كان دستوريا قبل هذه المناقشة فانكشف ستره . كان الناس يظنون حين يقرأونه أن فى القبة شيخا أو حتى على الأقل دكتورا حتى قرأوا الحوار الذى دار بينه وبين الأستاذ هيكل فارتدوا عن القبة معرضين إذ لا شيخ فيها حق ولا دكتور . وكيف . جرت المناقشة الدكتور طه فلجأ إلى الاستدلال بآيات القرآن الكريم فى معرض الرد على ما قاله الأستاذ هيكل من وجوب الغضب مما تكتب الصحف الماجنة اعتداء على الكرامات وهتكا للحرمات ومع أن الدكتور طه كان شيخاً قبل ذلك فلم يوفق فى استدلاله بهذه الآيات لا فى تأييد دعواه ولا فى الدفاع عن صحفه الماجنة التى أساء إليها فى دفاعه عنها أكثر من خصومها . ونشهد هنا ان الأستاذ هيكل كان فى مناقشته اياه من الناحية الدينية التى لم ينشأ فيها نشأة الدكتور ولم يدرسها دراسته نشهد انه كان فى مناقشته من هذه الناحية كالسيل العرم طغى عليه ولطالما كان للشيخ طه أو للدكتور طه اعتداد بنفسه فى هذه الناحية اعتداداً أساء به إلى الدين وإلى رجاله فى غير موقف واحد » ا . هـ .

وملخص القضية ان للوفد صحفاً هزلية تحاول أن تسيء إلى رجال الحزب الآخر وطه يطلب منهم أن يقبلوا نقدها وسخرياتها دون أن يردوها إلى الحق أو يشكو إلى النيابة ويعلل ذلك تعليلا يكشف عن دعوته وهدفه فى دعم هذا اللون من الصحافة الهازلة ، بينما يرى هيكل أن هذا النوع من الصحافة جناية على الأخلاق لأنها تتناول حياة الناس الخاصة فى منازلهم وبين أهليهم .

ويقول : ما كنت لأرضى لصديقنا الدكتور طه أن يكون المدافع عن الصحف الهزلية وماتبثه فيها يفسد الأخلاق لغير شيء لأن هذه الصحف تدافع عن سياسة الوفد التى يدافع هو عنها . وأشار هيكل إلى أن طه عندما انتقدته هذه الصحف الوفدية وهو فى الجانب الآخر أقام عليها القيامة وتقدم ببلاغ عنها إلى النيابة فاستعدى عليها القضاء .

ومما قاله طه حسين : إن هناك حديثا عن الأحرار الدستوريين وأنه يكره تفصيل هذا الحديث إلا إذا أبى هيكل أن يفصله .

وقال هيكل : إن الأحرار الدستوريين ليس فى ماضيهم سر يخافون إذاعته من صديق أو من خصم فليفعل طه ماشاء فإن أشد ما يكره الأحرار الدستوريون هذه الثورة التى تفهم الناس إن فى الأمر شيئا فإذا كان فى علم صديقنا طـه شيء فلايسكت عن اذاعته فانا نبيح له كل شيء دون أن يستأذننا فيه وأكبر اعتقادنا أن صديقنا يظن أنه يعلم شيئا فإذا هو أراد أن يكتبه فتش عنه فلم يجد شيئا .

(دارت هذه المعركة على صفحات كوكب الشرق السياسية خلال شهرى مايو ويونيه ١٩٣٣) .

وهى مع الأسف تشهد للدكتور طه بما لايتفق مع أى كرامة وإن كانت تتفق مع الاتجاه الذى ينتظم هذا البحث كله .

وخير ما قيل فى هذا ما قاله محرر الاتحاد : « ان الشيخ طه رجل موتور لوزارة المعارف وقد ركب ظهر الوفد ورجاله للانتقام والتشفى من الوزارة التى أبعدته عن الجامعة احتفاظا بسلامة عقائد طلابها من الآراء التى قد تزعزعها ولم تقتر الوزارة على صاحب الأدب الجاهلى الذى أنكر أصلا من أصول الدين ووصف قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأنه أسطورة بل نقلته إلى ديوانها . كان بطل هذه الرواية السياسية حزب الأحرار الدستوريين الذين نصروا الشيخ طه حسين اثنى عشر عاما واتخذ منه عضداً وسنداً يلجأ إليه كلما حزبه أمر أو ضاقت به فرجة غير أنه يبدو لنا أن الشيخ طه لم يجد عند الأحرار بعض ما وفى لهم به فوجد عند الوفدين مالم يجده عند الأحرار الدستوريين وحمل على نفسه وأركبها هذا المركب الخشن لأن الشيخ طه حسين لا يؤمن بالوفد ولا يرى للوفدين مبدأ يصح الايمان به » (الاتحاد ١٨ مارس ١٩٣٣) .

ولقد حمل طه حسين على شوقى بك حتى أنه فى رثائه لحافظ وفى آخر قصائده كان يقصد طه حسين حين يقول :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى ... يا منصف الموتى من الأحياء
وودت لو أنى فداك من الردى ... والكاذبون المرجفون فدائى
الناطقون عن الضغينة والهوى ... والموغرو الموتى من الأحياء
من كل هدام ويبنى مجده ... بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطموك وإنما بك حطموا ... من ذا يحطم رفرف الجوزاء

والضمير هناك (الكاذبون والمرجفون والهدام الذى يبنى مجده) عائد إلى طه حسين .

* * *

طه حسين والملك

أما موقف طه حسين من الملك : سواءاً كان فؤاداً أم فاروقا فهو موقف الخضوع والعبودية الذليلة : أما فؤاد فهذه هي صورته (مارس ١٩٢٥)

١ ـ إن مثال صاحب الجلالة قد طبع في نفوس رعيته جميعا فليس يخلو منه إلا قلب مريض أو نفس مقفلة ، ولا عجب ولا غرابة فالمصريون مدينون له ولأبيه إسماعيل ولجده العظيم محمد علي . انهم مدينون لهؤلاء العظماء حتى ما يملأ نفوسهم من أمل في الاستقلال التام وحتى بما يدفعهم إلى السعي في تحقيق هذا الاستقلال التام ، على أن جلالته قد سار سيرة أبوية فلم يقصر همه على المسألة المصرية وإنما رأى أن الحياة الداخلية والخارجية للأمة إنما هما وجهان لشيء واحد في حياة الأمة فسعى إلى اصلاح الأمرين جميعا .

٢ ـ ولكن صاحب الجلالة الملك فؤاد لم ينس الجامعة المصرية التي انشأها لحظة ولم يعرض عنها حينا وكيف ينساها وهي ابنته وكيف يعرض عنها وهي غرس يده . (الاتحاد ١٧ مارس ١٩٢٥)

أما فاروق فهذه صورته :

أقبلت على مصر فأقبلت عليها الدنيا ونهضت بملكها فتمت لها عزتها ودبرت أمرها فانجلت عنها الغمرات والمجابت عنها الخطوب ، لله أنتم آل البيت العلوى الكريم ، ما أعظم فضلكم على الحياة العقلية في مصر ، لقد بعثتموها قوية نشيطة ، فجدكم العظيم يزكيها ثم هذا إسماعيل العظيم ينشيء جامعته في القاهرة إلى ما أنشأ من معاهد العلم والثقافة وهذا فاروق العظيم ينشيء جامعته في الإسكندرية .

وها أنت يا مولاى قد أقبلت فبعثت فيها من قوتك قوة ومن جلالك جلالا ورفعت ذكرها في أفاق الشرق والغرب فكيف السبيل لها أن تنهض بشكرك وأين الوسيلة لها أن تؤدى بعض حقك (فبراير ١٩٤٣) .

٣ ـ فالمصريون مجمعون على حب مليكهم لأنهم يرون فيه صورة بارعة لمصرهم الخالدة ورمزاً كريما لوطنهم العظيم وهم يرون في شخصه العظيم واسمه الكريم أمنية صدقت وأملا

تحقق. كان والده العظيم رحمه الله قد صور أمنية الشعب وعبر عن آماله حين سماه الفاروق فكانت هذه التسمية دعاء لله أن يمن على مصر بحريتها وعزتها، والمصريون مجمعون على حب مليكهم لأنهم يجدون فى شبابه النضر بهجة طالما نازعتهم إليها نفوسهم وزينة حالما هامت بها قلوبهم.

* * *

ثم سقطت الملكية وتحدثت محكمة الثورة عن العهد القديم وجاء ذكر طه حسين وحاول طه حسين أن يدافع عن نفسه فماذا قال:

أى المصريين يجهل أنى كنت وزيراً للمعارف فى يوم من الأيام وأنى خطبت أمام فاروق فى مواطن لم يكن بد من أن أخطب فيها، والناس جميعا يعلمون أن الوزراء ما كانوا ليخطبوا أمام فاروق فينقصوه ويذموه ويدلوه على ما كان يتورط فيه من طغيان وما كان يقترف من آثام وإنما جرت عادة الوزراء حين يتحدثون إلى الملوك بشىء غير هذا. من الذى يستطيع أن ينكر أنى تصورت الملك كما ينبغى أن يكون وقلت فيه ما كان ينبغى أن يقال فلم يتجه من كلامى إلى فاروق فى قليل أو كثير وإنما اتجه كلامى إلى هذا الملك الذى صورته لنفسى وللناس».

وهكذا راوغ طه حسين ربيب نعم فؤاد وفاروق والمقبل يديهما، والمتذلل لهما، ثم يدعى أنه كان خصما لهما فأين هذه الخصومة فيما ترك من آثار، إن لدينا عشرات المقالات فى التحريض على سعد زغلول لأنه يطالب بأن يكون ملكا وأنه يتقدم الوفود لتخطب له، فى أسلوب عجيب من الانتقاص والايقاع بين الملك ورئيس الوفد.

وأنكر طه حسين ما شهد به شاهد أمام محكمة الثورة من أنه قبل يد الملك مع غيره من الوزراء وحاول أن يصور نفسه فى صورة المعارض للملك والمخالف له. وأشار إلى فصول كتبها فى الهلال مبهمة وصفت بأنها موجهة إلى الملك. ونحن نعرف مما مر أن فاروق كان يعتقد أن طه حسين صنيعة جهات أجنبيه ويظن أنها الشيوعية ومن هنا كان موقفه منه وتهديده له يوم قدم وزيراً ومن قبل وأن ماجرى له من إخراج من وزارة المعارف يوم خرجت حكومة الوفد عام ١٩٤٤ كان طبيعيا ولم يكن خاصا به ولكنه كان عاماً بالنسبة لكل المتصلين بالوفد فى المناصب الكبرى وهكذا كانت تفعل الحكومات الحزبية.

* * *

الفصل الرابع

فى مجمع اللغة والجامعة العربية

فى السنوات التالية لعمل طه حسين فى وزارة المعارف اشترك فى مؤسستين كبيرتين هما مجمع اللغة واللجنة الثقافية بالجامعة العربية . أما المجمع فقد أنشىء منذ عام ١٩٣٤ ولم يقبل طه حسين بين أعضائه فكانت حملته عليه عنيفة حيث كتب فى ذلك الوقت يهاجمه أبشع هجوم ويحاور فى أنه لا يصلح لشىء ولا حاجة اليه ، فلما أصبح عضوا فيه ثم رئيسا له بعد وفاة لطفى السيد تغير ذلك كله إلى تقدير كامل لأعمال المجمع وأهميته . ففى ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ يقول :

والمجمع اللغوى ويا بؤس المجمع اللغوى ويا بؤس الناس من المجمع اللغوى ويا خزى مصر من المجمع اللغوى . سل المستشرقين عن رأيهم فيه وعن احترامهم له وعن إيمانهم بنفعه فتسمع منهم ما يسوء : (دائما المستشرقين)

ويهاجم المجمع فى جريدة كوكب الشرق ١٩٣٤/٩/٣ :

لقد أراد حلمى عيسى باشا أن يتظاهر بالاجداء على النهضة الثقافية فى البلاد فلم يكد يجد فى الصحافة الأصوات مناديه بوجوب إنشاء مجمع لغوى حتى راح يستمع فيه إلى الحزبية السياسية فرشح لهذا المجمع عدداً كبيرا من المؤيدين للوزارة أو مديريها أو المشتغلين حتى كادت الفكرة تستحيل بذلك إلى شبه لجنة حكومية لم تنظر فى تعيين أعضائها إلى سائر الاعتبارات الجوهرية من سعة الاطلاع وامتلاك ناصية اللغة واحتفال التاريخ العلمى للعضو فيه بالمآثر والإحسان إلى النهضة الثقافية » .

وقد دارت مناقشات واسعة بينه وبين منصور فهمى عام ١٩٣٧ حول مهمة المجامع اللغوية تجدها فى كتابنا (المعارك الأدبية) وفى هذه المساجلات يقول الدكتور طه حسين :

هون عليك أيها الصديق فالأمر أيسر من هذا كله فقد عاشت مصر من غير المجمع اللغوى فلم تجدب أرضها الخصبة ولم تغش سماؤها الباسمة ولم يبخل نيلها الجواد الكريم وقد أنشىء المجمع اللغوى فى مصر فلم تزد أرضها خصبا ولا سماؤها ابتساما ولا نيلها كرما وجودا وقد عاشت اللغة قبل المجمع وعاشت مع المجمع ولو قد ذهب المجمع مع الريح لما تعرضت اللغة لخطر ولا أدركها مكروه

هذا المجمع هو الذى كان يتهالك عليه الدكتور طه فى أيامه الأخيرة وهو مريض ليحمل اليه حتى تنشر الصحف صورته ويخطب فى الأعضاء ويؤكد نفوذه . ويسافر الى أوربا ستة شهور فى العام ويقوم المجمع بأداء كل مطالب رئيسه المحبوب .

* * *

أما اللجنة الثقافية فى الجامعة العربية فكانت مصدر نفوذ آخر استطاع طه حسين عن طريقها أن يجمع مالا عظيما لطبع كتب التراث ومندوبا عنها سافر إلى البلاد السعودية ووقف أمام الكعبة وتزعم الفكر وأصبح له نفوذ ثقافى فى البلاد العربية .

ومنه قاد معركة ترجمة الآداب الأوربية إلى اللغة العربية وحاول أن يحصل على مبالغ لا حد لها وجهها كلها إلى ترجمة آثار شكسبير وكانت هذه الدعوة متفقة مع محاولاته السابقة وهدفه الآصيل فهو يريد أن ينقل إلى العربية كل أثار الفكر الغربى بغير انتقاء وبغير تحديد لموقفنا من هذا الفكر ما نقبل منه وما نرفض وكانت خطته هى النقل الكامل الواسع على طريقة الاغراق ، ونقول إنه لم يكد يعود من أوربا حتى أخذ فى إظهار المواطنين على ألوان جديدة من المعرفة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ونحن نعرف إن طه حسين لم يترجم إلا القصص الفرنسية المكشوفة التى هاجها صديقه المازنى ، وترجم آثار اليونان ومسرحياتهم الإباحية الخطيرة .

ولا بد أن مشروعه فى ترجمة شكسبير كان يهدف إلى غاية وكان له فى مخطط التغريب مكان ، وفى الصلة بالاستعمار البريطانى أثر . وعندما اعترض عليه المعترضون وطالبوا بترجمة العلم قال : من الحمق كل الحمق أن نزعم أن العلم وحده هو الذى يحيى الأمم ويقويها ، وعسى أن يكون خط الأدب فى حياة الأمم وقوتها مثل خط العلم إن لم يكن أعظم منه وأبعد مدى » . ودعا إلى ترجمة الثقافات الأجنبية مهما يكن مصدرها ومهما يكن وطنها ومهما يكن لونها وكان فى ذلك مطابقاً لدعوته إلى نقل الحضارة الغربية حلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب .

وقد أشار الباحثون أن اختيار شكسبير ليس اختياراً موفقا ، وذلك أن شكسبير له ستة عشر مسرحية مترجمة إلى العربية بالفعل ترجمها خليل مطران وعوض إبراهيم ، ولكن طه حسين يريد أن ينفق هذه المبالغ على أوليائه وحوارييه الذين وكل إليهم هذه الترجمات وأغدق عليهم ليجمعهم مرة أخرى فى خطة جديدة .

* * *

وقد أمضى طه حسين سنواته الأخيرة فى هذين العملين : مجمع اللغة واللجنة الثقافية .

وكان طه حسين قد أحيل إلى المعاش عام ١٩٤٨ ثم ولى الوزارة حتى أوائل عام ١٩٥٢ ،

حيث اعتزل الخدمة الرسمية وان ظل متصلا بأكثر من عمل ، فى مقدمة ذلك عمله كمدير للثقافة بالجامعة العربية وعضواً ورئيسا للمجمع اللغوى ثم عضوا فى المجلس الأعلى للآداب والفنون .

فى هذه الفترة عمل طه حسين محرراً فى الصحف : الأهرام والجمهورية والأخبار

وقد احتفل طه حسين بحركة الجيش وثورة ٢٣ يوليو احتفالا شديداً ظناً أن ذلك سيمكنه من متابعة عمله الذى أخلص له نفسه وأن ذلك ربما أتاح له العودة إلى مناصب الدولة الكبرى فيحقق عن طريقها ما يرجو أن يحققه . ولقد ضاق كثيراً حين اختير غيره وخاصة من كان معارضا لأسلوبه فى التعليم أمثال إسماعيل القبانى وغيره . وقد عمل فى الصحافة يحاول أن يتابع عمله ويحمى الخطوات التى حققها فى مجال التعليم والجامعة ويدافع عن أتباعه وأعوانه الذين يسيطرون على مجالات العمل وقد تضمنت هذه الفترة كتابات عديدة فى مجالات مختلفة :

أولا : مجال التعليم ومشاكل المدرسين والجامعة والمناهج وقد جعل هذه مهمة متصلة له يتابعها ويعلن وجهة نظره فيها .

ثانيا : عمله فى مجمع اللغة العربية وكلمات استقبال الأعضاء الجدد وتأبين الأعضاء المتوفين .

ثالثا : كتابات عن رحلاته إلى فرنسا وغيرها وما يتصل بالمؤتمرات التى اشترك فيها .

رابعا : دعوته إلى ترجمة الآداب العالمية وقد اهتم بترجمة آثار شكسبير واستطاع أن يحصل على معونة كبيرة من أحد سراة البلاد العربية وجهها لهذه الترجمة واستعان فيها بتلاميذه وحوارييه .

خامسا : احتواء عدد كبير من شباب الكتاب وخاصة كتاب القصة وتقديمهم والإشادة بآثارهم وتجديد العهد لتلاميذه وأصدقائه وخاصة من يتصل بالأدب اليونانى وتشجيع الدعوات الشعوبية وخاصة تشجيعه للشيخ محمود أبو ريه فى موقفه فى الحديث النبوى .

سادسا : متابعة حملته على الأزهر الشريف وتأييد الشيخ عبد الحميد بخيت حين دعا إلى الافطار فى رمضان وثارت عليه ثائرة علماء المسلمين ، ثم كانت دعوته إلى إلغاء التعليم الأزهرى وتحويل الأزهر إلى جامعة أكاديمية للدراسات الإسلامية وقد أطلق عليها (الخطوة الثانية) وكانت الخطوة الاولى هى إلغاء المحاكم الشرعية التى هلل لها كثيراً .

سابعا : تابع دعوته المسمومة إلى اصلاح النحو ومشكلة الإعراب ، وإلى اللغات الأجنبية ، وإلى التبادل الثقافى ، وشارك فى الحديث عن القومية والديمقراطية والعروبة والفرعونية وجدد آرامه فى إحياء التراث العربى وفى هذه المرحلة كانت دعوته إلى كتابة اللغة العربية بالحروف

المدودة وقيل إن طه يتحدى سيبويه.

ثامنا: تابع آرامه عن المرأة والأسرة وتحريضه للمرأة للثورة على الرجال.

تاسعا: مناقشاته مع الماركسيين حول الأدب بين الصناعة والمضمون.

وقد ظهر فى هذه الفترة مجموعة جديدة من الحواريين الذين كانوا يتلقفون الكرة أمثال كامل الشناوى وأمينة السعيد وعبد الحميد يونس وموسى صبرى وسامى داود وكمال الملاخ.

* * *

الفصل الخامس

فى المحاضرات والمؤتمرات

حفلت حياة طه حسين بنشاط واسع خارج «الجامعة» «والصحافة» فى المحاضرات والمؤتمرات الدولية وكان منبر الجامعة الأمريكية فى القاهرة هو المجال الحيوى لآرائه ونشاطه وكانت مؤتمرات الاستشراق فى خارج مصر هى رحلته السنوية الدائمة وقد جرت الإشارة إلى الجمعيات التبشيرية الكبرى التى كانت تشرف على جمعية الشبان المسيحيين وقاعة إيوارت وغيرها ودورها فى الثقافة.

وقد تراجعت الجامعة الأمريكية عام ١٩٣٢ فى إفتتاح موسمها بعد أن اتهمت فى حركة التبشير ولكن الدكتور طه تقدم وأعلن أنه سيفتتح موسم المحاضرات: وقال إن شعب مصر ينسى اليوم ما ذكره بالأمس. ولقد كان طه حسين يستغل هذه المحاضرات فى خططه وسياسته على نحو من الأنحاء ـ تقول مجلة النهضة الفكرية إن طه حسين فى محاضرته فى الجامعة الأمريكية فى نوفبر ١٩٣٢ ساق أسطورة الثعبان ذى الرؤوس التسعة فى معرض الحط من قدر سعد زغلول والاعلاء من شأن صدقى باشا حين كان الدكتور يخاصم الأول ويعاديه ويمكن الثانى ويتزلف اليه فشبه سعد بالثعبان ذى الرؤوس التسعة وشبه صدقى بهركل البطل العظيم الذى قطع الرؤوس وأحرق مكانها بالنار حتى لا تنبت ثانية ثم دار الفلك دورته وتغيرت الأحوال وفصل طه من الجامعة وتبدل رأيه فى صدقى وتحسن رأيه فى سعد زغلول.

وهذه طائفة من أخبار محاضراته نحاول أن نصل بها إلى غاية واضحة من غاياته.

التاريخ: ١٩٣٩/٣/٢

المكان: قاعة مدرسة العائلة المقدسة للآباء اليسوعيين بالفجالة.

محاضرة الدكتور طه عن تكوين الصفوة المثقفة.

فقال: لست أعرف أن حياة لأمة متحضرة، تستطيع أن تستقيم فى شأن من شئونها بغير التعليم، أريد أن أتحدث عن تكوين فئة مثقفة تستطيع أن تفهم الحياة وتقدر مصاعبها. كيف السبيل إلى تكوين هذه الصفوة المثقفة ليس من المهم للمثقف أن يكون قد أتم مراحل التعليم أو أن يبرع فى فنه وإنما الرجل المثقف الذى يستحق هذا الوصف هو الذى يستطيع أن يفهم

ما يعرض له ولمواطنيه من مشكلات . ان الصفوة المثقفة موجودة عندنا بالقوة فلأجل أن توجد بالفعل يجب أن توضع بحيث تتصل بالثقافات المتحضرة اتصالا مباشرا ، ومعنى هذا أننى أكره أن يحكم على العقل المصرى أن يظل واقفاً على العربية وحدها أو يجاوزها إلى الإنجليزية أو الفرنسية فحسب بل لابد أن تفتح أبواب الثقافة عندنا على مصراعيها وان تدخلها الثقافات كالهواء الطلق وبهذا نستطيع أن نكون العقل الحر القادر فأما أن نقتصر على ثقافة أو يقتر علينا فى الثقافة فلا تدخلها العناصر الأجنبية إلا بمقدار فهذا هو الشر الذى لا يتفق مع كرامتنا . هناك أشياء لا بد منها لتكوين المثقف الممتاز أهمها : فتح الأبواب للثقافات الأجنبية لتمتزج بثقافتنا والعناية بجعل اللغة العربية لغة مصرية ومادة لحديث الشباب وأذواقهم .

هذا هو مخطط طه حسين : فتح الأبواب للثقافات الأجنبية لا الفرنسية والإنجليزية وحدها ولكن الشيوعية والوجودية والصهيونية جميعا حتى تغرقنا وحتى تسحق شخصيتنا وتقضى عليها وتذيبنا فى بوتقة الأممية وهذه خطة طه حسين التى عرضها عام ١٩٣٩ والتى سعى اليها وجمع لها المال ١٩٥٤ وهو فى إدارة الثقافة بالجامعة العربية .

* * *

ومحاضرة أخرى : التاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٤٤

المكان : المدرسة الإسرائيلية بالأسكندرية .

المحاضر : الدكتور طه حسين مراقب الثقافة بوزارة المعارف .

وهذا نص ما نشرته مجلة المكشوف فى ٢ كانون ثانى ١٩٤٤ :

القى الدكتور طه مراقب الثقافة فى وزارة التربية الوطنية فى المدرسة الإسرائيلية بالأسكندرية يوم ٢٤ كانون الأول ١٩٤٤ محاضرة عن اليهود والأدب العربى فذكر العلاقات بين اليهود والعرب منذ الجاهلية وأى أثر كان لليهود فى تحضير سكان الجزيرة ثم تكلم عن انتشارهم فى أفريقيا الشمالية واسبانيا حيث كانت لهم خدمات فى سبيل الثقافة وكيف نافسوا العرب أنفسهم على أكثر المناصب فى الدولة ، إلى أن قال إن المسيحيين واليهود كانوا خير عون للعرب فى نقلهم العلوم والفنون والآداب عن اليونان والهنود والفرس وختم الدكتور حديثه داعيا يهود مصر إلى توثيق صلاتهم بالمصريين من أهل الثقافة العربية والاندماج فى سوادهم اندماجا روحيا وتدارس أدبهم شعراً ونثراً ـ قالت المجلة فقوبل كلام المحاضر بعاصفة من التصفيق وقرر المجلس الملى الإسرائيلى انشاء جائزتين باسم طه حسين يمنحان لألمع طالبين فى المدرسة الإسرائيلية » .

وقد أثار هذا الكلام شبهة الصهيونية ولكن هل كان هذا هو أول ما قدمه طه حسين : إن على الباحثين أن يعودوا إلى ما قبل ذلك بكثير ، الى الوقت الذى احتضن فيه طه حسين فى

كلية الآداب طالبه الأثير (إسرائيل ولفنسون) الذى وصف بأنه رجل استقدمه الدكتور إلى الجامعة وأحاطه بعنايته ورعايته و مكنه من الحصول على إجازة الدكتوراه برسالة عن (اليهود فى جزيرة العرب) قدمها بنفسه فى الحفل وفى الطبع ، وقد أطلق على نفسه (أبو ذؤيب) وقد عمل أستاذا فترة من الزمن فى دار العلوم وقد وجد فيا نقله من أخبار وأحاديث تحريفاً وبترا واقتطاعا من نصوص محفوظة معروفة ، كذلك فقد رأينا الدكتور طه يتحدث قبل ذلك (يناير ١٩٢٦) عن تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية فى الشعر العربى حيث ادعى أن الحكام المسلمين منعوا تداول كل شعر اشتمل على مبادىء الديانات وأورد تهماً أخرى رد عليها كثير من الباحثين (اقرأ عباس فضلى السياسة اليومية ـ ١٣ يناير ١٩٢٦)

بل إن الدكتور ولفنسون استاذ اللغة العبرية بالجامعة المصرية التى محاضرات منها ما ألقاه فى ١٣ مايو ١٩٣٢ عن القصص اليهودية المصرية فى ألف ليلة.

وقبل هذا كله نجد الدكتور طه حسين قد سجل فى كتابه (الشعر الجاهلى) أول محاولة له يمكن أن توضع فى هذا الخط الخطير وهو إنكاره وجود إبراهيم وإسماعيل بالرغم من أن القرآن والتوراة قد أشارت إلى وجودهما (وقد أجبر على حذف هذا النص عندما أصدر كتابه البديل (الأدب الجاهلى)

وقد سجل هذا الدكتور (فؤاد حسنين على) فى مقدمة ترجمته لكتاب (شمس الله تشرق على الغرب) قال : حيث يحلو للدكتور طه أن يتحدث عن اليهود واليهودية إذا ما عرض للغة وآدابها ويحلو له الحديث عن اليونان إذا ما تعرض للحضارة العربية الإسلامية ففى الجامعة المصرية كان يحلو له التشدق بهذا الرأى فيا يلقيه على مستمعيه فى محاضراته وقد سجلت له صحيفة الجامعة المصرية فى عددها الأول فى سنتها الثالثة عام ١٩٢٥ محاضرة هى حلقة من سلسلة محاضراته تحدث فيها عن اليهود وما لهم من أثر فعال لا فى الحياة العربية فقط بل فى الحياة الأدبية أيضا ويصل إلى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود:

أولا : أن اليهود أثروا فى الأدب العربى أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود.
ثانيا : أن اليهود قالوا كثيرا من الشعر فى الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب.
ثالثا : أن اليهود انتحلوا شعراً لإثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب.

وانتقلت الجامعة الأهلية إلى الدولة وانتقل معها الدكتور طه حسين فأخذ يكرر نفس الآراء ويدعو لها وأبى إلا أن يذيع دعواه خارج الجامعة فأصدر (الشعر الجاهلى) فلما صادرته الدولة عام ١٩٢٦ أعاد نشره مهذبا بعض التهذيب تحت عنوان (الأدب الجاهلى) عام ١٩٢٧ وفى

تلك الفترة أعد الصهيونى إسرائيل ولفنسون (المشرف على البحوث الإسرائيلية فى أفريقيا الآن) رسالة تحت إشراف الدكتور طه موضوعها « تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام » قدم لها الأستاذ المشرف بمقدمة جاء فيها : الموضوع فى نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جدا فى التاريخ الأدبى والسياسى والدينى للأمة العربية فليس من شك أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا فى الحياة العقلية والأدبية للجاهلين من أهل الحجاز وليس شك أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفى أنها استحالت من المحاجة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية » وهذه الرسالة التى نال بها إسرائيل ولفنسون لقب الدكتوراه من الجامعة المصرية والتى استحق صاحبها من الدكتور طه المشرف عليها أن ينعته بأنه عالم شاب وفق إلى الخير وإلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل » .

ويقول الدكتور فؤاد حسنين : وإنى أحب أن أقول له إن هذا البحث حلقة من كتب الدعاية الصهيونية التى كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيونى بإشراف (مارتن بوبر) تدعو إلى نشرها وما نقله إسرائيل ولفنسون فى رسالته من آراء كان القصد منها اطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء فى المصادر الأجنبية التى يجهلها القارىء العام فى الشرق . وهذه الرسالة التى أشرف عليها مشحونة بالأخطاء التى لا تصدر من طالب مبتدىء فى البحث وهى صدى لهذه الآراء التى كثيراً ما أوردها الدكتور فى الجامعة فضلا عن أن المراجع العبرية لا تمت إلى البحث بصلة والسيد المشرف لا يعرف العبرية وأخذ بالنتائج التى ينسبها الباحث إلى هذه المراجع العبرية دون التحقق منها ودون الاستنارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية كانت تقتضى غير هذا . إن البحث العلمى يجب ألا يصبغ بصبغة القومية المتعصبة . كما لا يتخذ وسيلة من وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادى الرخيص ويجب أن يسمو عن كل هذا وينظر اليه كقضية عالمية .

ويقول الدكتور فؤاد حسنين : إن الحانقين على الغرب والإسلام والناسبين التراث العربى إلى اليونان واليهود يضللون أنفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح فان العرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود . ولست وحدى الذى يقرر هذا بل يشاركنى نفر من الأوروبيين المنصفين مسيحيين كانوا أو يهودا والتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجهة الطغاة من حكامهم فى فلسطين اوزاعا من اضطهاد اليونان والروم فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلا وسهلا ، وقد أفردها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التى مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة تذوق اللغة العبرية حتى أصبح من المألوف لدى اليهودى أن يعبر عن آفكاره وشعوره فى لغة ركيكة هى خليط من العبرانية والكلدانية واليونانية فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية ، فما كان هؤلاء اليهود

بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر ، ففير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة إن العربي معجب بلغته معنى بها نثراً وشعراً حريص على المحافظة عليها فصيحة نقية . وأخذ اليهود من جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير ، فلما رحل بنو قينقاع والنضير ويهود خيبر وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين ، كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربي ويتطبعون بطباع عربية ، نزل أولئك اليهود فى أوطانهم الجديدة فأثروا فى أبناء ملتهم تأثيراً قويا ولم يمض نصف قرن من الزمان على تحرير العرب ليهود فلسطين والعراق وغيرهما حتى أصبح فى استطاعتهم التحدث باللغة العربية .

ويحدثنا التاريخ اليهودى أن الإسلام أحسن معاملة اليهود أولئك الذين اضطر النبى والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام واتباعه ، اقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام على كرم الله وجهه ، الأراضى الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودى الشهير (جريتز) إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم وقال إن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها .

هذه هى الحقيقة العلمية أسوقها للدكتور طه وتلميذه الدكتور اسرائيل ولفنسون » ا . هـا .

ولا ريب أن هذا الذى اختصرناه مما أورده الدكتور فؤاد حسنين بتوسع ، له مكان آخر ، يكشف هوى طه حسين وزيفه فيما حاول هو وتلميذه اليهودى أن يضفيا على اليهود ما ليس لهم وما لم يكن فيهم ، بل هو فضل خلعه على اليهود فما كان لليهود على العرب أو غيرهم على مر التاريخ البشرى أى فضل .

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن طه حسين قال : قد جئت به من فرنسا ثم قدمت رسالته مادحاً فى اليهود ، وهو اليوم يقود أكبر حملات الكذب والدعاية والتضليل على العرب فى فلسطين . ومن ذلك ما حاول الدكتور طه أن يدافع به عن عبد الله بن سبأ فى كتابه (الفتنة الكبرى) وتشكيكه فى حقيقة هذا اليهودى الذى تزعم أكبر فتنة فى صدر الإسلام وفى محاولته الساذجة فى إنكار شخصية ابن سبأ وآثارها البعيدة المدى .

وهو صاحب نظرية الحلول والاتحاد التى انتقلت من اليهودية إلى المسيحية إلى الإسلام وهو على شاكلة كعب الأحبار الذى اشترك فى مؤامرة اغتيال عمر بن الخطاب بيد أبى لؤلؤة المجوسى ، وكان كعب الأحبار خلف هذه المؤامرة كما كان ابن سبأ خلف مؤامرة قتل عثمان بن عفان .

وقبل أن نصل إلى قصة إنشاء مجلة الكاتب المصرى : ذلك العمل الذى جاء مباشرة بعد محاضرة الإسكندرية المشهورة يجب علينا أن نتعقب آثاره فى الفترة السابقة فنجد صفحة كاملة من جريدة الوادى التى كان يصدرها يلخص فيها الدكتور كتاب (الأجناس) للكاتب الالمانى

الاسرائيلى فرديناند بروكينز والتى نقلهـا من مجلة اللاســتراسيون ونشرها فى ٣ يونيو عام ١٩٣٤ وهى فى مجموعها دعاية صارخة لليهود ومحاولة لتثبيت معلومات زائفة عن قتلهم بيد هتلر وإثارة القلوب عليهم بالاشفاق.

فهو يقول فى مقدمتها : لم يفرغ الناس بعد فى جميع أقطار الأرض المتحضرة ويظهر أنهم لن يفرغوا قبل زمن بعيد من الحديث فى مسألة الأجناس التى كانت تثار من حين إلى حين فى بلاد مختلفة وبيئات متباينة وفى عصور متباعدة ومتقـاربة ولكنهـا أثيرت فى هذه الأيام بشكل عنيف ومخيف اضطرب له ضمير الإنسانية ، وكان الانقلاب الالمانى الأخير هو الذى آثار هذه المسألة حين أنكر الالمان من الاسرائيليين ما أنكروا ووجهـوا إليهـم من التهـم ما وجهـوا وأرادوا أن يخلصوا منهم الجنس الالمانى وأن يردوا هذا الجنس فيما يقـولون إلى صفائه الأول ونقـائه الذى لا تشوبه شائبة.

وما زال الناس فى حديث هذه الثورة التى ثارها الألمان باليهـود يراها بعضـهم حقـاً ويراها بعضهم الآخـر باطـلا وظلماً ويدافع أولئك وهؤلاء عما يرون فيسرف أولئك وهؤلاء فى الهجـوم والدفاع وفى التأييد والإنكار والصورة التى عرضها الكاتب فى قصة هذه الخصـومة ، والنقـاد الذين شهدوا القصة ونقدوها لا يمضون مع الكاتب إلى حيث أراد . فهم قد قدروا كما نقدر أن الكاتب إسرائيلى وأنه قد أزعج عن وطنه أثناء الفتنة بل من المرجـح انه لم يأمن أن يتأثر بمذهبه وجنسه وهواه وما أصابه به من الضرر حتى عن بلاده . بل من المرجح انه قد أخـطأ بعض الخطأ على كثرة ما حاول من الاحتفاظ بالقصد والإنصاف ».

وهكذا نجد أنه أخذ يقدم وجهة نظر اليهود فى قضـايا النازى بطريقـة ماكرة خبيثة ، وهكذا مضى يقول « فالوطن اليهـودى لا يطيق اليهـود وهو يراهم شراً وخــطراً بل الوطــن الهتلرى لا يطيق إلا نفسه ولا يقبل من أبنائه أن يفكروا أو يقدروا أو يؤمنوا إلا بأنفسهم من حيث هم أفراد وإنما هو يريدهم على أن يفنوا فيه ويحيوا له ويعـملوا بإرادته وأمره وكل ما يخـالف ذلك فى حياتهم يجب أن يمحى محواً ويطرح اطراحا »

يقول : عاد هتلر وقد جحد الديمقراطية ومبادئها وآمن بعظمة الجنس الآرى وضعة غيره من الأجناس وعادت هى يهودية خـالصة ، أما هو فيذكر أجـداده القـدماء ، أما هى فتمد يدها إلى التوراة لتنظر فيها ويقول إن الشباب اليهودى فى المانيا مؤمن بالديمقراطية والحـرية مشـفق من الظلم والجور ولكن هناك صوتا بعيداً يتحدث إليه هو صوت الاضطهاد وأن مجـدهم إنما يقـوم على هذه المحن التى تلم بهم من حين إلى حين ».

وهكذا نجد طه حسين يتحدث كأنه محايد ثم يدس السم فى الدسم ويكشف عن ولاء واضح وهوى عميق كان له أثره فى نظر الكتاب والقراء حتى جاءت قضية مجلة الكاتب المصرى.

نعم ، لم يلبث الدكتور طه أن أشرف على دار الكاتب المصرى التى عينته مستشاراً لها ورئيساً لتحرير مجلة الكاتب المصرى ولندع الدكتور لويس عوض تلميذ الدكتور وصفيه فى كثير مما يدعو إليه يتحدث عن هذه القصة فيقول : كان لهذه الدار قصة واضحة وغامضة معاً ، كان يملك هذه الدار أربعة أخوة من يهود مصر الميسورين . كنا نعرف فى هذه الفترة مليونرات يهود بعضهم من يهود مصر وبعضهم من اليهود المصريين المتصلين بالثقافة والمثقفين ، منهم من كان ضالعاً فى تشكيل حركاتنا السياسية الجديدة كالشيوعية وما إليها وكنا نعرف أو نسمع عن آل كوريل : هنرى وراؤول ومليونير يهودى شاب اسمه ريمون اجيون . كنا نسمع عن هؤلاء وغيرهم إنهم يمولون الحركات الشيوعية بالمال وقيل بالجنس أيضاً . لم نسمع عن آل هرارى كانوا أربعة أخوة تجاراً ووكلاء شركة ومنتجين للالات الكاتبة ، قرروا دخول عالم النشر وتعاقدوا مع طه حسين ، استطاعت دار الكاتب المصرى أن تصدر مجلة ثقافية فكرية وقد أصدرت عشرات الكتب المؤلفة والمترجمة (اندريه جيد ، دستوفسكى ، تولستوى ، تورجنيف ؛ ويلز ، أوسكار وايلد ، مدونه جو ستنيان ، كافكا ، سارتر ، البير كامى . . .) .

وقد ظهرت فجأة واختفت فجأة ، كنت أسمع أن حملة ضارية قد شنت على الدار من بعض الصحف المصرية الصغرى يقودها اسماعيل مظهر اتهمت فيها دار الكاتب المصرى بأنها رأس رمح لليهود فى مصر تمولها الصهيونية العالمية بقصد استيعاب المثقفين المصريين والعرب فى تيار ثقافى مشبوه وفى الوقت الذى كانت الصهيونية تحاول بشوكة السلاح وبارهاب الماباى والايرجون زفاى أن تنشىء دولة إسرائيل ، والحق أن ظهور دار الكاتب المصرى فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ العالم العربى إذا نظرنا له بعد هذه الفترة البعيدة أمر يدعو إلى الاستثارة فعلا وكلنا فى هذه الأيام لم نكن ننظر إلى اليهود المصريين على أنهم مصريون ، وقد يختلفون عنا فى الدين ، كنا نفصل فصلا تاماً بين اليهودية والصهيونية ولم نجد فى الكاتب المصرى شيئاً ما يقبل التأويل إلى شىء من هذا الخطر الذى كانوا ينبهون إليه » . (الأهرام ١٩٦٨/٢/٢٠)

ولقد يصدق لويس عوض فى قوله إذا ما انتزعنا القصة من سياقها التاريخى الذى أوردناه ، ولكنها حين توضع فى مكانها الحقيق من هذا التاريخ الطويل يتأكد لنا أن طه حسين يسير إلى غاية واضحة ، وإذا راجعنا ما أصدرته الدار وجدنا حرباً واضحة للاسلام ممثلة فى كتاب جولد زيهر ، ونجد عاصفة من المترجمات المثيرة التى تحمل الإلحاد والإباحية والفكر الغربى فى صوره المنحلة والمضطربة الوجودية والشيوعية وغيرها فنجد أن ذلك هو هدف الصهيونية العالمية ، وهذه هى خطة الماسونية والتلمودية جميعاً .

ولعل هذا هو ما دعا مجلة الاثنين أن تستجوب طه حسين فى عددها (٨ أكتوبر ١٩٤٥) تحت عنوان (يقولون عنك فماذا تقول) :

س : يقولون عنك أنك تعمل على مساعدة الصهيونية فماذا تقول ؟

ج : ان مجلات دار الهلال آخر من يجوز لها إلقاء هذا السؤال فهى تعرفنى حق المعرفة وقد كتبت فيها منذ نشأت حتى الآن وليت الذين يذيعون مثل هذا الكلام الفارغ ، يستطيعون أن يبلوا فى خدمة العروبة مثلما أبليت ، وليس أدل على انى (أساعد) الصهيونية من أن أحيى الأدب العربى القديم ، فانشر ديوان ابى تمام وما كتب عليه من الشروح فى العصور الأولى ، وأنشر روائع الأدب العربى للجاحظ وأبى هلال العسكرى وغيرها وأنشر أشياء تتصل بعلوم القرآن الكريم فأى مساعدة للصهيونية أقوى من هذا ، أما مجلة الكاتب المصرى التى أسست فيما يقال لمساعدة الصهيونية فستكون فى أيدى الناس حين يظهر هذا العدد من الاثنين وسيقرأون ما فيها ويستوثقون من أنها مجلة أقل ما توصف به أنها لسان صادق للأدب العربى الرفيع » .

وهكذا نجد أن « شبهة » الصهيونية قد وضحت كثيراً . فاذا أضفنا إليها أن طه حسين فى حياته كلها وحتى مماته وقد شهد قيام إسرائيل وما بعده لم يكتب مقالا واحداً عن فلسطين لم نعجب ولم نشك فى صحة اتجاهه .

* * *

٢ ـ ولطه حسين مواقف أخرى فى ندواته . ففى نادى نقابة الموظفين كما تقول كوكب الشرق (٤ يوليو ١٩٢٧) وتعلق الفتح (٧ يوليو ١٩٢٧) وقف طه حسين بعد محاضرة الدكتور فريد رفاعى وتحدث إلى الحاضرين عن شأنه مع الإسلام والمسلمين قال الدكتور فى حديثه :

أنا أسعد الناس لأن أرى من قومى ووطنى من يفهم العلم والعالم فيقدره ويظهر الاستعداد لتشجيعه على الحق . أنا أعلم حق العلم أن اسمى مختف فى هذه الأيام وأعلم حق العلم أن ذكرى قد يكون خطراً فى بعض البيئات ويمكن لمن يخافونى أن يسألوا تلاميذى الذين أضع علمى بين أيديهم وبحق تحت نظرهم :

أيخافوننى على دينهم وهم الحريصون عليه .

ووقف الأستاذ محمد الهراوى ونقض حديث الدكتور وقال : إن رجال الدين مدافعون والدكتور طه هو المهاجم وشرع فى سرد مخازى كتاب (فى الشعر الجاهلى) ولكن أسعد لطفى رئيس النقابة سعى فى قطع الهراوى عن الكلام .

تقول كوكب الشرق : لماذا أحال الدكتور الحاضرين على تلاميذه وهلا أحالهم على كتاب فى الشعر الجاهلى فيخبرهم اليقين بأن أستاذ الجامعة يجلس إليه تلاميذه فيملأ حقائبهم بالطعن فى القرآن والاعتداء على كرامة النبى .

ومما قال (وأعلم انه لا يخطر ببالى فى يوم من الأيام ولن يخطر ببالى أبداً ما حييت أن أكون

عدواً لدين من الأديان) فإذا كانت العداوة للدين غير الطعن فى كتابه المنزل غير إيذاء من أنزل عليه هذا الكتاب فذلك اصطلاح لا يفهمه إلا من يضع الدكتور علمه بين أيديهم.

ويصرح الدكتور فى مواضع متعددة من كتاب الشعر الجاهلى بنسبة الكذب إلى القرآن ويعتدى على كرامة النبى بما لا مساس له بموضوع البحث وتقرير النيابة شاهد بذلك. فماذا تكون العداوة للدين غير الطعن فى كتابه المنزل وغير إيذاء من أنزل عليه هذا الكتاب. دس الدكتور فى حديثه تلك الخديعة التى جعلوها أساس دعاياتهم وجعلتهم فى نظر العقلاء قوماً لا يفقهون وهى زعمهم: إن الدين خارج عن دائرة العقل وقال:

إن واجبنا عليه أن يكون بحثه على طريقة العلماء بعيداً عن الدين وأموره.

يذكر القرآن ويقذفه بالكذب ويذكر النبى ويمس كرامته بلسان ماجن رفيع.

ويعلق صاحب الفتح فيقول: كانت هذه العصابة قد حسبت أن الإحساس الدينى قد امحى من قلوب الأمة فتبنوا حملة يهاجمون بها الإسلام من طرق مختلفة وعقدوا الرأى على أن يقيموا لرينان حفلا يدرسون فيه مآرب أخرى وزينوا للشيخ مصطفى عبد الرازق أن يكون نصيبه إلقاء كتاب يقال أن جمال الدين الأفغانى بعث به إلى رينان يرى فيه جمال الدين أن بين الإسلام والعلم خلافاً.

وقال أحمد خشبه باشا: لو أن الدكتور طه تعرض للدين الإسلامى وهو يعلن إنه لا يدين بدين من الأديان المنزلة لهان الأمر، أما وهو يطعن فى الدين الإسلامى وفى نبى الإسلام ثم يقول فى نفس الوقت أنه مسلم كما قرر أمام النيابة العمومية فهذا مما لا يصح السكوت عليه.

* * *

وقد ألقى الدكتور طه حسين عدداً من المحاضرات عن البحترى وقد كتب الدكتور زكى مبارك (البلاغ ١٢ مارس ١٩٣٣) عن هذه المحاضرات تحت عنوان:

[الدكتور طه حسين يغلط ثلاث مرات فى محاضرة واحدة]

وقدم زكى مبارك الأبيات الثلاثة التى قرأها الدكتور وبين وجه الخطأ فيها فما كان من الدكتور إلا أن طبع محاضراته وشكل الكلمات على النحو الذى أوردها هو ضارباً صفحاً عن ما أورده زكى مبارك من تصحيح لها.

* * *

أما المؤتمرات التى اشترك فيها الدكتور طه فهى كثيرة، وأغلبها مؤتمرات المستشرقين، ومن أهمها مؤتمر المستشرقين (سبتمبر ١٩٢٨) الذى عقد فى اكسفورد وألقى فيه بحثه عن الضمائر

فى القرآن . والذى رفض الدكتور طه نشره فى اللغة العربية كما سجلت ذلك عليه جريدة الأهرام (١٢ سبتمبر ١٩٢٨) وهو موضوع شائك خاض فيه الدكتور وارضى وجهة نظر المستشرقين ، يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى (كوكب الشرق ٢٧ نوفمبر ١٩٢٨) رأيه أن ضمير الغائب فى آيات كثيرة من القرآن هو اسم إشارة وزعمه ان هذا الذى تأوله فى تفسير الضمائر يحل مشكلة عدم المطابقة بين الضمير وما يرجع إليه ويصحح ما ضبط به المستشرقون من توهمهم أن فى القرآن خطأ نحوياً إذ يرون الضمير قد رجع على متأخر أو يرجع إلى محذوف مفسر بما يدل عليه وجهاً من أوجه الدلالة . وقد استطرد (طه حسين) لبحثه من القاعدة النحوية التى نص عليها وجرى فى إيرادها مجرى المستشرقين فى عربيتهم الضعيفة فلا هى محكمة ولا هى مصلحة ولكن منتزعة انتزاعاً عن جمع للقواعد بلا إستقراء وأخذ بلا تمحيص ونظر بلا تدقيق وفهم بلا تعليل . وكأن صاحب البحث لا يعرف كيف وضع النحو ومم أخذ وكيف تفرع بعضه من بعض وهل هو حجة على الفصيح المنقاد المجمع على فصاحته وخلاصه أم الفصيح حجة عليه ، وهل كان للعربى القح متن وشرح وحاشية أم قريحة وسليقة ودقائق فى التصرف . وكأنه أخذ تلك القاعدة من ذلك الكتاب الذى عثر به فى خرائب روما فرآه مكتوباً قبل الإسلام بمائة سنة وفيه آراء فى الشعر الجاهلى وفيه قواعد نحوية ضابطة محكمة لا يشذ عنها إلا شاذ ولا يختلف عليها إلا ما كان خطأ وفيه أشياء وآراء يقال أن الدكتور طه لا يرده عن نشرها إلا أنه يطمع أن يجد تحقيقها فى كتاب آخر يعثر به فى خرائب أثينا . . الخ .

* * *

وهناك مثلا مؤتمر باريس العلمانى وقد كتبت عنه مجلة المكشوف فى ٢٨ تموز ١٩٣٧ وعقد مؤتمر البعثة العلمانية الفرنسية للبحث فى موقف اللغةالفرنسوية فى الشرق وكان من بين أعضاء المؤتمر من غير الفرنسيين الدكتور طه حسين وصاحب جريدة النهار فخطب مسيو هريو عن مهمة فرنسا التهذيبية فى الشرق وعن أثرها فى تكوين النهضات القومية .

وقد شرع كل واحد يتكلم عن أثر التعليم العلمانى فى بلد يعرفه من بلاد الشرق ، وطلب الرئيس إلى الدكتور طه حسين أن يتكلم عن أثر التعليم العلمانى فى مصر فانطلق الاستاذ يتحدث بطلاقة لسانه المعهودة وطلب إلى البعثة أن تعنى فى مصر بتقوية الروح الكلاسيكى فى التدريس فكان كلامه يقاطع بالتصفيق » .

وكيف لا يصفقون لرجلهم وهو يعبر عن آرائهم ويدعم مقامهم ويدعو لما هو إلى رضائهم أقرب .

ومن ذلك نادى القلم الدولى الذى أقامه طه حسين فى مصر ودعا إليه عدداً من أصدقاء

الغرب على عبد الرازق ، سيزا نبراوى ، مصطفى عبد الرازق ، توفيق دياب ، أنطون الجميل ، اميل زيدان ، أحمد أمين ، محمد عوض محمد ، عبد العزيز البشرى ، كامل حسن ، محمد عبد الله عنان ، مسيو دى لموا ، المسيو ومدام فوشيه ، مدام خير ، مستر سكيف ، ومسيو ومدام نيل ، محمود تيمور ، الآنسة مى ، خليل ثابت ، خليل مطران .

وقد كتب الدكتور محمد حسين هيكل يعترض على قيام هذا النادى فى مصر لأنه يركز الغزو والتبعية .

* * *

ونحن نجد طه حسين يكد ويكدح بعد معاهدة ١٩٣٦ ليفتح الطريق إلى عمله الكبير الذى تولاه فى وزارة المعارف مستشاراً ومراقباً ومديراً للجامعة ووزيراً ، ثم نجد مرحلة أخرى يريد طه حسين أن يكدح فيها بعنف ، ذلك بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية وانقطع فترة عن السفر الذى يقوم به كل عام إلى فرنسا ، ثم يسافر فماذا يكون فى حقائبه ومهمته . يكشف هذا الأستاذ محمد روحى فيصل فى مقال له فى مجلة (آخر دقيقة) نقلتها مجلة النديم القصصى فى مصر فى عددها ١٩٤٦/١٠/٩ تحت عنوان (هل باع الدكتور طه روحه لفرنسا) يقول :

تسلل الدكتور طه حسين إلى فرنسا فى هذا الصيف فكث قرابة الشهرين ثم عاد إلى مصر يستأنف النشاط الذى اتفق معه فريق من التجار اليهود على أن يقوم به على صفحات (الكاتب المصرى) باسم الأدب والثقافة والعلم وما أشك فى أنه كان يصطحب معه إلى فرنسا زوجه التى قتلها الشوق من طول الحرب إلى أهلها . . . ومن يدرى فقد يكون طه حسين نفسه يكابد الشوق إلى فرنسا فذهب فى هذا الصيف يجدد العهد بالوطن الذى انتثر غبرة مزورة فوق الجزمة الأيطالية طيلة سنوات الحرب كلها ، ومن المؤكد أنه لقى هناك ولده الذى يحمل اسمين اثنين معاً أحدهما عربى وهو مؤنس ، يوقع به فى مجلة أبيه ، والآخر فرنسى وهو كلود توج به ديوان شعر صغير بالفرنسية وذهب الفتى العربى الفرنسى إلى فرنسا يدرس فى جامعاتها على نفقة الحكومة الفرنسية ، كل هذا يهون وكنا نعده من خاصة الشئون فى الصميم فلا نذكره ولا نأبه له لو أن الدكتور اقتصر عليه ووقف عنده ولم يتجاوزه إلى ما هو أعظم شأناً وأكثر خطراً ذاك إنه ألقى فى بعض محطات الإذاعة الفرنسية أحاديث سمعها أصدقاؤنا الصحافيون دعا فيها إلى عودة الصلات التى انقطعت بين فرنسا والعرب لم يتحفظ فيها الكاتب ويصطنع فيها الذكاء الذى نعهده فيما نقرأ له من الفصول ، وإنما كان صريحاً كل الصراحة واضحاً كل الوضوح جريئاً غاية الجرأة فلا جمجمة ولا مواربة ولا تعمية ، كأنما الحديث عن فرنسا المستعمرة التى نكلت بالعرب وضربت دمشق مرتين من الأحاديث اليسيرة العادية المستملحة . ومرة أخرى كل هذا يهون وكنا نعده من الكلام الذى يتبدد لو أن الدكتور طه اقتصر عليه ووقف عنده ولم يتجاوز إلى ما هو أعظم شأناً وأكثر خطراً ، ذاك أنه ألقى فى نادى (اللجنة

الوطنية للكتاب الفرنسيين خطبة باللغة الفرنسية أبى إلا أن يسجل ما فيها على نفسه ويذيعها فى الناس على أوسع نطاق فنشرها فى صحيفة الآداب الفرنسية التى تصدر فى باريس عنوانها (فرنسا ومصر) أعرب فيها عن إعجابه الخالص بفرنسا وتقديره العميق لما تقوم به من جليل الأعمال فى استئناف التعاون بين فرنسا والشرق العربى ، وقد قرأ الناس مقال الدكتور طه كما قرأناه فعجبوا مثلنا كيف يجرؤ على الحياة والحق والعلم والتاريخ بهذه الآراء المغلوطة والتحريض المفضوح والشعور الدخيل ولكنهم تساءلوا عن (الثمن) الذى قبضه صاحبنا من أجل مقاله هذا ومن أجل ما أذاعه من ألوان الدعاية لفرنسا السياسية وأنا أدل القارىء على الأجرة المقبوضة حتى الآن . فإن مؤنس أو كلود يتعلم فى جامعات فرنسا على نفقة الحكومة الفرنسية ، وهو - أى الدكتور طه - بنفسه يذهب إلى فرنسا ويقضى فيها ما شاء من الأيام والشهور ، ثم يعود إلى بلده خالص الأجرة ، ولا يدفع من جيبه فرنكا واحداً هذا إذا لم ينحدر إلى جيبه مالا يعلم إلا الله من الخيرات وشىء آخر ينبغى أن نعده بعض الثمن المقبوض وهو أن جامعة مونبيليه قد منحته لقب دكتور شرف من جملة من منحت من دعاة فرنسا المأجورين » ا . هـ .



البــاب الثالث

آراء طــه حســين
وصــراع مع أهل جيلــه

أولا	آراء طه حسين
ثانيـا	طريقة البحث
ثالثـا	ظاهرة التحول والتناقض
رابعا	الأسلوب والأداء الفنى
خامسا	الاستجواب
سادسا	صراعه مع أهل جيله

الفصل الأول

آراء طه حسين

كانت مجموع آراء طه حسين التى قدمها بعد عودته من أوربا هى بمثابة محاولة لتغيير منطلق الفكر الإسلامى وضرب حركة اليقظة الإسلامية ، وتغريب هذا الفكر بإدخال مجموعات مختلفة من الأفكار والآراء الغربية اليونانية والباطنية والالحادية والاباحية فى مختلف المجالات وكانت أداته إلى ذلك الصحافة والتأليف والمحاضرة ، والعمل فى الجامعة ووزارة المعارف وفى الأحزاب السياسية ، وكانت الأحزاب السياسية والصحافة هما الإطار الذى يتحرك فيه لتغطية خطواته ومواجهة المعارضة والترصد إزاء خطوة أهل الأصالة والحملة عليهم فى عنف.

ولقد قدم فى هذا الأطار وخلال سنوات طويلة أكثر من أربعين عاما هذه السموم.

أولا : دعوته إلى أن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية ، ونشر تقرير المستشرق جريفينى فى جريدة السياسة بعد واحد من مؤتمرات المستشرقين ، وقد واجه هذه الشبهة شيخ العروبة أحمد زكى باشا مواجهة واضحة كشفت زيف جريفينى وطه حسين ووقف طه حسين موقفا غير كريم من أستاذه الذى كان له عليه فضل العطف فى المرحلة الأولى من حياته وقد سجل طه حسين موقفه منه فى وضوح فيا بعد.

ثانيا : عمله على إعادة طبع رسائل اخوان الصفا وتقديمها بمقدمة ضخمة فى محاولة إحياء هذا الفكر الباطنى المجوسى الذى كان يحمل المؤامرة على الإسلام والدولة الإسلامية وكان هدف طه حسين ومن ورائه جماعتا الاستشراق والتغريب هو صب هذه الآراء المسمومة فى بيئة الفكر الإسلامى الحديث لإثارة الشبهات بدعوى أنه عمل أدبى صرف.

ثالثا : إحياؤه شعر المجون والغزل المذكر وكل شعر خارج عن الأخلاق سواء كان جنسياً أو هجاء وقد بدأ الحديث عنهم فى هالة من تكريم حول أبى نواس وبشار والضحاك وغيرهم وجدد أثارهم وأذاع آراءهم وحلل حياتهم ، وقد واجه هذا كثيرون فى مقدمتهم إبراهيم عبد القادر المازنى.

رابعا : ترجمة القصص الفرنسى المكشوف وترجمة شعر بودلير وغيره من الأدب الأجنبى الأباحى الماجن الخليع .

خامسا : أثارة شبهة خطيرة عن أن القرن الثانى الهجرى كان عصر شك ومجون وقد تصدى له كثيرون فنقضوا رأيه وفى مقدمتهم المؤرخ الإسلامى رفيق العظم .

سادسا : قدم فكرة فصل الأدب العربى عن الفكر كمقدمة لدفعه إلى ساحة الإباحيات والشك وغيرها ، وذلك باسم تحريره من التأثير الدينى وقد أخذ ذلك عن الفكر الغربى الذى يختلف عن الفكر الإسلامى الجامع والذى لا ينفصل فيه الآدب عن القيم الأخرى ، والذى يتكامل فيه الآدب مع هذه القيم فى سبيل بناء الإنسان الربانى والإسلام أساساً هو نظام حياة ومنهج فكر جامع والأدب جزء منه .

سابعا : إعلاء شأن الفرعونية وإنكار الروابط العربية ووالإسلامية وتجاهل أثر اللغة والتاريخ فى قيام الأمم .

ثامنا : إشاعة دعوة البحر الأبيض المتوسط والقول بأن المصريين غربيو العقل والثقافة وأن الفكر الإسلامى قد قام على الاتصال بالفكر اليونانى فى القديم وأن هذا لا يمنع أن يكون تحت تأثير الفكر الغربى الحديث الذى هو وريث وامتداد الفكر اليونانى وذلك رأى مسموم ردده طه حسين طويلا وهاجمه عدد من المفكرين .

تاسعا : الادعاء بأن الشاعر أبا الطيب المتنبى « لقيط » وهذه دعوى باطلة أقام عليها كتابه « مع المتنبى » متابعا رأى الاستشراق وهادما لبطولة شاعر عربى نابه .

عاشرا : مؤامراته المتعددة على القرآن ومحاولاته المتكررة لإثارة الشبهات حوله والادعاء بأنه يمثل نمطين نمطاً مكياً ونمطاً مدنياً وأنه متأثر باليهودية وأنه منقول من الكتب القديمة وقد كشف الباحثون زيف هذا الأدعاء .

حادى عشر) اتهامه الخطير لابن خلدون بالسذاجة والقصور و فساد المنهج وهو ما نقله فعلا من المؤرخ الفرنسى اليهودى دوركايم .

ثانى عشر : اعادة خلط الإسرائيليات والأساطير إلى السيرة النبوية بعد أن نقاها المفكرون المسلمون منها والتزيد فى هذه الإسرائيليات والتوسع فيها ، وذلك فى كتابه على هامش السيرة ، وقد عارض هذا الاتجاه الدكتور محمد حسين هيكل .

ثالث عشر : حملته على الصحابة والرعيل الأول من الصفوة المسلمة وتشبيههم بالسياسين المحترفين فى كتابه (الفتنة الكبرى) وقد كشف زيف هذا الاتجاة الأستاذ محمود محمد شاكر .

رابع عشر : إثارة الشبهات حول ما زعمه من تأثير للوثنية واليهودية والنصرانية فى الشعر

العربى والأدب العربى.

خامس عشر: دعوته إلى إعلاء شأن الأدب اليونانى على الأدب العربى والقول بأنه لليونان فضل على العربية وقد كشف زيف هذا الرأى الدكتور زكى مبارك.

* * *

هذه هى أغلب وأهم الآراء والأفكار التى طرحها طه حسين فى أفق الفكر الإسلامى. وهى لا تشكل نظرية معينة أو منهجا كاملا، وإنما هى نظرات مفرقة قوامهـا التناقض والتحـول والانتقال من الرأى إلى ضده حسبا يرى الظرف مواتياً لبث شبهته أو التقية فى عرضها.

قوام فكره الشك الفلسفى، وقوام أسلوبه التكرار، وقوام منهجه التضـاد وهو لا يثبت على صورة واحدة ولا منهج واحد، وإنما هو يعتمد فى الأساس على غاية واحدة أسـاسية وأن تكن الصور والوسائل والأساليب اليها متغيرة دائما فى مكر ومرونة - وفى عقله ونفسه يكمن الباعث والهدف، وهو لا يكشف عنهما بسهولة، ولكنه يخفيهـا وراء كلمات براقة كالحـرية أو العـلم أو الحضارة ويجعل ضربات معـولة إلى مؤسسـات ظـاهرة: الحـزب، الأزهر، الوزارة، وزارة المعارف، الجامعة الخ.

وهو يتحرك دوما على طريق جـديد ويركب الموجـة السـائدة، وإذا عاد من أوربا بعـد الصيف كانت هناك خطة وعمل جديد، على نفس الطريق يسـتكمل به عملية الغـزو فى ناحية أخرى، فهو مرة فى الشعر الجاهلى أو أدب الشـاكين والماجنين، أو هامش السـيرة، أو الفتنة الكبرى، أو مستقبل الثقافة، أو ترجمة القصـة الفـرنسية المكشـوفة، أو مهـاجمة الأزهر، أو الدعوة إلى الفرعونية أو إعلاء شأن الأدب اليونانى، الخ.

وهناك أساسيات لا تتخلف هى مواجهة الإسلام والقرآن والنيل من التراث الإسلامى على نحو أو آخر، وقد شغلته دائماً مسألة القرآن والإسلام والعقائد.

فهو يدعو طلاب كلية الآداب إلى اقتحام القرآن فى جرأة ونقـده بوصـفه كتاباً أدبياً يقـول فيه هذا حسن وهذا.. (كذا) ويعلن فى آراء ألقاها فى الجـامعة وأوردها عبد الحميد سـعيد فى مناقشة فى مجلس النواب وأوردها تلاميذه فى الصحف (الكوكب ١٠، مارس ١٩٢٨) مثلا أنه حاول دراسة القرآن دراسة فنية، وأثار الشـبهات حـول كلمة الكتاب وكلمة القـرآن وقال إن الكتاب غير القرآن وأنه كان موجوداً قبل إنزال القرآن وأن القـرآن صـورة عربية منه، وأنه أخذ صورا من قبل كالتوراة والإنجيل.

ومما قال : ان هناك قرآناً مكياً له أسلوب وقرآناً مدنياً له أسلوب آخر . القسم المكى يمتاز بالهروب من المناقشة والخلو من المنطق (تعالى الله وكتابه عما يقولون علوا كبيرا) وأما القسم الثانى فيناقش الخصوم بالحجة الهادئة ، ومنطق هذا القول كله أن طه حسين لا يؤمن بالقرآن منزلا من عند الله ولكنه يراه من وضع النبي محمد ويتابع المستشرقين وكازانوفا على الخصوص فى هذا الاتجاه .

وقد كذب الباحثون رأيه هذا وزيفوه : وكشفوا عن أن القرآن المكى ملىء بأقوى البراهين وأروعها وأظهرها وأنصفها وأقعها للجاحد وأملكها للقوى المعاند وأن القسم المكى لم يكن يهرب من المساجلة وإنما كان يقتحمها وما كان يولى الأدبار بل كان يقدم على الخصومة إقدام الواثق بقوته المؤمن بحجته المطمئن إلى عزة الحق وفوز اليقين .

ويقول أحد الباحثين الأعلام : لا أدرى كيف يتسنى للطاعن أن يزعم خلو القسم المكى من المنطق وهروبه من المناقشة . وأكبر الظن أن الطاعن لم يفهم أدلة القسم المكى ولا براهينه وأعجزه أن يستنبط فتورط فيا تورط فيه ، ولا أظن أنه يعلمها ويغالط فيها لا أخال خصما يحترم نفسه يلجأ فى المغالطات إلى إنكار الوقائع المادية . ويقول الباحث : أصحيح أن القسم المدنى هو الذى كان فيه الحجة والبرهان ؟ إننا نجيب على ذلك أولا بتسليم ان القسم المدنى فيه برهان ومنطق ، وثانيا أن القسم المكى كذلك مفعم بالمنطق والبرهان وأنه ما كان يهرب من المناقشة بل كان يقرع بالحجة ويصول بالدليل وإن الناقد نفسه ليعيننا على نفسه ويقدم لنا الدليل على نقض قوله فهو يلق اليه بانه قول الله (لو كان فيهما إلا الله لفسدتا) فيه حجة هادئة وبرهان ساكن رزين ولكنه يزعم باطلا أنها من المدنى لا المكى .

ونحن نقول له وللناس جميعا إنها مكية لا مدنية وإثبات ذلك سهل يسير فتلك الآية من سورة الأنبياء وسورة الأنبياء مكية .

ويشكك طه حسين فى لفظ القرآن أهو عربى أم تشترك فيه لغات أخرى أم هو لفظ استعير من اللغة العبرية . ويثير شبهة خلق القرآن ويتحدث عن الحروف الأوائل فى بعض السور (ألم ألمر . طه . يس . ن . ق) ويقول : هل لهذه الحروف معنى مستقل بذاته أو هى أشياء يجب أن يقف عندها العقل ويكل أمرها إلى الله كما يقول الفقهاء . ويقدم ثلاثة مذاهب فى الصراع : مذهب المتصوفة ومذهب أهل اللغة والنحو ومذهب المفسرين .

ويقول أن لفظة سورة أخذت من لفظ ثورة العبرية بمعنى سلسلة وهكذا يمضى الدكتور طه فى إثارة الشكوك حول القرآن فى دراساته فى الجامعة وتحت تأثير التبعية يقدم فى مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة اكسفورد بحثا عن ضمير الغائب واستعمال اسم الإشارة فى القرآن . (سبتمبر ١٩٢٨) ويحاول بعد عودته أن يمنع ترجمته ثم تستطيع الصحف أن تحصل

عليه فإذا هو شيء ملىء بالشكوك والشبهات يجرى فيه مجرى المستشرقين ويتابع خطواتهم وقد اطلق الأستاذ مصطفى صادق الرافعى على استبدال طه حسين ضمير الغائب باسم الإشارة عبارة طريقة هي (بيع الذهب بالملح) وقال إن محاولة طه حسين هى القول بأن ضمير الغائب فى آيات كثيرة من القرآن هو اسم إشارة وزعمه أن هذا الذى تأوله فى تفسير الضمائر يحل مشكلة عدم المطابقة بين الضمير وما يرجع اليه وتصحيح ما خبط فيه المستشرقين من توهمهم ان فى القرآن خطأ نحويا إذ يرون الضمير قد رجع متأخرا أو يرجع إلى محذوف مفسر بما يدل عليه وجها من أوجه الأدلة ويقول الباحث (طه حسين) الواقع أن القرآن لم يخطىء (هكذا يكون الذوق فى التعبير) وإنما قصر النحويون حينما وضعوا قواعد النحو فلم يستوعبوا القرآن (كذا) والشعر ولم يستقصوها (كذا).

ويمضي طه حسين فى الحملة حثيثا ومن ذلك قوله فى تحقيق النيابة : إن العلم شيء والكتب الدينية شيء آخر وانكاره وجود ابراهيم وإسماعيل وبنائهما الكعبة.

وفى السنوات الأخيره من حياة طه حسين كان لايزال الرجل يردد شبهاته وفى مجلس ضم اللواء محمود شيت خطاب الذى روى لى القصة (عام ١٩٧٢ تقريبا) قال طه حسين : أن القرآن كان غير منقط ولذلك فقد حدث فيه اختلاف كثير فهناك كلمات تنطق كذا وكذا فتبينوا ، فتثبتوا ، الخ.

قال شيت خطاب : يا دكتور إن الله يقول (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) هل لو كانت هناك كلمات اختلف فيها أما كان الفقهاء والمفسرون سجلوا ذلك ، إننا لا نجد فى كتب التفسير أو القراءات ما يدل على ما ذهبتم اليه ، ان ما تقولون به هو ما قاله ما سينبون وغيره من المستشرقين افتراء على القرآن والإسلام ولابد من مواجهة هذا والجهاد فيه.

وصمت طه حسين لحظة : قال : لماذا لم تقولوا لى إن فلانا هنا معنا ، إنى أعتب عليك يا دكتور مذكور !

ومما كان يردده طه حسين قوله : إذا كان من حق الناس جميعا ان يقرأوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفنى ألا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا الدرس والفهم ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هى كتب مقدسة».

ولا ريب أن طه حسين كان يهدف بهذا إلى : كسر « القداسة » القرآنية وجعل القرآن موضع نقد فنى أدبى كالتوراة ، وهو يعرف أن التوراة من وضع الأحبار وقد اعترف الغربيون فى أبحاثهم بذلك أما القرآن فهو من عند الله وهو سقف اللغة العربية كما يقول (جاك بيرك) فكيف يوضع هذا الموضع ولكن هى حملة التغريب.

ويتصل بهذا رأى طه حسين فى الدين جملة : يقول (ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية ومما وصل اليه العلم من النظريات والقوانين فالدين حين يثبت وجود الله ونبوءة الأنبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم ، فالعالم الحقيق ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر إلى الفقة وكما ينظر إلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وإذن نصل إلى أن الدين فى نظر العلم لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ».

وهذا هو مقطع الرأى فى عقيدة طه حسين ونظرته إلى الدين الإسلامى بعامة والقرآن بخاصة ومن أجل هذا فهو يقول فى كتابه مستقبل الثقافة : الدين الإسلامى يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومى لا كدين الهى منزل بين الشرائع للبشر فالقوانين الدينية لم تعد تصلح فى الحضارة الحديثة كأساس للاخلاق والأحكام ولذلك لا يجوز أن يبق الإسلام فى صميم الحياة السياسية أو أن يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين.

وتلك هى أقوى ركائز فكر طه حسين كله ومنطلقه التغريبي الواسع هو منطلق عقدى يقوم لديه مقام اليقين الصادق . ولقد أفرد الدكتور اسماعيل أدهم أحمد فى كتابه عن طه حسين فصلا كاملا تحت عنوان (دين طه حسين) تحدث فيه عن عقيدته فقال (ليس الدكتور طه برجل متدين بالمعنى الذى نعرفه من الدين إنما هو مفكر حر التفكير ينظر إلى الدين نظرة العالم وهو يوافق دور كايم الاجتماعى المشهور فى أن الدين نبع من الجماعة نفسها غير أن الاسلام الذى يقول به الدكتور طه ويؤمن به غير الإسلام الذى عرفه المسلمون ثلاثة عشر قرنا أسلمت للقرن العشرين صورة من الاعتقاد اللاهوتى المنهى عرفه الناس بالإسلام ».

وقد هوجم الدكتور طه من ناحية عقيدته هذه ورأيه فى الدين والإسلام كما ناقشه الرافعى ، فى اعتقاده القائل بأن الدين يتبع الجماعة فى تطورها وقرر أن الدين هو اقرار الألوهية والاستدلال عليها بأثارها ومتى تناول الدين شؤون الناس والحياة ومن طريق الاجتماع كما هو فى الإسلام فقد توثقت الصلة بينه وبين العلم (تحت راية القرآن ص ٢٧٦) ويقول لعل هنا خطر فرض مفهوم جديد للإسلام من خلال طه حسين يستدل به فيما بعد ، فطه من خريجى الأزهر وهو يريد أن يؤكد صلته بالإسلام فهو مسلم من ناحية الشعور وحده أما من ناحية العقل فهو حر الفكر يصرف حرية فكره نحو الالحاد.

ويقول : ولقد هوجم الدكتور طه من ناحية عقيدته هذه ورأيه فى الدين والإسلام وقد رماه الرافعى بأنه كافر ملحد وأنكر عليه وجود ناحيتين فى الإنسان ناحية المشاعر وناحية العقل.

ويقول إسماعيل أدهم أحمد : إذا يمكننا أن نقول أن الدكتور طه حسين حر الرأى ، محمول فى

حرية فكره على الالحاد وعقيدة الدكتور طه فى (الله) غامضة ولم يحاول أن يفصح عنها ولربما كان غير مؤمن بالله لأنه باعتقاده أن الله من خلق الوهم والجهل فى الإنسان يدفع عنه القدسية.

وقال إن طه حسين ثائر على الأديان ملحد من ناحية ارتضاها عقله فسكن إليها شعوره.. فالدين عنده ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها.

هذا ما أورده إسماعيل أدهم أحمد أحد أعوان طه حسين على نفس الطريق وليس من خصومه وهو يكشف عن خبيئة الرجل التى حاول إخفاءها وراء كتاباته الماكرة وقد قال الكاتب هذا وسجله فى الأربعينات.

ومن هذا المنطلق نفهم رأى طه حسين فى مادة الإسلام دين الدولة التى تضمنها الدستور حيث يقول (لم أكن فى اللجنة التى وضعت الدستور القديم ولم أكن بين الذين وضعوا الدستور الجديد ولم يستشرنى فى أولئك ولا هؤلاء فى هذا النص الذى اشتمل عليه الدستور الذى يعلن أن للدولة المصرية دينا رسميا هو الإسلام. ولو استشارنى أولئك أو هؤلاء لطلبت اليهم ان يتدبروا وأن يتفكروا قبل أن يضعوا هذا النص فى الدستور، كوكب الشرق ١٢ أغسطس ١٩٣٣

ولم يكن هذا هو غاية ما وصل اليه طه حسين فإنه كتب قبل ذلك فى مجلة الحديث التى تصدر فى جلب ناقدا لهذه المادة ساخراً بها مصوراً مدى خطرها على حرية الفكر التى يدين بها.

وليس على الذين يشكون فى خصومه طه حسين للإسلام من بأس إذا وضعوا بين أيديهم مثلا عبارته التى يقول:

فلأمر ما أقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى لفظة للغة العرب (فى الأدب الجاهلى ص ١٤٦) وقد سجل تقرير اللجنة التى كلفها الأزهر دراسة كتابة الشعر الجاهلى والمشكلة من محمد حسين الغمراوى وأحمد العوامرى ومحمد عبد المطلب وعبد الحميد حسن هذه الحقائق والمعروف أن اللجنة أعادت النظر فى كتاب الأدب الجاهلى أيضا وهى حقائق تؤكد هذا الأتجاه فقد أشار إلى ما يلى:

(١) أضاع على المسلمين الايمان بتواتر القرآن وقراءاته وانها وحى من الله.
(٢) أضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم.
(٣) أضاع عليهم الثقة بسيرة النبى فى كل ما كتب فيها.

(٤) أضاع عليهم الاعتقاد بصدق القرآن وتنزيهه عن الكذب .
(٥) أضاع عليهم تنزية القرآن عن التهكم والازدراء بما كتب فى سورة الجن وصحف إبراهيم .
(٦) أضاع عليهم تنزيه النبى وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف .
(٧) أضاع عليهم ما وجب من حرمة الصحابة والتابعين .
(٨) أضاع عليهم صدق القرآن والنبى فيما أخبروا به عن ملة إبراهيم .
(٩) أضاع عليهم براءة القرآن مما رماه به المستشرقون .
(١٠) أضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسله وكرام خلقه .
(١١) التشكيك فى علاقة القراءات السبع بالوحى .

وهذه الخيوط والمعانى كلها التى أوردها طه حسين عام ١٩٢٦ فى كتابيه الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى لم تتوقف عن الظهور والحركة والتوسع فى كل آثاره من بعد وحتى نهاية حياته فإنك تجدها واضحة فى كل آثاره وخاصة كتاب مستقبل الثقافة وكتاب الفتنة الكبرى وكتاب هامش السيرة وكتاب مرآة الإسلام وهى آخر ما كتب فى حياته ومن هنا نجد آراء طه حسين التى قدمها بعد ذلك تجرى فى هذا النطاق قوة وضعفا وبروزاً واختفاء مع سبق الإصرار والترصد ومن هنا نجده يقف موقفه المشين من العرب والمسلمين وتاريخهم فيقول أن العرب فاتحون كالرومان والفرس ويقول ان البيان العربى نسجت خيوطه من البلاغة الفارسية فى الصورة والهيئة ومن البلاغة اليونانية فى الملاءمة بين أجزاء العبارة . ويرى ان الدين مهما بلغت أهميته العاطفية لا يستطيع أن يوجه الحياة السياسية ، ففكرة الأمة يجب أن تقوم على غير المفاهيم الدينية وهو هنا يعرض منطلق الفكر الغربى بالنسبة للمسيحية ولا يفهم الفوارق العميقة بين كلمة دين وكلمة إسلام أو ما بين الإسلام والأديان الأخرى من فوارق جعلت الإسلام دينا ومنهج حياة وليس ديناً لاهوتياً خالصاً .

وهو فى هذا الاتجاه ينكر « ذاتية الحضارة الإسلامية » وأثرها الواضح المختلف عن الحضارات التى سبقتها ويجرى وراء الاستشراق فى القول بأن الدور الذى قام به العرب هو الدور الذى قام به من سبقهم من شعوب البحر الأبيض المتوسط كالايجيين والفينيقيين واليونان والرومان وأن العرب ليسوا إلا وسطاء بين الأمم والحضارات ، وهو داعية إلى الاقليمية المصرية فى وجه العروبة » .

يقول : « لا تصدقوا ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة فالفرعونية متأصلة فى نفوسهم وهى ستبقى كذلك بل ويجب أن تبقى وتقوى . لا تطلبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها وإلا كان معنى طلبكم : اهدمى يا مصر أبا الهول والأهرام وانسى نفسك واتبعينا » .

وهذا القول لم يقله سلامه موسى ولا جرجس فلتاؤس عوض دعاة الفرعونية الأصلاء ،

ولكن هذا القول لم يمض دون رد ودحض وتزييف.

ومن هذا الاتجاه ما أورده من قوله إن عقلية مصر عقلية يونانية.

وقوله بالباطل إن الاسلام لم يغير هذه العقلية وهو مادحضه الكثيرون وكشفوا زيفه وفى مقدمتهم زكى مبارك الذى قال: إنك تعرف ان مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية والأمة التى تقضى ثلاثة عشر قرناً فى ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة هذا الدين.

وهكذا نجد أن حرب طه حسين للإسلام موجهة إلى كل طريق، فهو يشيد بما أسماه العقلية اليونانية التى تلقت الدرس من مصر الفرعونيه والتاريخ يشهد بأن مصر حين دخلت الإسلام فصلت بينها وبين ماضيها كله الفرعونى واليونانى والرومانى بل إن كل العالم العربى من سوريا إلى آخر المغرب الذى عاش ألف سنة فى هذه التبعية، سرعان ما نفض نفسه وآمن بالإسلام واتخذ لغته، وفصل بينه وبين ذلك الماضى تماما حتى قام ما يسميه علماء التاريخ الآن بالانقطاع الحضارى عن الفرعونية واليونانية والوثنية من ناحية وبين الإسلام.

ولقد كان من أخطر ما دعا إليه طه حسين: فصل الأدب العربى عن الفكر الإسلامى باسم تحريره وهى محاولة باطلة زائفة كشف ضلالها وزيفها كل من عرف قدراً من الأصالة للفكر الإسلامى والأدب العربى وقد سقطت تماماً ولكن المستشرقين ما يزالون واتباعهم ما زالوا حتى الآن يرددونها ويجددونها ويرون إنها ركيزة من ركائز التغريب.

فيقول المستشرف كامفاير: أن المحاولة الجريئة التى قال بها طه حسين ومن يشايعه فى الرأى لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية: هى حركة لا يمكن تحديد آثارها على مستقبل الإسلام.

إن فكرة طه حسين فى دراسة الأدب العربى الإسلامى المصدر كما يدرس العالم الطبيعى علم الحيوان والنبات هى فكرة زائفة ضالة وقد كشف الغربيون أنفسهم زيفها حين فرقوا بين منهج العلوم التجريبية ومنهج العلوم الإنسانية وهى لم تكن مقبولة يوماً فى افق الفكر الإسلامى وقد ردها وسيردها كل واحد من أهل الأصالة الحقة.

وقد حاول طه حسين جرياً على طريق الفصل بين المصريين والإسلام أن يربط الثقافة باليونان والواقع أنه ليس لمصر ثقافة خاصة منفصلة عن الثقافة العربية الإسلامية المصادر.

وقد ووجه طه حسين بالرد الحاسم حين قال له الأستاذ حسن البنا إذ ذاك:

« إن مصر بتاريخها الإسلامى الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية، ولعل تاريخها الحديث ونهضتها الحاضرة بين الأمم التى قامت على دعامة من فكرها الإسلامى وثقافتها الإسلامية خير دليل لمن يريدون الميل بها عن الينبوع الذى استمدت منه مئات السنين مادة قوتها وتماسكها وطابعها الخاص بين دول الشرق والغرب ».

الفصل الثانى

طريقة البحث

هل يمكن القول بأن للدكتور طه حسين طريقة للبحث ؟

الواقع أن الدكتور طه حسين استعراضى الطريقة إذا صح هذا التعبير ، أى أنه ينطلق من الذوق ومن الذاتية ومن الرغبة المنطلقة إلى الغاية الكامنة فى أعماق النفس ، ولم يكن من الميسور أن يطالب الدكتور طه حسين بأن يكون له منهج علمى لأن هذا يتطلب أدوات لا تتيسر لرجل مثله مستعين بغيره ولذلك كان مجاله مقصوراً على النقد الأدبى الذى يقوم على الذوق وكتابة القصة وهى تقوم على الخيال والاستعراض التاريخى والسياسى وهو ما يستطيعه كل من يمسك القلم أو يملى .

ولقد حاول طه حسين أن يقول بأنه يمتلك الأداء العربى والأسلوب الفرنسى وأنه يجمع بين الطريقتين العربية القديمة والغربية الحديثة ولكنه عجز عن شىء واحد هو الانصاف والارتفاع عن الظن وما تهوى الأنفس .

وقد أيد هذا المعنى كثير من الباحثين الذين عرضوا لآثار طه حسين وكتبوا عنها وقد أوضح هذا الجانب اسماعيل أدهم أحمد فى بحثه عن طه حسين حين قال : إنه يمزج التحقيق العلمى بالفن فتضعف معرفة الجانب العلمى فى إثارة وهذا جعل الكثيرين ينكرون على طه حسين الناحية العلمية فى دراساته خصوصا إذا لمسوا شيئا من عدم التحوط فى البحث وبعض التطرف فى الاستنتاج والسطحية فى استقصاء الأسلوب » .

وظاهره السخرية والاستهانة وعدم الجدية واضحة فى طريقة طه حسين يسجلها عليه أقرب الناس اليه فيشير اسماعيل أدهم إلى أن طه لاعب له روح الطفل الذى يريد أن يلعب ويلهو ، يقول « وأنت ترى فى كتابه (مع المتنبى) يظهر لك بروح الطفل الذى يلعب فهو يلعب ، ودائما يلعب ولعبته كانت فى كتابه مع المتنبى ، حياة المتنبى نفسها ، فانت ترى طه يثير مواضيع خطيرة تؤلب الرأى العام عليه فتظنه جاداً فى بحثه ولكنه سرعان ما يكشف من وراء هذا « روح » الطفل الذى يعمل (العملة) ويقعد يتفرج .

واستشهد فى ذلك بالمازنى الذى قال : ان لطه عناية بالمسائل التى بين العواطف والشعور ، من جهة ، وبين العقل من جهة أخرى ، فتراه يؤثر أخبار الزناة وذا كلف بتناول المجانة وأهل الخلاعة من شعراء العرب وتلخيص القصص التى تدور على الخيانات وما إليها وتسويغه ذلك والاعتذار له حتى لكأنه يحاول أن يقول بلسانه غير ما تلج به الرغبة فى الكشف عنه والافضاء به من مكتونات قلبه وترى للغريزة أثراً فى ذلك من صنع آرائه ونظرته للحياة التى لم ترو عند طه فى شبابه أخذت طريقها للداخل لترتوى عن طريق الآثار الفنية وعن طريق الخيال الحر وما دامت الصلة بينه وبين أدب الدكتور طه وفنه وأرائه وبين شخصه فى ضوء العوامل التى كونته قائمة فلنا أن نفرض نجاحنا فى معرفة شخصيته ولقد أثرت هذه العوامل والمؤثرات فى نفس طه حسين فاستجاب لها وفعلت فى عقليته عن طريق اللاشعور فتكيفت تبعا لها اثاره الفكرية والأدبية والفنية .

ويرى اسماعيل أدهم ان فن طه حسين قائم على الاغراق والتهويل ، وان الصور التى يقدمها من الحياة يضفى عليها خياله العميق صوراً فتخرج غارقة فى تهويل وإسراف تهز نفس القارىء وتجعله يؤخذ بما فيها من تهويل ويرجع التهويل والإغراق إلى روح اللاعب ومعالجته بهذه الروح للأشياء .

وهكذا ترى مغمزا من مغامز الاستقامة الفكرية وأسلوب الأداء والتعبير وطريق البحث فإذا أضفنا اليها فى مجال النقد الأدبى عجزه عن دراسة الأدب العربى دراسة وافية وأنه لا يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من إجراء المقارنة بينه وبين الآداب الفاريسية وغيرها وافقنا ما وصل إليه اسماعيل أدهم وغيره من شبهة : « عدم استيفاء أدوات البحث العلمى » .

ومع عدم استيفاء أدوات البحث العلمى يأتى (الظن) وله فى أدب طه حسين مجال ضخم ، ومن بعد الظن يأتى الهوى .

(إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس)

يقول أدهم . والدكتور طه فى نقده للمؤلفات العصرية والأدباء والشعراء المعاصرين يميل كثيرا مع هواه لأنه يعتبر النقد عملا أدبيا محضاً فيعمل على إظهار تذوقه وتتجلى شخصيته بأغراضها وأهوائها فى نقداته ومن السهل أن تستكشف عواطف الدكتور وميوله بل وأهوائه وأغراضه ، تستكشف إنه متأثر بالحب فى هذا الفصل وبالصداقة فى ذلك الفصل وبالبغض والحسد فى ذياك الفصل ومن هنا يرى الكثيرون أنه ليس بعالم ولا يستطيع أن يكون بعالم وهذا صحيح وفى منطقه منطق الباحث ولكن إذا مضى يملى فانه يسبغ على أغراضه وأهوائه من منطقه وتفكيره ما تتضح به آثاره من تخالط المنطق بالأغراض والتفكير السليم بالأهواء ويتطرف بحك الهوى والأغراض أضعاف تطرفه الطبيعى فيصعب على الباحث أن يخلص

بالجوانب العلمية المحضة من اثاره والنواحى الأدبية الصرفية هكذا اختلطت الناحية الفنية بالعلمية عند طه مع غلبة للفن على العلم فكان نسيجاً وحده بين المفكرين (كذا) .

والواقع أن تعبيرات اسماعيل أدهم فيها كثير من المجاملة وإن كانت فى هدفها الحقيق تشير إلى فساد الطريقة التى يقوم عليها فكر طه حسين وأداؤه .

وفى مجال الكشف والاباحة فى أدب طه حسين يقول زكى مبارك : إن طه حسين أعلن رأيه فى كتابه (مدامع العشاق) فقال أنه يحرض على الشهوات ونحن نسأل : إذن فماذا يسمى كتاب (حديث الأربعاء) وما مدى أثره فى التحريض على الشهوات » ؟

ولا ريب ان اتجاه طه حسين إلى أدب الكشف والاباحة من خلال كتاباته عن الشعراء المجان له هدف داخل فى طريقته ومنهجه ودعواه المسمومة التى أعلنها حين قال : إن حرية الفن تحقق ما أسماه خسرت الأخلاق وربح الأدب وتلك هى دعوته إلى الخروج عن الأعراف والمواصفات الخلقية إلى التعبير الحر عن الأهواء والنزوات وهذا هو هدفه الحقيق من فصل الأدب عن الفكر الإسلامى ، حتى يتيح له الانطلاق وراء هذه النزوات ليفسد المجتمع ، وأن وراء مصطلحات : الفن للفن ، والصدق الفنى أهواء شديدة الخطر قد رددها كثير من الباحثين فى نقدهم لنتاج طه حسين .

ومن هذا المنطلق نجد دعوته إلى تحريض المرأة على الرجل ودعوته إياها إلى مخالفته والخروج عن ولايته وكذلك إلى إعطاء الفتاة حرية الشباب وألا تحرم منها بحجة التقاليد وقوله فى تربية الأبناء إنه تركهم لأنفسهم وكل هذه هى آراء الماسونية العالمية التى احتضنتها مناهج الفكر الفلسفى المادى أداها فرويد ودوركايم وسارتر ومن ذلك ذهابه بجرأة غريبة إلى القول بأن العصر العباسى كان كله عصر شك وزندقة وفجور ومجون واتخذ كنموذج لهذا العصر أبا نواس ووالبةومسلم بن الواليد وأمثالهم من شعراء اللهو والعبث واعتمد على كتاب الأغانى فى اصدار كثير من الأحكام التى أصدرها من غير تحرج ولا احتياط وقد كشف زيف هذه الآراء كل الذين ناقشو آراءه وقد حاول زكى مبارك فى عديد من مقالاته أن يكشف فساد الطريقة فى فكر طه حسين فقال : لقد انكشف أمر طه حسين منذ أصدرت كتاب النثر الفنى فقد بينت أغلاطه وسرقاته وتحديه أن يدافع عن نفسه فتخاذلت قواه ولم يملك الجواب وعرف الأدباء فى المشرق والمغرب انه لا يملك شيئا أصيلا وأن مؤلفاته ما هى إلا هلاهيل انتزعها من كلام الناس وأن ما يدعيه من الآراء ليست إلا صوراً ملفقة انتزعها مما يقرأ ويسمع وإن هذا الرجل لم يكن فى كل أدوار حياته العلمية إلا مرتزقاً يتلمس فتات العلماء كلما نصبوا موائدهم أو أوقدوا نارهم ولم يستطع إلى اليوم أن يواجه تلاميذه ببحث أصيل ، وقال إنه لا يحسن أسلوب الكتابة إذا حاكمته إلى الذوق العربى والبلاغة اللغوية وهو ليس متخصصاً بدراسة تاريخ الأدب ، لم يتلقه عن أستاذ ولم يلم به فى مدرسة وإنما علم من ذلك ما يعلق بذهنه من

مطالعة كتب الأدب لا ليدرسها ولكن ليراها . وآية ذلك تكذيب القرآن والتوراة والانجيل وتهوين شأن النبي محمد ونسبته إلى التحايل بالأساطير والتهكم بالأجلاء من الصحابة ورميهم بالمخاتلة وعدم التأثر بتعاليم الإسلام إلا ظاهراً وبتكذيب صريح الأحاديث الصحيحة وتعطيل أحكامها والخلط فى الأعراض والأنساب والنتائج والأسباب .

ويقول العقاد : إن طه حسين صحيح الأصول فى النقد ولكنه لا يوفق بين أصوله وطبيعته فى كثير من الموضوعات وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف أحياناً عن الصواب ، أليس الدكتور يوصى بمبدأ الشك أو منهب ديكارت ، بلى ، ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها فى عبارات الشاكين المترددين فلا يعجب أكبر ما يعجب إلا أشد الاعجاب ، أو إعجاباً لا حد له ، ولا يقنع بما دون الاسراف ولا يغضب الذين يتحدث عنهم إلا غضباً شديداً ولا يضيق إلا أشد الضيق ، ولا يتكلم إلا بصيغة المبالغة فى معظم الأحيان ثم ينتقل من هذا إلى تشكيك يذكرك (بإن شاء الله) التى قالها جحا حين ضاع المال فقال ضاع المال إن شاء الله ، كان الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جحا من تلك إلى يشبهها فضاع ماله فأنت تسمع منه .

أزعم أننى ضحكت ، قد أزعم ، وقد أتردد ، وقد أقول ، قد لا أقول ، مع أن المرء لو أقسم جاهداً « والله لأزعمن ، وتالله لأترددن ، وبالله لأقولن ، لما خرج بالقسم عند الزعم من دائرة الشكوك والقاعدة تستقر على اطراد إذا كانت هى والطبع على وفاق غير أنها عرضة للاختلاف إذا وقع بينهما الخلاف . ومن هنا ترى الدكتور يقول مرة : إن أصول النقد الأدبى واحدة قد وضعها اليونان قديما وفرغوا منها وتلقاها منهم الانجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لا يختلفون . ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة إن النقد ليست له أصول مقررة عند الناقد فضلا عن الأمم الكبيرة والعصور الكثيرة وإن الناقد يستحسن أو يستهجن والمرجع إلى ذوقه وحده فى استحسانه أو استهجانه ولعل هذا التباين بين القاعدة والطبع هو الذى جعل الدكتور ينكر الجديد إذا جاء فى زى القديم أو هو الذى جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها فى حكم الطبيعة لأنه يجرى فى مطابقته على القياس »ا هـ

وإذا كان هذا هو رأى زميل عمره والرجل الذى دافع عنه فى مجلس النواب إزاء الحملة على كتابه الشعر الجاهلى هو هذا ، فإن ذلك هو رأى أساتذته أيضا فى الأزهر والجامعة القديمة التى لم تكن جامعة بالمعنى المفهوم منها وإنما كانت قاعة محاضرات مفتوحة لكل من يريد بغير قيد .

يقول السيد محب الدين الخطيب : لا أنسى والشيخ طه حسين طالب فى الجامعة المصرية كلمة سمعتها من فم أستاذه الشيخ محمد المهدى فقد حضر ذات مساء من درس الآداب العربية فى الجامعة وجاءنا فى مجلس حافل كان فيه الشيخ طاهر الجزائرى ورشيد رضا وجعل يشكو

السلاطة والذكاء ثم قال لنا الأستاذ :

« إن رأس هذا الفتى كالقدر الفارغة تحتها النار تتلظى فلا هو يشفق على القدر فيملؤها بما يقيها جور النار ولا هو يبقى على النار إلا أن يتسنى لها الانتفاع بها فى الوقت المناسب » يريد الأستاذ المهدى أن طه حسين يتسرع فى اقتحام الأبحاث العلمية مخدوعا بذكائه ومكتفياً بما يقع تحت يده من كتب قريبة المآخذ ظانا منه أن فيها العلم كله وأن فى الذكاء وطول اللسان غنى عن مواصلة البحث ومواصلة الاستقصاء ».

ويتفق هذا مع ما قاله بعض المقربين إليه (لا أدرى الزيات أم أحمد أمين أم غيرهما) من أن كتابات طه حسين كالخروب أغلبه خشب وأقله سكر ، فهو يداور المسائل ويلف ويوسع ويصعد وينزل حتى يكتب خمس صفحات فى موضوع يمكن إذا أردت تلخيصه أن يقع فى خمسة سطور .

ولعل زكى مبارك لم يكن مبالغا حين قال : عرفته رجلا قليل الإطلاع ، لا يفهم الشعر إلا بعنف شديد وقد ألقى محاضرة عن البحترى فكتب زكى مبارك فى جريدة البلاغ يقول : (الدكتور طه يخطىء خمس مرات فقط فى محاضرة واحدة) .

يقول مبارك : فلما ظهرت الكلمة انزعج الدكتور انزعاجا وسارع أصدقاؤه فرجونى أن أكف عنه لا سيما وإنه رجل أخرج من الجامعة وهو يحاول أن يكسب قوته فى جريدة كوكب الشرق . فسكت عنه يومئذ إيثاراً للترفق برجل ضعيف . لقد درست طه حسين من جميع نواحيه فوجدته قليل العلم جداً ورأيه ضعيف أبشع الضعف فى فهم النصوص ولم يقرأ فى حياته كتاباً كاملا وإنما فقرات من هنا وهناك وكان طوال حياته ظلا من الظلال فى عالم السياسة ولم يترك حزباً إلا خدمه ودبج فى تقريظه ألوانا من الرسائل الطوال ، والدكتور طه مقلد فى كل شىء حتى لتراه يهز كتفيه على الطريقة الفرنسية .

ويقول زكى مبارك : إنه ينقل من كتب الغرب ، فأحيانا ينقل الأسماء العربية بفرنسيتها دون أن يتنبه لها . وقد نشرت له جريدة السياسة محاضرة كان ألقاها جاء فيها :

« ولكن شجرت بين الفريقين اليمانيين والقيسيين (معركة مرجرات) هذه كلمة لا يعرفها العرب ، وإنما هى (مرج راهط) وعذر الدكتور طه أنه كان يذهب إلى حديقة المستشرقين فى الليل ينتهب تفاحة أو تفاحتين . حسب أن مرجرات كلمة فارسية فراح يلوكها فى محاضراته » .

ولقد أشارت إلى هذه الواقعة مجلة الجامعة الإسلامية فى حلب (١٣ أغسطس ١٩٣٤) وقال الأستاذ إسماعيل مظهر فى مجلة العصور م ١ ص ٦٥١

« اتضح لى وأنا أقرأ الملخص المقتضب ان المحاضرة برمتها منقولة نقلا سقيما عن أحد

المستشرقين الذين لم يدرسوا الموضوع درساً وافياً ».

ولما نشر الدكتور طه كتابه فى الشعر الجاهلى ذكرنى فى الكتاب ببحثين فى الموضوع أحدهما نشرته السيدة مسز بلنت والثانى أطلعنى عليه المرحوم الدكتور صروف كتبه الأستاذ مرجليوث فى بحث الشعر الجاهلى ونحا فيه منحى الدكتور طه عينه بل وزاد فيه بحثاً مستفيضاً فى معانى الألفاظ التى استعملت فى الشعر الجاهلى والتى وردت فى القرآن وقد أردت حين نشر كتاب الشعر الجاهلى أن أمضى فى مقابلة أتناول فيها بحث مرجليوث وبحث طه حسين (والأول أسبق من الثانى فى النشر) غير أن الدكتور صروف منعنى عن هذا وأخذ الكتاب منى غير أن نشر هذا التلخيص للمحاضرة قد أعاد إلى هذه الذكرى على إنى لا أنكر أن فى الكتاب استنتاجات ذهب بها مؤلفه مذهب « التطرف وعدم الاحتياط ».

ولهذا سبب تكوينى فى ذهن طه حسين لا يتيسر له أن ينفك عنه بسهولة . والسبب هو أن الذين ينشأون فى الجمود ينزعون منزع التطرف فى الاستنتاج عند أقل احتكاك يشتمون به من ريح الحرية الفكرية مفهومة فهماً سقيماً ولديك دليل لا يحتاج إلى مناقشة . فقد جاء فى سياق المحاضرة : شجرت بين الفريقين اليمانيين والقيسيين معركة مرجرات انتصر فيها اليمانيون على خصومهم وهذا يدل على أن الأستاذ يعتمد على مستشرقين لا يزالون حتى اليوم غير عارفين بالنطق العربى للأماكن التى وقعت فيها المعارك . فقال الأستاذ مجاراة لهم (مرجرات) والحقيقة أن اسمها موقعة (مرج راهط) وهو موضع يعرفه المبتدئون فى درس تاريخ الإسلام .

وقد كتب هذه الموقعة المستشرق دوزى فى كتابه أسبانيا العربية وذكر شيئاً عن زفر بن الحارث وهو ممن كان لهم علاقة كبرى بالموقعة . فلو أن الأستاذ لم يكن قد نقل من المستشرقين نقلا سقيما إذن لقال مرج راهط بدلا من مرجرات كما كتبها المستشرقون » (ومما يذكر انه قال : ارتاس بدلا من الحارس) ا . هـا .

ويلاحظ فى هذا ما ذكره سكرتير طه حسين فى مذكراته عن قدرته على استيعاب ما يقرأ فى الصباح من كتب المستشرقين فإذا ألقاه فى المساء جاء منقولا نقلا كاملا دون أن يفقد حرفا واحداً وتلك قدرة عجيبة على الاستيعاب وعلى النقل أيضاً .

وإذا كان تلميذه وتابعه فى فكره وهدفه (اسماعيل أدهم أحمد) قد أحصى عليه أخطاء أربعة فى طريقة البحث هى :

- مزج الجانب العلمى بالجانب الذاتى أو الفنى .
- عدم التحوط فى البحث .
- بعض التطرف فى الاستنتاج .
- السطحية فى استقصاء الأسباب .

فإننا نستطيع أن نضيف إلى ذلك الخطأ فى النقل ، والتبعية فى الرأى ، والإسراف فى الهوى ، واتباع الظن .

وهناك ما يصوره تلميذه عزيز أحمد فهمى (الثقافة ٤ سبتمبر ١٩٤٥) حين يقول : كما يتمتع أستاذى بحسنات الفرنسيين فإنه أيضاً مصاب بعيبهم ، فيه منهم الاندفاع ، لا أريد أن أقول انه نزق ، فهو إذا خاصم إنساناً لم يعرف الهوادة فى خصامه . فإذا ملك خصمه حطمه تحطيا ونسفه نسفا ، كما إنه إذا أحب إنساناً لم يعرف الهوادة فى حبه فإنه إذا ملك رفعه إلى أعلى عليين بلا تحفظ أو حذر » .

وهذا ما يمكن أن يسمى بالمبالغة ، ومن مبالغاته ما كتبه عن ديكارت حين قال . إنه يعرف من الأسرار عنه مالو قاله لدكت له أسوار السربون ، وما ذكره عن عبد الخالق ثروت الذى كان عونه وحاميه أيام محنته حين يرى انه أعطى أمته الدستور ، وإنه (ليس بين المصريين فى العصر الحديث من نشر أعلام مصر المستقلة فى أقطار الأرض إلا ثروت) .

ومن ذلك أيضاً « النفاق » فإنه حين دخل الوفد وكان العقاد أبرز كتابه سعى لاسترضائه فأعلن فى حفل كبير أن العقاد هو أمير الشعراء بعد شوقى ، وكان قد أهدى إمارة الشعر للزهاوى ، ثم عاد بعد ذلك فسحبها منه حين أعطاها للعقاد ثم سحبها من العقاد وأهداها لمطران ، وهو فى هذا يقول للعقاد فى مقدمة ديوانه (سيدى الأستاذ الكبير : أنت أقمت للكروان ديوانا فخما فى الشعر العربى فهل تأذن لى أن أتخذ له عشا متواضعا فى النثر الحديث . (١٥ سبتمبر ١٩٣٤)

فلما مات العقاد أعلن طه حسين أنه لا يفهم كتابه عن عبقرية عمر !.

ومن نفاقه خطابه فى الجامعة بعد عودته محييا الوفد ورئيسه وسكرتيره .

ومما قاله عن مكرم عبيد : أراه شابا فأمثال مكرم لا يمكن أن يشيب لأنه لا يريد أن يشيب ولأن طبيعته فوق المشيب . كنت أسمعه يخطب فكان يخيل إلى إنى أقرأ ذلك الفصل البديع من كتاب الخطابة لأرسطو عن الشباب . وقال فى هذا الحفل : إذا خطب الأستاذ مكرم فلا ينبغى لغيره أن يخطب معه .

وهناك « الحقد » : لما سئل عن كتاب النثر الفنى للدكتور زكى مبارك وكان مخاصما له وهو كتاب فى ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير قال عنه إنه : كتاب من الكتب ألفه كاتب من الكتاب !

وقال زكى مبارك رداً على هذا : إن الدكتور طه يعلم علم اليقين أن كل نسخة توزع من كتاب النثر الفنى هى سهم مسموم مصوب إلى صدره لذلك فهو يتجاهل اسم المؤلف واسم الكتاب .

ومن مكره : أنه حين احتفل فى قصر الزعفران بمهرجان شوقى وكان هو من خصومه ، ألقى محاضرة عن الشاعر النصرانى (الأخطل) لا عن شوقى بحجة أن الجامعة لا تؤرخ الأحياء ، وهو نفسه الذى ارتضى أن يدرس أسلوب أحمد أمين فى كلية الآداب وهو حى .

ولقد سجل الكثيرون على طه حسين ماأسموه « خلة التطاول على ذوى الأقدار وأهل الفضل من رجالات مصر » جريدة الاتحاد ١٩ مارس ١٩٣٢ ـ قالت : إن الدكتور طه كان يجمع إلى خلة الجهر بالالحاد والتشكيك فى الإسلام خلة أخرى هى التطاول على ذوى الأقدار وأهل الفضل من رجالات مصر ، فما ترك عظيما أو سياسيا أو نابغة فى البلاد إلا وانتقص من قدره وبسط فيه لسانه بأقبح الألفاظ وأقذع عبارات الشتائم والسباب .

« أما الضعف النفسى عند الدكتور طه فواضح ، فقد حدث يوم طلب إليه تأدية الحساب عن طعنه فى الإسلام فى كتابة الشعر الجاهلى أنه قال انه يؤمن باللهوكتبه ورسله واليوم الآخر » .

ويومها كتب الشيخ عبد ربه مفتاح مقالا فى الأهرام تحت هذا العنوان : « الآن وقد عصيت قبل » وهى العبارة التى أوردها القرآن فى الرد على فرعون عندما أعلن إيمانه وهو فى حالة الغرق .

وقد أشار كثيرون إلى هذا المعنى فقال داود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام :

« لو انا أخذناه على سبابه لما بقى شىء يسمى طه حسين » .

وقال الدكتور محمد محمد الصيحى : وصفوه بأنه سباب شتام أحمق الصدر لا يقدر على ضبط ما يخرج من فه ولا ما يسيل من قلمه فاتهموه بأنه سفيه اللفظ ولا يعرف كيف يطعن الطعنة النجلاء دون أن يسجل على نفسه تهمة التحامل والحقد (النهضة الفكرية ١٢ ديسمبر ١٩٣٢) .

وبعد فهذا إجمال عن طريقة البحث عند طه حسين له تفصيل مستطرد .

* * *

الفصـل الثالث

ظاهـرة التحـول والتناقض

لعل من أشد المواقف أهمية فى حياة طه حسـين ذلك التحـول الخـطير فى موقفـه من الذين عرفهم من قبل سفره إلى أوربا وعمل معهم وتأثر بهم :
المنفلوطى : محمد عبده ، أحمد زكى باشا .

أما التحول فى موقفه من المنفلوطى فانه يؤكد خطة انتزاع نفسـه من المدرسـة الوطنية التى كان فيها على ولاء للشيخ عبد العزيز جاويش ، كتب هذه الفصـول فى ظـل هذا الاتجـاه وهى فصول لم تكن طارئة أو خاطفة ولكنها كانت معقودة بخطه متقنة وقد استمرت قرابة عام كامل تحت عنوان : نظرات فى النظرات حيث امتدت من مارس إلى ٢٥ نوفبر من عام ١٩١٠

أخذ طه حسين على صاحب النظرات جملة من الأخطاء اللغوية وقال « إن أول عيب يأخذه على صـاحب النظرات » أنه شـغوف كل الشـغف بذات غيره وأنه منكر كل الإنكار لذات نفسه ، وأن السرقة فى كتابه شائعة شيوعا فاحشا ولسـت غاليا إذا قلت أن اسـم كتابه مختلس من ديوان النظرات للرافعى أما العيب الثالث فانه أبعـد الناس عن توخـى الحقيقـة ، وأحبهـم لاصطناع الخيال سبيلا إلى غايته والعيب الرابع أن لصاحب النظرات ألفاظا ومعانى وأسـاليب تشغفه كل الشغف فلا تزال فى كتابه حتى تمجها الاسماع وتعافها النفوس ، والخامس والسادس أن الكاتب على شغفه بجودة العبارة وحسن الاشارة وكلفه بأن يكون كلامه فخما سهلا وخفيفا جذلا وأن يكون أسـلوبه رشـيقا كثيرا يلجئه المرح إلى سخف فى الاسـتعارة والتشـبيه (وهذا ما أورده أحد الباحثين فى مجلة السياسة الأسبوعية سنة ١٩٣٧) .

وإذا كان لنا أن نقول شيئا فى النقد فإن فى الإمكان أن تؤخذ به كتابات طـه حسـين نفسـه الذى عرف بالألفـاظ التى يكررها والأسـلوب القـائم على ترديد العـبارات ذات الرنين ومن عجب أن يتحول طـه حسـين عن المنفلوطـى مرتين ، هذه المرة قبل سـفره إلى أوربابالإنكار والنقد ومرة أخرى بعد عودته أما هذه المرة فإن الناس يذكرون قوله : (لقد كنت أمقت المؤيد كل المقت إلا يوم تنشر فيه نظرة أو أسـبوعية فقـد علم الله أنى كنت أشـغف به كل الشـغف وأقبل عليه كل الاقبال) .

يقول فى مذكراته : (قرأ الفتى الفصول الأولى من نظرات المنفلوطى راضيا عنها معجبا بها ثم لم يلبث أن سئمها وانصرف عنها ولكن لم يكد يراها مجموعة فى كتاب حتى ضاق بها أشد الضيق وكتب يعيبها ويغض منها ، وفرح الشيخ عبد العزيز جاويش بما كتب الفتى أشد الفرح ، واستزاده من الكتابة وحرضه عليها وألح فى التحريض حتى ألقى فى روعه ألا يدع فصلا من فصول المنفلوطى إلا اختصه بفصل من النقد وكان الفتى قديم المذهب فى الأدب لا ينظر منه إلا إلى اللفظ ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة فكان يعيب المنفلوطى عنده أنه يخطىء فى اللغة ويضع الألفاظ فى غير موضعها ويصطنع ألفاظا لم تثبت فى لسان العرب ولا فى القاموس المحيط .

وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشىء من الشتم لم يكن بينه وبين النقد صلة ، ولم ينس الفتى مقالا دفعه ذات مساء إلى الشيخ جاويش فلم يكد يقرأه حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك .

ولم يتردد طه حسين فى أكثر من موقف من أن يعتذر عن هذه المقالات . يقول : لم أخجل من شىء فى كل ما كتبت قدر خجلى من هجومى على المرحوم المنفلوطى ، فالذى كتبته عنه كلام فارغ فقد كنت أستعين بالقاموس ضد المنفلوطى على كلمة بها خطأ نحوى أو لغوى وكنت أعتمد على معجم واحد لا كل المعاجم . »

والأمر عند هذا الحد أشبه بالرجوع إلى الحق ، والاعتذار عن موقف ولكن للأمر خلفية أخرى لا يعرفها الكثيرون كشف عنها السيد محب الدين الخطيب (الفتح ١٨ نوفمبر ١٩٢٦) وطه حسين حى ولم يعارضها أو يردها . يقول : لما التحقت بقلم المؤيد (١٣٢٧ ـ ١٩٠٩م) كان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رحمه الله من أفاضل كتاب تلك الصحيفة الإسلامية ، وكان له فيها مقالات أسبوعية بعنوان النظرات امتازت بطلاوتها وجمال ديباجتها ونبل مقصدها ، وقد لقيت الحظوة عند قراءة العربية .

إن طه حسين حسنة من حسنات كتاب النظرات أو سيئة من سيئاته . إن قراء العربية لم يكن لهم بالرجل عهد ولا كان عندهم شيئا مذكورا قبل ظهور مقالاته فى نقد هذه النظرات مذيلة باسمه فكان الناس يقولون . وكنت أقول مع الناس : يالها من مقالات تنم عن إطلاع صاحبها بلغة العرب لولا مافيها من بذاءة وتحامل لا يتجمل بها المنتسب إلى العلم والمتأدب بأدبه وكان فى القراء من يتسع صدره لاغتفار هذا الجانب الضعيف من مقالات الكاتب فى مقابل ما وراءه من معرفة ولكن هل تدرى أيها القارىء ماهى حقيقة تلك المقالات : ان تلك الحقيقة بقيت سرا مكتوما سنين طويلة وأنا نفسى لم أعرفها إلا اتفاقا .

لما ظهرت الطبعة الأولى من (النظرات) وجد فيها بعض الأفاضل من رجال الحزب

الوطنى فقرأت آلتهم فرأوا أن تعمل صحيفتهم وكانت تنشر يومئذ باسم العلم أو الشعب على انتقاد النظرات والحط من شأنها وكان فى قلم تحرير تلك الصحيفة كاتب ضليع وأديب نحرير هو صديق وزميلى الآن فى تحرير الأهرام ـ الأستاذ محمد صادق عنبر ـ فدفعوا إليه كتاب النظرات وطلبوا اليه أن يقرأ منه كل يوم بضع صفحات فيعرض ما فيها من المفردات والتراكيب على نصوص العربية وقواعدها وأساليبها ويضع إشارات على ما ينتقده منها ويكتب فيا يلى ذلك من الهامش وجوه الصواب بأدلتها . ومضى الأستاذ صادق عنبر فى عمله هذا زمناً طويلا وكانت الصفحات التى يودعها علمه فى اللغة والبلاغة والأدب تعطى يوما بعد يوم إلى الشيخ طه الطالب الأزهرى المنصرف عن دروسه العلمية فى الأزهر إلى التردد على أبواب الصحف فيفرغها هذا فى فصول كان الناس يقرأونها فيغفرون مافيها من سلاطة طه حسين وهذره ، لما فيها من علم صادق عنبر وأدبه ، حتى لقد رأيت يومئذ من يرفع كاتبها إلى منزله صاحب (الضياء) فيا كان ينبه عليه قبل ذلك من أغلاط لغة الجرائد . وهذا هو العمل الأدبى الأول الذى تقدم به طه حسين إلى قرائه وكان من نتائج تردده على أبواب الصحف أثناء دراسته الأزهرية خروجه صفر اليدين منها رغم الذكاء الفطرى فى أمثاله ولعل عدم نجاحه فى الأزهر كان خميرة عداوته له وحنقه على أهله » .

* * *

أما موقفه من الأستاذ الإمام محمد عبده فإنه يختلف عن ذلك اختلافا بينا ، ذلك أن طه حسين الذى كان يرى أن صلته بالشيخ قبل سفره هى قة طريقه إلى النجاح والنهضة قد غير هذا الرأى من بعد ، فيقول : حتى إذا أرسلت إلى القاهرة وانتسبت إلى الأزهر الشريف رأيت نفسى فى بيئة من الطلاب المتقدمين لا تعدل بالأستاذ الامام أحداً من رجال الأزهر ولا ترضى أن تقيسه إلى أحد من علماء الإسلام وإنما تعجب به إلى غير حد وتكبره من غير تحفظ وتتعصب له إلى أقصى ما يستطيع الإنسان أن يتعصب .

ثم يقول : « إلى أن ألق هذا الرجل وأسمع منه ولكن كيف السبيل إليه وهو يلق دروسه فى الرواق العباسى ويقوم من دونه على الباب (الغراب) وأعوان الغراب وما كان أكثر الحديث عن الغراب حين كان الشيخ يدعوه أثناء الدرس ليخرج طالبا ثائرا أو محافظا مشاغبا وإذا أنا أصبح داعية من دعاة الشيخ أعود إلى الريف أثناء الصيف فأدعوا إلى ما كان ينقل إلينا من الشيخ من أن التوسل بالأضرحة والأولياء لا يلائم الدين ولا يوافق صفاء الإسلام وإذا أنا آثير من حولى شكوكاً وريباً .

ويقول : وكنت كلما تقدمت بى السن ازددت لآراء الشيخ فهماً وازددت بالشيخ اعجابا حتى أنشئت الجامعة المصرية وأقبل هؤلاء العلماء الغربيون يعلموننا فيها فشغلت بهم وانصرفت إليهم وأخذت أنسى الشيخ وآراءه شيئا فشيئا .

ويقول: ثم تكون الرحلة إلى أوربا والأقامة فى باريس فى أشد الأوقات حرجاً وأشدها شراً ونكراً وأحفلها بما تغيرت له قيم الأشياء تغيراً تاماً. وإذا كل صلة بينى وبين الشيخ قد انقطعت وعفت عليها الأحداث والخطوب وإذا أنا أعود إلى مصر رجلا آخر، يكبر الأستاذ الإمام ويعجب به ولكنه لا يتابعه ولا يجب أن تبق طريقته فى التفكير أساساً للحياة العقلية لهذا الشباب المصرى الناهض».

وهكذا نجد أن منهج الدكتور طه الذى تلقاه فى باريس وفى مدرسة اللغات الشرقية وغيرها يدعوه إلى أن يغفل هذا الاتجاه الذى كان يسير فيه الشيخ محمد عبده لأنه متصل بحركة اليقظة الإسلامية ويفرض عليه أن يسير فى الطريق الآخر الذى أنشاُه الاستشراق والتبشير وسار فيه دعاة المقتطف والمقطم والأهرام وخصوم الإسلام والدولة العثمانية والداعون إلى النظرية المادية: شبلى شميل وجرجى زيدان وغيرهم.

* * *

كذلك كان موقف الدكتور طه حسين من أحمد زكى باشا شيخ العروبة: كانت المكتبة الزكية ملتقى هذا الشباب فى أول العهد يقرأون فيها ويوجههم زكى باشا إلى النصوص وفحص المخطوطات وغيرها، ثم كان زكى باشا واحداً من أساتذة الجامعة المصرية القديمة ولكن الدكتور طه حسين قد نسى هذا التاريخ كله بعد عودته من أوربا.

يقول طه حسين: كنا نلتقى فى داره ثم نلتقى فى مكتبته بعد أن أنشئت له مكتبة فى قسم من أقسام دار الكتب المصرية فى باب الخلق. كنا نلقاه مساء كل يوم فنقضى معه ساعات طوالا وربما انتصف الليل ونحن نبحث عن كلمة أو نحاول تحقيق جملة.

ثم يقول: «ثم أعود من أوربا وقد تغير عقلى تغيراً شديداً، وألق الباشا لقاء التلميذ الوفى المعجب لإلقاء التلميذ الذى شارك أستاذه فى الرأى والنهج ومذهب البحث ولم أكن أشبهه فى الاقناع فيشتد الخلاف فى الرأى بينى وبينه ويمضى كل واحد من فى طريقه نلتقى من حين إلى حين على مودة ولكننا لانتفق فى منهب من مذاهب العلم أو منهج من مناهج البحث».

وهكذا نجد طه حسين وقد عاد من أوربا يحمل لواء الخصومة لكل ما كان من أصالة، وما كان يحمله رجال الفكر الإسلامى من رأى.

ولقد دخل طه حسين فى معارك مع أحمد زكى باشا ووقف منه موقفا غير كريم، ذلك أن طه حسين أيد ما قاله المستشرقون من تحريق المسلمين لمكتبة الاسكندر ية ونشر فى جريدة السياسة تقريراً (لكازانوفا) فى هذا الشأن فلما رد عليه أحمد زكى باشا كاشفا زيف رأى الاستشراق وأتباعه وقف منه موقفا غير كريم.

ومثل هذا ما فعله مع أستاذه فى الجامعة الأستاذ محمد الخضرى حين أغلظ له القول لأنه نق وطهر كتاب الأغانى مما يضمه من سوءات وكشف وشعر رخيص.

لقد تحول طه حسين عن آرائه بعد أن اعتنق المذهب الحديث فى الفكر على النحو الذى صوره حين قال: «ثم تكون الرحلة إلى أوربا والاقامة فى باريس فى أشد الأوقات حرجاً وأحفلها بما تغيرت له قيم الأشياء تغيراً تاما».

وقد وقع هذا التحول بالنسبة لكل من كان يعرفهم قبل سفره: أحمد زكى باشا، محمد عبده، عبد العزيز جاويش، الشيخ مهدى، الشيخ الخضرى.

ولا ريب أن أخطر أحداث حياة طه حسين تتمثل فى ذلك التحول الذى حدث له بعد أن سافر إلى أوربا فأكسبه تلك الشخصية الجديدة التى ظلت تتراوح مع شخصيته الأولى طيلة حياته وما كان لهذا الازدواج من أثر فى التناقض الذى عرف فى حياته كلها فإنك إذا راجعت تراثه كله لوجدت فيه كل شىء، الشىء وضده، والقول ونقيضه، ذلك أن الرجل كانت لديه المادة الكافية لكل وجه ولكل طريق، المحاسن والأضداد، ان للرجل آراءه الحقيقية التى يصر عليها ويراوحها بين آن وآخر، ولكنه لا يمتنع عن تغيير رأيه كلما تغيرت الظروف، ليسلك سبيل الأمن فى أوقات المعارضة، ثم يعود إلى آرائه مرة أخرى فيثيرها من جديد بطريق جديد. ونحن إذا راجعنا ما كتبه تلاميذ طه حسين نفسه وهم أصحاب الولاء لوجدناهم يصرون على وجود هذه الازدواجية والتناقض: يقول فتحى غانم.

«هل طه حسين ملحد أم مؤمن، هل يؤدى فرائض الدين فيصلى ويصوم، هل صاحب (على هامش السيرة) لا يقرب الخمر، ولا يأتى من الأفعال ما حرمه الله على عباده الأتقياء، هل طه حسين ديمقراطى أم محافظ أم أرستقراطى أسئلة وأسئلة حار الكثيرون فى الإجابة عليها

فاختلفوا وتناقضوا وتصارعوا ولم يصلوا ولن يصلوا إلى رأى واحد ينتهون عنده، قام رجال الأزهر ونواب الأمة وشيوخها وقعدوا وعلى رأسهم سعد زغلول ينادون بالحاد طه حسين وكفره ومروقه على تعاليم الدين الحنيف لأنه درس فى الجامعة كتابه (فى الشعر الجاهلى) فشكك فى بعض آيات القرآن الكريم، وقام رجال الأزهر ونواب الأمة مهللين مكبرين لكتب طه حسين الدينية التى تفيض بالايمان والتدين، وكان طه حسين ربيبا لعبد الخالق ثروت، وعدلى يكن رئيس حزب الأحرار وصديقا لهم يكتب فى جريدتهم السياسة ويعيش فى كنف أصحاب البيوتات والأيدى القوية الارستقراطية ويهاجم الحزب الوفدى ويصرح بأنه يمقته مقتا شديدا ويزدريه ازدراءا لا حد له، وإنه سخف سياسى منكر، ثم يصبح طه حسين أحد أعوان الوفد الذى يمقته ويزدريه ويخطب فى آلاف المعلمين الالزاميين يصف لهم محاسن الوفد وحكمة رئيسه وأعوانه ومنذ أعوام استمع آلاف الطلبة فى الجامعة إلى طه حسين وهو يقول: «نضر الله وجه فؤاد العظيم» ومنذ سنوات صودرت كتب طه حسين وقيل إنه صديق للشيوعيين

وبعد سنوات طالب طه حسين بنشر الأدب الأمريكي فى الشرق العربي ، عشرات وعشرات من الأمثلة تدلنا على الذبذبة والحيرة التى عاناها طه حسين وعانيناها نحن أيضا وهو لا يستقر على حال فى الدين أو السياسة .

ونجده يقول : « أنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى فى الأدب لأنى لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو » .

« لا يستطيع الأدب ان يخضع لنظام أو يذعن لسلطان إلا سلطان هذا الشيطان الذى يلهمه ويوحى إليه » هذا هو أدب طه حسين فوضى لا شعور ، شيطان شغوف بالفن لا بالحياة ، وليس لهذه الكلمات إلا معنى واحد لا تحيد عنه ، هذا المعنى يعبر لنا عن كلمات مثل الأنانية والغرور ، وحب النفس والخوف من التجديد إلا بالمقدار الذى يتيح لطه حسين حريته الشخصية فى أن يكون فوضويا أنانيا مغرورا ، فعندما قاد طه حسين حملة التجديد فى الأدب العربي للقضاء على أساليب الكتاب القدامى واتهم مصطفى صادق الرافعى زعيم هؤلاء الكتاب بأنه يكتب بأسلوب سخيف معقد غير مفهوم لم يحاول طه حسين كناقد أن يتبين تأثر أدب الرافعى بحياتنا الاجتماعية والسياسية فى ذلك الوقت وحصر همه فى القضاء على بضعة ألفاظ لتحل محلها ألفاظه هو وجاهد جهاد الأبطال ليوضح لنا فساد ذوق الرافعى ليبيع لنا ذوقه هو ، أنه مخلص لنفسه أشد الإخلاص يحب صوته ويترنم به ، ويحب أسلوبه ويشيد به يحب ذوقه المصفى الخالص ، يحب اللغة الفرنسية وآدابها ويتغنى بجمال اللاتينية واليونانية ، ويحب أن يتيح للناس جميعا فوضى شاملة مثل الفوضى التى ينعم بها ويريدهم جميعا أن يتمتعوا باللغة الفرنسية كما يتمتع بها ، وأن يقدروا عظمة اللاتينية واليونانية كما يقدر هو عظمتها ، إن الدين عند طه حسين هو دين خاص به ، شعر ونغم وإيقاع داخلى وطرب » .

وعلى هذا المنوال : نستطيع تفسير حياة طه حسين ، يرضى الأحرار الدستوريون عن ذوقه وأدبه فيرضى هو عنهم ويسخطون فيسخط أيضا ، ويرضى الوفديون فيرضى ويسخطون فيسخط ، وترضى السراى فيرضى وتسخط فيسخط ، إن طه حسين يحتمى وراء لغته وهى بين بين ، وهى ليست جديدة كل الجد عليها ، أنها لا تقطع فى شىء أبداً ، بل هى مرنة تصلح للف والمداورة لا تصف شيئا بأنه أبيض أو أسود ، بل تصفه بأنه أقرب ما يكون إلى السواد وأقرب ما يكون إلى البياض ، وهذه الطريقة فى التعبير ، هى مرآة لحياة طه حسين التى هى دائما بين بين ، إنها لغة لا تصلح للشعر ولا للمقالة إنها تصلح فقط لطه حسين وهى لا تصلح له كأديب بل تصلح له وتساعده فى حياته السياسية والاجتماعية وفى التعبير عن مشاعره الدينية على السواء » .

ويعترف طه حسين فى كتابه من حديث الشعر والنثر اعترافا خطيرا حين يقول :

إنى أعرف نفسى أكثر مما يعرفها غيرى وأن الذين ينتقدون ويعيبون ويشهرون لا يعرفون من عيوبى إلا أقلها) .

ويرى طه حسين ان هذا لا عيب فيه ، وأنه أمر طبيعى ، لأن الأوربيين كذلك ، وكان أولى به أن يعرف أن دين الإسلام قد حال بين الانسان وبين التناقض وسلك عقله وقلبه فى إطار واحد ولكن طه حسين يفكر ويعتقد على أسلوب الغرب .

يقول طه حسين : « أنا كمسلم أعلن أنى لا أرتاب فى شىء مما اشتمل عليه القرآن ولكنى كعالم أسلك إلى البحث مناهج العلم ، قال ذلك أمام النيابة العامة (٢٨ أكتوبر ١٩٢٩ ـ جريدة السياسة) بصدد إنكاره وجود إبراهيم وإسماعيل وإنكار أن تكون الكعبة من بنائها وإنكار هجرتها إلى مكة مع وجود ذلك فى القرآن » .

وقال أحد المعلقين : وهكذا دافع الدكتور عن نفسه بأنه يعتقد الشىء وضده ويجمع بين المتناقضين فى الاعتقاد فنى عقائده اعتقاد بوجود إبراهيم وإسماعيل وبنائها الكعبة واعتقاد بعدم وجودهما وعدم بنائها الكعبة .

ويتصل هذا التناقض والتردد فينظم كل حياة طه حسين وفكره .

يقول الدكتور عمر فروخ فى الحديث عن طريقته فى البحث :

فهو أبداً متردد بين المفهوم وغير المفهوم والمتحول والثابت والممكن وغير الممكن لم تره فى كتاب إلا داعية للشك ولا فى مقال إلا آخذاً بالظن . لم يثبت فى حياته شيئا بل كان ينفى ما ثبت نفسه بنفسه . إنه يقول : لعل . . ربما ولسنا نقول شيئا جديدا ، التأويل والدوران والتغيير .

ويقول الأستاذ العقاد : هناك النقيضة الظاهرة فى أسلوبه بين الحزم والتشكيك : إن أخصب الألفاظ فى كلامه من أمثال : أزعم . قد أزعم . لعله يكون ، ولعله لا يكون ، ربما ضحكت وربما بكيت ، (وتحسبه من الشك لا يكاد يستقر على شىء) وإن أضعف التقريرات والتوكيدات فى كلامه قد تحسبه فى طليعة الكتاب الجارمين الحزامين (والقول ما قالت حزام) ، ونقيضة أخرى أن تقترن الروح الجدلية فى عباراته بالروح العلمية من سطر إلى سطر ومن قضية إلى قضية » .

إنه كما قال البعض : « أنكر كثيرا ولم يثبت شيئا » .

ونحن نعرف أن إثارة الشكوك وتركها معلقة دون إجابات صحيحة هو لب المنهج التلمودى المسيطر الآن على الفكر الغربى الحديث .

ومن هذا التحول : تحوله من الشعر الجاهلى إلى هامش السيرة ، يقول الدكتور هيكل :

لقد كان تحول الرجل الذى لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير يعمل لا حيائها سببا لكثير من التساؤل بين الباحثين إذ أن طه وقد فشل فى أن يثبت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمى لجأ إلى الأساطير فينمقها ويقدمها للشعب إظهارا لما فيها من أوهام فى الظاهر تفتن الناس ولكنها فى الواقع تبعدهم عن أوهامها لأن روح العصر لا تحتملها، ثم كان التحول من إغاظة الجماهير إلى نفاقهم، عندما عجز الأسلوب الأول أن يحقق الهدف الذى يتطلع إليه هو ومن وراءه.

وقد دمغه صديق عمره الأستاذ أحمد أمين بهذا التحول والتناقض حين قال فى إحدى مقالاته « حدث فى تاريخ مصر الحديث أن جماعة تسلحوا بالشجاعة الأدبية فأظهروا أراءهم فى صراحة ولم يبالوا الرأى العام سواء فى بحوثهم ونقدهم وقد كانت هذه البذرة الأولى للشجاعة الأدبية فى مصر فألفوا كتبا عبروا فيها عن آرائهم فى جلاء ووضوح وكتبوا مقالات تعبر عما يعتلج فى نفوسهم ولكن هذا الصراع انتهى بهزيمة هذه الطليعة من المفكرين وتعرضوا للخطر فى مناصبهم وأرزاقهم، وشعر القائمون بهذه الحركة الجديدة أنهم أصيبوا فى سمعتهم وفى مناصبهم وفى مالهم ثم رأوا أن اتباعهم تخلوا عنهم ومن عطف عليهم فعطف أفلاطونى وكان الرأى العام قويا مسلحا فتغلب وانتقم وكان له السلطة التامة وانهزم أمامه فريق المفكرين هزيمة منكرة فاضطر إلى التسليم بل وفى بعض الأحيان رجع عن رأيه إلى آرائهم ومن منهجه إلى منهجهم، وتعود المجاراة بدل المقاومة والمداراة مكان الصراحة.

وكان أحمد أمين يشير بهذا كله إلى موقف طه حسين الذى كتب يقول:

إن رأيك يسنى وأؤكد لك أنه يحفظنى كل الاحفاظ ويؤذينى كل الايذاء ولعله يحفظنى ويؤذينى أكثر مما احفظنى واذانى كل ما لقيت من ألوان المشقة والاعنات (كذا) فهل من الحق أن هؤلاء الكتاب الذين تشير إليهم قد أدركهم الضعف والوهن فالأوا الجمهور وصانعوا السلطان وآثروا العافية فى أنفسهم وأموالهم ومناصبهم ».

وحاول طه حسين أن يعتذر وأن يراوغ ولكن الأمر كان أكبر من كل مراوغة أو اعتذار.

وعلى امتداد حياة طه حسين الفكرية نجد ظاهرة التحول والتناقض واضحة. كتب الدكتور زكى مبارك فى ١١ نوفبر ١٩٣٢ فى جريدة البلاغ تحت عنوان الحديث ذو شجون يقول « وقد دهشت ودهش تلاميذ الدكتور طه الذين تلقوا عنه فى الجامعة المصرية من هذا التطور بل الانقلاب المفاجىء، الذى ظهر فى آراء الدكتور هذه المرة فإن هذا الباحث كان يهتم دائما برجع مناقب الأدب العربى إلى أصول فارسية ويونانية ولكنه فى هذه المرة أعلن بأن الأدب العربى كان قوة خطيرة فى الآداب القديمة وانه استطاع بقوته أن يطارد أدب الفرس واليونان والرومان ».

والمعروف أن طه حسين كان يقول: « بفضل الفرس، ثم عاد فقال بفضل اليونان، المهم:

الأدب العربى متأثر بهؤلاء أو أولئك وليس له عنده أصالة حقيقية »

ولقد نقول ان هذا التمزق والتناقض يصل إلى أعمق أعماق عقل وقلب الدكتور طه حسين منذ وقت بعيد وأنه سجل ذلك أكثر من مرة وكان أكثر وضوحا فى كلمته (١٧ يوليو ١٩٢٦) حين قال : « فكل امرىء منا يستطيع أن يجد فى نفسه شخصيتين إحداهما عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس وتهدم اليوم ما بنته أمس والأخرى شاعرة تلذ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وترغب وترهب من غير نقد ولا بحث ولا تحليل ، وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا لا نستطيع أن نخلص من إحداهما فما الذى يمنع أن تكون الشخصية الأولى علمية باحثة نافذة وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة طامحة إلى المثل الأعلى » .

ولا ريب أن رأى الدكتور طه هذا فى نفسه ليس إسلاميا قط ، ولكنه تفسير فلسفى للتناقض والانشطارية التى عرفها الغربيون بين تفسيرات الدين ونظرات الفلسفة أما فى الاسلام فإن شخصية المسلم سوية متكاملة تغشاها سكينة التكامل بين القيم والتوازن بين النفس والجسم والمواءمة بين الروح والمادة .

وبالجملة فإن إنتاج طه حسين يكاد متناقضا تناقضا بينا ففيه الرأى وضده والقول بالشىء ويعكس الشىء ، فهو لا يقول عن عقيدة ثابتة لا تتزعزع ولا عن إيمان صادق ولكنه يقول فى مجال ارتفاع موجة الشىء ثم يقول فى انخفاضها وهو يقول الرأى ليصدم الجماهير ، أو ليحدث الدوى ، أو ليرضى الهوى من أصحاب النفوذ والسلطان الذى عاش متعلقا بهم . ثم يغاير هذا القول إذا تغير النفوذ والسلطان وموقفه من العروبة والفرعونية واضح ، وموقفه من أسبقية الأدب الفارسى والأدب اليونانى معروف ، وموقفه من المنفلوطى بين ، وموقفه من سعد زغلول ومن الوفد جلى ، وموقفه من إمارة الشعر بايع بها الزهاوى ثم العقاد ، ثم خليل مطران ثم عاد فقال فى جريدة الجمهورية بعد عشرين عاما من بيعته للعقاد :

« ما أعرف انى بايعت شاعرا أو كاتبا قط ، وما أظن انى سأبايع شاعرا أو كاتبا قط فهذا نوع من السخف لم أشارك فيه ولا أريد أن أشارك فيه » . ومن ذلك أيضا موقفه من المعرى كراهية وانتقاضا ثم إعجابا وتقديرا يقول الأستاذ عبد الحميد حمدى (١٤ ابريل ١٩٥٠ - الأهرام) : « فى أول مرة التقيت به (أى بطه حسين) قبل أربعين سنة ساق الحديث إلى ذكرى أبى العلاء المعرى فلم أكد أذكره حتى بان التجهم على وجه طه حسين ، وفوجىء الجميع بحملة على أبى العلاء شديدة القسوة ومضت سنوات تقرب من الأربع ، كتب فيها طه حسين رسالته عن ذكرى أبى العلاء التى قدمتها إلى الجامعة المصرية سنة ١٩١٤ » . اهـا .

* * *

الفصل الرابع

الأسلوب والأداء الفنى

هناك مظاهر كثيرة لاضطراب طريقة البحث عند الدكتور طه أبرزها :

أولا : غلبة العاطفة وعدم العدل ، وقيام كتاباته وآرائه على الولاء أو العداء دون تقدير أساسى للحقيقة العلمية . يقول زكى مبارك : « هناك جانب هام من ضعف هذا الرجل ، وهو حرمانه من حاسة العدل ، فما أعرف أن هذا الرجل استطاع أن يقهر أهواءه وهو يعامل الناس ، وقد اتفق له أن يصطنع النقد الأدبى حينا من الزمان وكانت أحكامه وليدة الهوى والغرض ولم يستطع أن يكشف للناس عن موهبة مستورة أو نبوغ مكنون .

ثانيا : تعمد الإثارة وإحداث الدوى وقد كشف هذا الجانب محمد لطفى جمعه حين قال : « إن الدكتور طه يعلم أن هذه الأمة لا يحركها إلا البحث فى دينها ولمس شعورها من قريب أو من بعيد ، ورأى انه لا شىء يحرك الخمول مثل إثارة هذا الشعور فعمد فى كتابه (الشعر الجاهلى) إلى هذا فلما انبرى له الكتاب وهاج البرلمان أرغم على أن يبرأ مما نسب إليه ، ومضى أكثر من عشر سنوات ورأى الدكتور أن الجو هادىء فاراد أن يثير غبار مسألة جديدة فكان حديثه عن فرعونية مصر ، ومن ذلك ما ذكر الدكتور محمد حسين هيكل من تحول صاحب الرأى الذى لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير لأن الشعب كلف بها ومحب لها . ويقول فى هذا زكى مبارك : لقد كان لوحة إعلانات لا تدفع الرأى إلا ليغيظ الجمهور وليصبح حديث الناس فى الأندية والمجتمعات .

ثالثا : أبرز مراوغات طه حسين « المهارة الأدبية » هذه التى تدعوه أن يقتحم أى مجال اعتمادا على جرس أسلوبه وموسيقاه التى تأخذ بالألباب وهى خصلة قريبة المأخذ ولكنها لا تستطيع أن تحقق شيئا على المدى الطويل إذ سرعان ما تتكشف الحقائق ويبدو للعيان ذلك الخداع البارع وينطفىء ذلك البريق اللامع ، هذه المهارة ليست إلا قشرة براقة تخدع السذج والأغرار ولكنها سرعان ما تكشف عن جوهرها فإذا هو هباء .

يقول الدكتور زكى مبارك : لا يمكن أن نعرف قيمة الدكتور طه إلا إذا نظرنا فى مهارته

الأدبية وبيان ذلك ان هذا الرجل قليل المحصول ولعلى ما رأيت فى حياتى رجلا قليل العلم مع الصيت البين كما رأيت طه حسين ومع قلة محصوله العلمى تراه يتكلم كلام المحققين ويمضى فيبنى ويهدم وينقض، وكأنه عالم محقق أخذ بنواحى المعارف الإنسانية فى القديم والحديث، وهذا لا يقع إلا من رجل وصل فى المهارة إلى أبعد الحدود. يضاف إلى ذلك كله لسان يحكى سلاسة المرمر وليونة الماء فإذا سمعت طه حسين وهو يحاضر شعرت انك أمام إنسان يملك ناصية الحديث وليس ذلك بالقليل.

ولكن الشخصية العلمية شىء غير ذلك، فالدكتور طه الذى يبرم وينقض ويتحدث فيحسن الحديث، هذا الرجل قد انهزم فى الميادين العلمية ولم يظفر من المجد الأدبى بأيسر نصيب، وأعيذكم ان تظنوا بانه الف أقصوصة اسمها الأيام فإن الأقاصيص ليست من الفنون العالية وإنما هو فن يمثل سذاجة الإنسان الأول يوم كان يملأ الدنيا اساطير وأحاديث».

* * *

أسلوب طه حسين فى تقدير الباحثين يقوم على التشكيك والسخرية والتكرار والبراعة الأدبية والإثارة وإحداث الدوى ولا يصل أبدا إلى مقطع الحق فى أمر أو التماس الحقيقة خالصة لوجه العلم وحده، وكتابه (بين بين) يكاد يكون رمزا لطه حسين فى فنه وحياته وسياسته وأسلوبه: يتكلم به عن المقبل كالمدبر والجاد كالهازل واليقظان كالنائم والنائم كاليقظان، لغته مرنة تصلح للف والمداورة ولا تصف شيئا بأنه أبيض أو أسود بل تصفه بأنه أقرب ما يكون إلى البياض[1] متردد بين المفهوم وغير المفهوم والمتحول والثابت والممكن وغير الممكن، لا تراه إلا داعية للشك وألا آخذا بالظن لم يثبت فى حياته شيئا[2]

وهناك محاولة الدكتور طه حسين الواضحة لنقل استعارات اللغة الفرنسية وجريانه على أسلوبها، فرنسى الأسلوب، فرنسى الطريقة فى النقد، فرنسى العناوين[3] يقول لأصحابه (انى أفكر بالفرنسية وأكتب بالعربية) فالكتابة بأساليب العرب أما الفكرة فهى من دنيا الفكر الفرنسى وطريق الحياة والتفكير فيه ولا سيما التصوير [4].

كذلك عرف بظاهرة التكرار، يقول مصطفى صادق الرافعى:

أول من اجترأ على الأدب العربى بالمسخ والتكلف وأدارة على الوهم البعيد وتناوله من حيث يأخذه علما ليتركه جهلا وهو يحسب أنه أخذه جهلا وتاركه علما، ثم كان أول من

(١) فتحى غانم

(٢) عمر فروخ

(٣) فؤاد جبيش المكشوف

(٤) زكى المحاسنى

استعمل الركاكة فى أسلوب التكرار كأنه يمضغ الكلام مضغاً فنزل به إلى أحط منازله وابتلى العربية بالمكروه الذى صبر فيه والمرض الذى لا علاج منه.

وبعد التهكم سلاحاً قوياً من اسلحة طه حسين وهو تهكم لا ذع - يقول إسماعيل أدهم أحمد إنه استمده من الأدب الفرنسى وخاصة كتابات أناتول فرانس.

أما المبالغة فهى من أظهر معالم أسلوبه:

وذلك مثل قوله: كنت أريد أن أضع فى (ديكارت) كتابا واضطرنى ذلك إلى كثير من البحث والتحقيق ولكنى لا آسف على ما لقيت من عناء فقد وصلت إلى نتائج غريبة لو أعلنتها فى فرنسا لاندك لها السربون ولا ضطرب لها الكوليج دى فرانس ولأعلن لها المجمع العلمى الفرنسى افلاسه، لا تضحك ولا تعجب فلست احدثك إلا بالحق الذى لا شك فيه ولا غبار عليه !!

وهناك محاولة القضاء على قدسية النص الإسلامى والاجتراء على الحقائق المقررة وإثارة الشبهات والشكوك. وانتقاص المشاعر الإسلامية والعربية والسخرية بالتراث والكلف بالشذوذ والخروج عما عليه الجماعة.

ومن ذلك الاهتمام بالأسلوب الساخر المليء بالنكر والمقت وخاصة إذا اتصل الأمر بالأزهر أو التاريخ الإسلامى ومن هنا موقفه من على عبد الرازق وسخريته من الأزهر ومن الإسلام.

ويتحدث طه حسين عن: حب الفوضى فى الأدب وقد أعلن هذا الرأى مرارا فقال: إنى حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى فى الأدب، لأنى لا أستطيع أن أتصور الأدب إلا على هذا النحو.

قال المستشرق هاملتون جب فى تقريره عن الأدب العربى عام ١٩٣٠:

إن طه حسين هاجم الرأى العام المصرى بطريقة الشك الفلسفى وإنه سار يقطع المراحل من إنكار إلى إنكار وعنوان هذا الأسلوب: حديث الأربعاء ثم تبعه بكتاب فى الشعر الجاهلى.

والواقع إن طه حسين لم يخف هذه الظاهرة فى فكره أو أدبه بل عبر عنها فى كثير من كتاباته ومنها قوله: إنه ممن خلق الله لهم عقولا تجد فى الشك لذة والقلق والأضطراب رضاء».

وقد جابهه محمد أحمد الغمراوى حين قال له: كيف يقدس الحق من يجد فى الشك لذة ام كيف يطمئن للحقائق من يجد فى القلق والاضطراب رضا».

إذا كان الشك يلذ للدكتور وأمثاله من المجددين والاضطراب تستريح إليه نفسه فكيف

يستنتج مجهولا من معلوم وينتقل من مقدمات إلى نتائج ومن مبادىء إلى غايات وهل إذا وضحت أمام الدكتور المقدمات وتجلت الحقائق يأمن أن تساوره شهوة الشك أو يملك عليه أمره لذة القلق والاضطراب وبذلك لا يستطيع أن يبرم حكماً أو يقطع أمراً فيصبح عدواً للعلم بغيضاً لليقين »

وفى كل ما كتب طه حسين قام بحثه على الشك : ١ ـ الشك فى الشعر الجاهلى (فى الأدب الجاهلى) ٢ ـ الشك فى نسب المتنبى (مع المتنبى) ٣ ـ الشك فى عروبة مصر (مستقبل الثقافة) الشك فى وجود عبد الله بن سبا (الفتنة الكبرى) .

ولقد دمغ الأستاذ محمد طاهر نور منهب الشك عند طه حسين وكشف عن أنه ليس منهجاً علمياً وإنما هو ادعاء زائف حين قال : إن الخطأ عنده يبدأ بافتراض يتخيله ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة ، وذلك شأنه فى مسألة إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة بدأ بقوله : للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكنه قال : إن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة . إلى هنا أظهر الشك بعدم قيام الدليل التاريخى فى نظره كما تتطلبه الطرق الحديثة ثم انتهى بأن قرر فى كثير من الصراحة [أمر هذه القصة إذن واضح فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الاسلام لسبب دينى] فما هو الدليل الذى انتقل به من الشك إلى اليقين ، هل دليله هو [نحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعاً من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى وأن أقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمالى البلاد العربية] .

المؤلف يرى أن ظهور الإسلام قد اقتضى أن يثبت الصلة بين ديانة اليهود والنصارى وأن القرابة المادية الحقيقية بين العرب واليهود اللازمة لاثبات الصلة بين الإسلام واليهودية واستغلها لهذا الغرض ، فهل له أن يبين السبب فى عدم إهتمامه أيضاً بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الإسلام وبين النصرانية . إن الأستاذ ليعجز حقا عن تقديم هذا البيان وكل ما استند عليه من الأدلة [فليس يبعد أن يكون ـ فما الذى يمنع ـ ونحن نعتقد ، إذن فنستطيع أن نقول]

فالأستاذ المؤلف فى بحثه إذا رأى إنكار شىء يقول : « لا دليل من الأدلة التى تتطلبها الطرق الحديثة للبحث وإذا رأى تقرير أمر لا يدلل عليه بغير الأدلة التى أحصيناها له وكفى بقوله حجة ! » .

وهكذا نرى أن شك طه حسين لا يقوم على أساس علمى وإنما هى محاولة لإثارة الشبهات

حول الحقائق الثابتة.

وقد كشف كثيرون ومنهم الدكتور محمد أحمد الغمراوى عن فساد اتخاذ طه حسين منهج ديكارت أساساً للبحث عن الحقيقة وهاجم مفهوم الشك على هذا النحو فقال: إن العلم الحديث يحرم مثل شك الدكتور طه أن يؤخذ به فى العلوم الطبيعية فإنه للأخذ به فى العلوم غير الطبيعية أشد تحريماً ذلك لأن العلوم الطبيعية كالكيمياء والطب تملك ضد الشك سلاحا لا تملكه الفنون الأدبية كالتاريخ، ذلك السلاح الذى لا يرد هو «التجربة» وعن طريق المعمل يقنع أو يفحم كل متفلسف شكاك فلا يسيطر شره على الناس، أما التاريخ فلا يستطيع أن يحاكم الشاك إلى مثل ذلك الحكم، ولا أن يفضح أمر المتجر بالشك. هذا هو الفرق بين التاريخ والعلم التجريبى، فى القدرة على اتقاء مضرة الشك المطلق بالرجوع إلى طبيعة كل منهما فالعلم له ظواهره والتاريخ له ظواهره. إن الغرب نجا من أن يحاول هدم تاريخه أو تاريخ لغاته هادم عن طريق الشك غير العلمى لسيادة الرأى العلمى فيه واستحواذ الروح العلمية على أهله. أما الشرق فليس له مثل هذين السياجين، يردان عنه عادية هذا الباطل الذى يهاجمه باسم الحق، ولا هذا الشك الذى يريد أن يداخله باسم العلم، ولا هذا الهدم والتعطيل اللذين يكر عليه به نفر من أهله باسم التجديد.

ومهما يكن من موقف المؤرخين فى الشرق أو فى الغرب حيال مبدأ الشك المطلق فإن العلماء لا يأخذون به وأن العلم لا يقره ولا يمكن أن يقره، ومن الافتئات على العلم والاجتراء على الحق بل ومن أكبر العقوق للشرق أن يأتى شرقى أوتى شيئاً من الفصاحة وقسطاً من الثقافة لا يعرف عن التربية العلمية إلا ما قرأ أو سمع من غير أن يشاهد بنفسه ويمارس بحسه ما يأتى فيملأ فاه فخراً على أهل فنه باسم العلم ويحارب الشرق فى أعز ما لديه من حيث يدرى أو لا يدرى باسم العلم ويطبق على هذا التاريخ الشرق باسم العلم مبدءاً يحرمه العلم. ذلك هو العقوق الفكرى وذلك هو الضلال المبين (النقد التحليلى ص ١٣٢).

الاعتماد على المصادر الضعيفة

إن اعتماد طه حسين على المصادر الضعيفة إنما يرجع إلى أهوائه الأدبية التى يجرى معها أساساً، ذلك أنه يريد أن يخدع قارئه بأنه لم يورد رأيه هذا الغريب من عنده ويود أن يضع جواً علمياً مهيباً حول شبهاته حتى تثبت وتجد طريقها إلى نفوس الناس، ولذلك فهو يتعمد اصطناع «صورية» المنهج العلمى القائم على مصادر ومراجع.

ومن هنا يجىء اعتماده على المصادر الضعيفة وأبرز صورة لذلك هو كتابه عن الفتنة الكبرى حين أراد أن ينكر وجود شخصية (عبد الله بن سبا) المعروف بابن أبى السوداء، فلا بد

لذلك من الاعتماد على مصدر، فما هو ذلك المصدر، ذلك المصدر هو كتاب ملفق كتبه البلاذرى وضاعت منه أجزاء وجاءت الصهيونية لأنها تريد أن تؤكد للناس «خرافة» شخصية عبد الله بن سبأ فطبعت هذا الكتاب فى إسرائيل، هذا الكتاب هو الذى اعتمد عليه طه حسين ليس فى تحقيق وجود شخصية عبد الله بن سبأ، بل ليجرى فى نفس الطريق بإنكار هذه الشخصية، وبينما عشرات المراجع الموثقة تؤكد وجود عبد الله بن سبأ فإن طه حسين يعرض عنها جميعاً ويتكىء على البلاذرى فى كتابه الملفق.

فنى جميع المراجع ماعدا البلاذرى يرد أمر ابن سبأ، فى مقدمة ذلك الطبرى الذى تجاهله طه حسين فى هذا الموقف تماماً، قال الطبرى [كان عبد الله بن سبا يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء فأسلم زمن عثمان ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ثم الشام، كما ذكره الشهر ستانى فى الملل وابن حزم فى الفصل وعبد القادر البغدادى فى الفرق بين الفرق، والاسفراينى فى التبصر فى الدين وابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث وابن عبد ربه فى العقد الفريد].

* * *

وفى شبهاته التى اعتمدها فى (الشعر الجاهلى) كان ناقلا من (جرجس صال) المبشر.

انتقاص اقدار الرجال وتدمير البطولات

لقد أدى طه حسين اهتمامه بانتقاص أقدار الرجال وتدمير البطولات العربية الإسلامية جريا وراء الأهواء أو إرضاء أساتذته أو بحثاً وراء الشهرة أو موالاة أجهزة التغريب والغزو الثقافى المتصلة بدوائر السياسة فى وزارات الاستعمار أو دوائر الماسونية والتبشير والاستشراق وغيرها من هيئات تعادى الأمة العربية والإسلام.

وقد بدا ذلك واضحا فى أول موقف له وهو رسالته إلى السربون عن (ابن خلدون) ذلك العبقرى العالم الذى يعترف له الغرب والمنصفون من كتابه بأثره البعيد المدى فى الفكر البشرى عامة وذلك نتيجة لإضافاته البناءة فى مجال علوم التاريخ والاجتماع والاقتصاد.

أما طه حسين فقد هاجم ابن خلدون وانتقص من قدره ومن علمه ومن مصادره، وجرى فى ذلك مجرى المستشرقين الذين أشرفوا على رسالته ارضاء لهم؛ بل إنه انتقص من جهاد المغاربة فى مقاومة الاستعمار الفرنسى ووصف ذلك بأنه معارضة للتمدن، ووصف استعمار فرنسا بأنه تمدين للمغرب

وقد بلغ طه حسين فى ذلك حداً بعيداً فى انتقاص قدر ابن خلدون وقد نقل ذلك كله من

كتابات دور كايم الذى كان يرأس امتحان الدكتوراه .

ثم عاد طه حسين فوجه انتقاصه لشخصية من أبرز شخصيات الأدب العربى هو (المتنبى) فادعى بأنه لقيط ، وهاجم حياته وشخصه فى مؤلف ضخم وكان فى ذلك جارياً على نفس الهدف والمخطط الذى اختاره ، أما ما أورده فقد سبقه إليه المستشرق الفرنسى (بلا شير) ولا شك أن الهجوم على المتنبى إنما كان يهدف إلى تدمير علم يعده الأدب العربى من أقوى أعلامه .

ولم يتوقف طه حسين عند ابن خلدون والمتنبى ، بل إنه فى كتابه عن الفتنة الكبرى قد حرص على الإساءة والسخرية والامتهان لمجموعة من الصحابه الذين عايشوا الرسول ﷺ إذ حاول فى كتابه ذاك أن يصورهم على أنهم ساسة متضاربون طامعون فى الحكم ، يقوم خلافهم على أساس الطمع فى السلطة والتطلع إلى السلطان . وليس الأمر فى ذلك صحيحاً ، وإنما هى محاولة من الدكتور لإزالة ذلك التقدير الكريم الذى حرص عليه المؤرخون المسلمون لصحابة الرسول . ومحاولة لتدمير القاعدة التى حرص الفكر الإسلامى على الاعتزاز بها وهى : الابتعاد عن مناقشة الفتنة على النحو الذى تناقش به قضايا السياسة فى عصرنا هذا . أو وضع أعلام الصحابة على قواعد نقد عصر غير عصرهم ودون تقدير طبيعة البيئة أو الظروف التى كانت تغلف عصر الصحابة .

وكان طه حسين فى ذلك كله محاولا القضاء على كثير من القيم الأساسية للفكر الإسلامى الذى تعارف عليها وذلك كله كمقدمة للشك والسخرية بالتاريخ الإسلامى وبأبطال المسلمين والعرب والنظر إليهم نظرة تخدش موضع المثل الأعلى للمسلمين .

ولقد سخر طه حسين فى عديد من كتبه بشخصيات متعددة من أعلام الفكر الإسلامى والأدب العربى ، وأعلى من شأن شخصيات أخرى لا تتميز بالعظمة أو البطولة .

تعقب العورات

تكاد تكون نحلة تعقب العورات من أبرز الظواهر التى جرت عليها كتابات الدكتور طه حسين طوال هذا التاريخ الطويل ومن خلال هذه الآثار المتعددة .

فهو عندما جلا شخصيات أبو نواس وبشار وغيرهم من شعراء الكشف إنما كان يتعقب عورتهم ويفضح مجالسهم ويعيد اذاعة الفسق والفجور الذى انطوى بانطواء صفحاتهم .

وعندما ترجم القصص الفرنسية الإباحية إنما كان يريد أن ينقل إلى اللغة العربية والأدب العربى تلك الصور المزرية وتلك المواقف الفاضحة .

وفى هذا يقول صديقه « المازنى » :

إقرأ للأستاذ قصصه التى ترجمها ، هل كان همه نقل الفصاحة الأفرنجية إلى قراء اللغة العربية أو نقل الصور الفاضلة فى ثيابها المصونة ، إنما كان همه مدح الخيانة والاعتذار للخونة وتصوير الخلاعة والمجون فى صور جذابة ليقضى بهذه الترجمة حق الإباحية لا حق اللغة ولا حق الفضيلة ، وكان طه حسين يقول : إنه ممن خلق الله لهم عقولا تجد فى الشك لذة وفى القلق والأضطراب رضا .

وعندما كتب عن المتنبى كان همه أن يثبت شيئا غريبا هو أن المتنبى لقيط وأن هذا كان استنتاجا أراد أن يحوله إلى حقيقة ، ووهم أراد أن يجعله واقعا فضى يجرى وراء شعر المتنبى وما كتب عنه ليحاول الصاق هذه الفرية به .

وعندما تحول طه حسين من حزب الأحرار إلى حزب الوفد ، تعقب أصدقاءه القدامى ، وكشف عن عوراتهم .

يقول محمد هاشم عطية : عاد طه حسين إلى الجامعة بعد أن أبعد عنها مدة قدر خلالها أن ينفض يديه من إخوانه الدستوريين وأن يجفو سياستهم وصحفهم ومجالسهم ، ويصير فى غمضة عين وطنياً مؤمناً موقناً بمبادىء الوفد وكاتباً فى صحفه ، وزائراً لبيت الأمة ، ومؤيداً لخليفة سعد وصديقاً لأنصاره بعد عمر طويل أفنى زهرته فى التشهير بهم ومحاولة النيل منهم بما يتعفف كثير من أهل الحزازات عن التهاجى بمثله تنزهاً عن مشابهة أخلاق العامة من الناس .

المبالغة والاستغلاء على المناهج

وتبدو طريقة الدكتور طه حسين واضحة فى عدد من الإيماءات والاشارات فى مقدمة كتبه فهو إما جماع مقالات لم تتح له الفرصة لمراجعتها ، وإما مقالات كان يطمع فى أن يغير فيها ويبدل . وإما أشياء لم تستقر فى صورتها النهائية .

بل إنه كثيراً ما يغير صورة البحث تغييراً جذرياً كما فعل فى كتاب (حديث الأربعاء) الذى يمثل مجموعة من مقالات نشرها فى السياسة الأسبوعية ١٩٢٣ وأهداها إلى لطفى السيد ، فإذا به فى طبعة عام ١٩٥٤ يغير هذا كله ، فيزيح هذه المقالات إلى الجزء الثانى وهى صميم هدف الكتاب ، ويقدم مجموعة جديدة من المقالات كتبها فى المصرى عام ١٩٣٥ بنفس إهداء عام ١٩٢٤ وهنا يبدو مبلغ الاستهانة بالأصول التاريخية وإبقائها على وضعها الذى عرف عنها من حيث مادة (حديث الأربعاء) الأساسية وذلك بتقديم مادة أخرى من نوع آخر لا يتمثل فيها ما عرف عن المادة الأولى .

* * *

ومن أبلغ مبالغاته ما ذكره وهو بصدد الحديث عن (ديكارت) :

كنت أريد أن أضع فيه كتاباً واضطرنى ذلك إلى كثير من البحث والتحقيق وإلى ألوان من الاستقصاء والاستقراء ، ولكنى لا آسف على ما لقيت من عناء فقد وصلت إلى نتائج غربية قيمة لو أعلنتها فى فرنسا لا ندكت لها السربون ولا ضطرب لها الكوليج دى فرانس ، ولأعلن لها المجمع العلمى الفرنسى إفلاسه ، لا تضحك ، ولا تعجب ، فلست أحدثك إلا بالحق الذى لا شك فيه ولا غبار عليه .

أى حق يمكن أن يكون موضع ثقة القارىء من الدكتور وهو لم يدع أمراً واحداً يمكن أن يقبله القارىء على أنه صدق وإنما هى كتابات ساخرة ، لا عبة ، كلها عبث واستهانة ، تعلو وتهبط ، وتتدافع عنا وهناك ، دون أن تستقر على شىء وهل يستطيع باحث أن يثق فى شىء مما يقوله الدكتور على أنه حق ، وهو داعية الشك والسخرية فى الأدب الغربى المعاصر .

أقرأ معى ما يقدم به قصة (المعذبون فى الأرض) وانظر إلى أى حد يذهب فى المبالغة والاستعلاء على المناهج وعلى القراء .

« لا أضع قصة تخضع لأصول الفن ، ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول لأننى لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته أن يدخل بينى وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو الخاطر يخطر لى فأمليه ثم أذيعه فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه .

ويقول محمود عبد المنعم مراد معلقاً على ذلك :

« إنه يضع نفسه فوق النقد ، لا يحب أن يسمعه ولا يعترف به ، ولا يريد أن يقيم له وزنا ، ولماذا لأنه يريد أن يكون حراً فيما يكتب ويذيع على الناس ، وكيف إذن بنى طه حسين مجده الأدبى ، ألم يكن ذلك على حساب غيره من الأدباء القدامى والمحدثين على السواء . يخيل إلى أن الذى ألجأ طه إلى هذه الثورة الغاضبة على النقاد والقراء هو إحساسه فى ذلك الموضع فى كتابه أنه معرض للنقد فأراد أن يقطع الطريق على هؤلاء النقاد الفضوليين ، ولا أعرف فى التاريخ كله كاتباً مهما تبلغ عبقريته يستطيع أن يقول للناقد : قف من أنت ، ولن يستطيع طه حسين بهذا الكلام الذى ساقه أن يمنع قارئاً أو ناقداً من أن يبدى إعجابه بما كتب أو سخط عليه » (1)

ويقول عبد الحميد جودة السحار : إن طه حسين يشبه السقاء فهو يحمل أبطال قصصه على ظهره كالقربة ويقف منهم كناظر المدرسة لا يسمح لهم بالكلام إلا بإذنه .

---

(1) جريدة المصرى ـ ٣٠ يناير ١٩٥٣

الفصـــل الخــامس

الاســـتجواب

تتمثل المواقف الحاسمة فى حياة طه حسين الفكرية حسب تقديره هو فى الآثار المترتبة على حادث كتاب الشعر الجاهلى الذى كان علامة على طريق طويل فى مواجهة ممتدة مع بيئات الفكر الإسلامى وحركة اليقظة الإسلامية والبرلمان وممثلى الأمة والأزهر والجمعيات الإسلامية وقد امتدت هذه المواقف من أزمة ١٩٢٦ إلى أزمة ١٩٣٢ التى قضت بإخراج طه حسين من الجامعة . ثم كان ذلك التحول الذى أراد به طه حسين أن يعود إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى « مخادعا » لا حبا فى الإســلام بل رغبة فى التأثير فيه وخلق كيان فكرى له يتمثل فى مجموعة من الآراء يمكن أن يقال من بعد إنها رأى عالم أزهرى درس فى أوربا وتنطوى هذه الآراء على انتقاص تكامل الإسلام والضرب على نغمة « روحية » الإسلام وأنه دين لا هوتى عبادى لا صلة له بالحياة ولا بالأخلاق ولا بنظام المجتمع وذلك جوهر النظرة الاستشراقية الغربية التى تستهدف عزل الإسلام عن التطبيق وهى قمة ما كشفت عن زيفه حركة اليقظة التى قاومت طه حسين وحوارييه لقد كانت حركة طه حسين فى الشعر الجاهلى عملا أحفظ عليه النفوس فلا عليه من أن يعود إلى إرضاء الجماهير عن طريق الدين بكتابه هامش السيرة والوعد الحق والفتنة الكبرى كلها فى مظهرها العام دراسات إسلامية أشاد تلاميذه وحواريوه بها لإقناع الشعب بأنه أصبح وطنيا مخلصا ، وكان الهدف من ذلك هو إعادة الثقة إلى نفسه ليكون قادراً على أداء دوره الخطير الذى تمثل بعد ذلك فى أشياء كثيرة . أهمها التأثير عند المناهج التربوية فى الجامعة ووزارة المعارف وخاصة برنامجه فى « مستقبل الثقافة » وهو العمل الذى اختير لتنفيذه مراقبا للثقافة ومستشاراً ومديراً للجامعة ووزيراً للمعارف .

ولم تتوقف محاسبة طه حسين خلال الفترة من (١٩٢٦ ـ ١٩٤٠) بل توالت فى الدورات المختلفة تكشف عن محاولاته وتدافع عن عقائد شباب المسلمين وفى كل مرة كان هناك عمل جديد يقذف به حافلا بالسموم والشبهات وفى كل مرة نجد ألسنة جديدة وأقلاما جديدة وحقائق دامغة .

ففى عام ١٩٢٦ وبعد ظهور كتاب [فى الشعر الجاهلى] تقدم (عبد الحميد البنان) إلى مجلس النواب باستجواب يتضمن :

أولا : مصادرة وإعدام كتاب طه حسين المسمى (فى الشعر الجاهلى) بمناسبة ما جاء به من تكذيب فى القرآن الكريم واتخاذ ما يلزم لاسترداد المبلغ المدفوع إليه من الجامعة ثمنا لهذا الكتاب .

ثانيا : تكليف النيابة العمومية برفع الدعوى العمومية عليه لطعنه فى الدين الإسلامى دين الدولة .

ثالثا : إلغاء وظيفته فى الجامعة .

وقد تقدم الشيخ خليل حسنين الطالب بالقسم العالى بالأزهر إلى النائب العام ببلاغ يتهم فيه طه حسين بأنه ألف كتابا أسماه (فى الشعر الجاهلى) فيه طعن جرىء فى القرآن العظيم حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوى ، كما أرسل الجامع الأزهر إلى النائب العام خطابا يبلغ إليه رأى علماء الجامع الأزهر .

وقد لخصت النيابة الاتهامات فى أربع مسائل كبرى :

الأول : أن المؤلف أهان الدين الإسلامى بتكذيب القرآن فى أخباره عن إبراهيم وإسماعيل حيث ذكر فى ٢٦ من كتابه ما يلى :

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلا عن إثبات هذه القضية التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن ابراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى » إلى آخر ما جاء فى هذا الصدد .

الثانى : ما تعرض له المؤلف فى شأن القراءات السبع المجمع عليها والثابتة لدى المسلمين جميعا ، وأنه فى كلامه عنها يزعم عدم إنزالها من عند الله وأن هذه القراءات إنما قرأتها العرب حسب ما استطاعت لا كما أوحى الله بها إلى نبيه مع أننا معاشر المسلمين نعلم أن كل هذه القراءات مروية عن الله تعالى على لسان النبى ﷺ .

الثالث : أن المؤلف طعن فى كتابه على النبى ﷺ طعنا فاحشا من حيث نسبه فقال فى ص ٧٢ من كتابه :

« ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر واضافته إلى الجاهليين وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه إلى قريش فلأمر ما أقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون صفوة بنى هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة بنى عبد مناف وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بنى قصى وأن تكون قصى صفوة قريش وقريش صفوة مضر ومضر صفوة عدنان وعدنان

صفوة العرب والعرب صفوة الإنسانية كلها ».

وقالوا أن تعدى المؤلف بالتعرض بنسب النبي والتحقير من قدره هو تعد على الدين وجرم عظيم يسيء إلى المسلمين والإسلام فهو قد اجترأ فى أمر لم يسبقه كافر ولا مشرك.

الرابع: أن المؤلف أنكر أن للإسلام أولية فى بلاد العرب وأنه دين إبراهيم إذ يقول فى ص ٨٠:

« أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أولية فى بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي وأن خلاصة الدين الإسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل » إلى أن قال فى ص ٨١ « وشاعت فى العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين ابراهيم ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور ثم أعرضت عنه لما أضلها به المضلون وانصرفت إلى عبادة الأوثان ».

وأشار التقرير الذى قدمه علماء الأزهر (محمد حسنين الغمراوى، أحمد العوامرى، محمد عبد المطلب) عن كتاب الشعر الجاهلى أن الكتاب فيه شيء كثير يناقض الدين الإسلامي ويمسه مسا مختلف الدرجات فى أصوله وفروعه:

أولا: أضاع على المسلمين الوحدة القومية والعاطفة الدينية وكل ما يتصل بهما (المقدمة):

ثانيا: أضاع عليهم الإيمان بتواتر القرآن وقراءاته وأنها وحى من الله (باب اللهجات)

ثالثا: أضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم (باب السياسة والدين).

رابعا: وأضاع عليهم الثقة بسيرة النبي فى كل ما كتب فيها.

خامسا: أضاع عليهم الاعتقاد بصدق القرآن وتنزيهه عن الكذب.

سادسا: أضاع عليهم الوحدة الإسلامية التى أوجدها الدين والقرآن والنبي بين الأنصار والمهاجرين.

سابعا: أضاع عليهم تنزيه القرآن عن التهكم والازدراء بما كتب فى سورة الجن وصحف ابراهيم.

ثامنا: أضاع عليهم تنزيه النبي وأسرته عن موطن التهكم والاستخفاف.

تاسعا: أضاع عليهم ما وجب من حرمة الصحابة والتابعين.

عاشرا : أضاع عليهم صدق القرآن والنبى فيما أخبر به عن ملة إبراهيم

حادى عشر : أضاع عليهم براءة القرآن مما رماه به المستشرقون .

ثانى عشر : أضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسله وكرام خلقه .

وأشار (محمد حسنين الغمراوى ، عبد الحميد حسن ، أحمد أمين) : فى تقرير آخر عن الكتاب إلى ثلاث نقاط بها مساس بالدين الإسلامى :

(١) علاقة القراءات السبع بالوحى .
(٢) رأى المستشرقين فى مصادر القرآن .
(٣) الصلة بين الإسلام وملة ابراهيم .

وقال الأستاذ محمد طاهر نور الذى أجرى التحقيق مع طه حسين :

الخطأ حين يبدأ بافتراض تخيله ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة . كما فعل فى أمر الاختلافات بين لغة محمد ﷺ ولغة عدنان ، وفى مسألة ابراهيم وإسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة . بدأ بقوله :

للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكنه قال إن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إبراهيم وإسماعيل إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . إلى هنا أظهر الشك بعدم قيام الدليل التاريخى فى نظره ، كما تتطلبه الطرق الحديثة ثم أنتهى بأن قرر فى كثير من الصراحة [أمر هذه القصة إذن واضح فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى] فما هو الدليل الذى انتقل به من الشك إلى اليقين ، هل دليله هو قوله [نحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى وأن أقدم عصر يمكن أن يكون قد نشأت فيه هذه الفكرة ، إنما هو العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمالى البلاد العربية] المؤلف يرى أن ظهور الإسلام قد اقتضى تثبيت الصلة بين ديانة اليهود والنصارى ، وأن القرابة المادية الحقيقية بين العرب واليهود اللازمة لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية فاستغلها لهذا الغرض : فهل له أن يبين السبب فى عدم اهتمامه أيضا بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الإسلام وبين النصرانية . إن الأستاذ ليعجز حقا عن تقديم هذا البيان وكل ما استند إليه من الآدلة (ليس يبعد أن يكون) ـ (فما الذى يمنع) ـ (ونحن نعتقد) ـ (إذن فنستطيع أن نقول) فالأستاذ المؤلف فى بحثه إذا رأى إنكار شىء يقول : لا دليل عليه من الأدلة التى تتطلبها الطرق الحديثة للبحث ، وإذا رأى تقرير أمر لا يدلل عليه بغير الأدلة التى

أحصينا له وكفى بقوله حجة وسئل عن أصل هذه المساءلة (أى تلفيق القصة) وهل هى من استنتاجه أو نقلها فقال : هذا فرض فرضته أنا دون أن أطلع عليه فى كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب أن شيئا من هذا الفرض يوجد فى كتب المبشرين [المبشر الذى تستر تحت اسم هاشم العربى] .

وكان هاشم العربى فى عبارته أظرف من مؤلف كتاب (فى الشعر الجاهلى) لأنه لم يتعرض للشك فى وجود إبراهيم وإسماعيل بالذات وإنما أكتفى بأن أنكر إن إسماعيل أبو العرب وقال أن حقيقة الأمر فى قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقهاء قدماء اليهود للعرب تزلفا لهم .

* * *

وقد كشف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى أن آراء طه حسين فى إبراهيم وإسماعيل قد أخذها من كتاب (ذيل مقالة فى الإسلام لهاشم العربى) والكتاب من عمل المبشرين الطاعنين فى الإسلام يقول صاحب ذيل مقالة فى الإسلام ص ٣٥٢ من كتابه (مقالة فى الإسلام) المطبوع فى مطبعة النيل المسيحية (أقدم طبعة للذيل عام ١٨٩١) « وحقيقة الأمر فى قصة إسماعيل انها دسيسة نقلها قدماء اليهود تزلفا إليهم وتذرعا بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة لهم فى بلاد العرب » وقد تابعه صاحب فى الشعر الجاهلى .

وصاحب الذيل يجعل (التوراة) هى الأصل ويعرض عليها القرآن فان خالفها طعن فيه (أى فى القرآن) أما الدكتور فيكذب بالتوراة والقرآن جميعا ، ويؤمن صاحب الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ويكذب أبوة إسماعيل للعرب فيأتى المقلد فيكذب بوجود إبراهيم وإسماعيل فضلا عن أبوتهما للعرب .

كان صاحب الذيل فطنا محترسا وكان حاكيه قليل الفطنة فاصطدم بالنقض الآتى : ان التوراة قد انتشرت فى البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها فى جزيرة العرب وكان فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهرانى العرب حيلة منهم للتقرب إليهم ولو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوها حيلة ، فما هو السر فى ان كان ذكر إبراهيم وإسماعيل فى جميع نسخ التوراة ، إن صاحب الذيل هو صاحب الفكرة الأصلية وقد كان أفطن لهذه الاعتراضات التى وقع فيها طه حسين فصدق بوجود إبراهيم وإسماعيل وكذب بأبوتها للعرب فقط . لقد سرق الدكتور طه بحثه من كتاب سخيف ولم يفهمه على وجهه ونقله من كتاب المسيحى المبشر على انه ابتكار من ابتكاراته ورأى من آرائه الجديدة وهو الذى أقام الدنيا وأقعدها على الشيخ علام سلامة إذ نقل عن لسان العرب ما نقل ولم ينسبه إلى صاحبه فلماذا إذاً استحل هذه السرقة القبطية وهو العالم الذى لا يبارى » .

وأشارت أبحاث أخرى إلى أن مر جليوث المستشرق اليهودى كان قد سبق إلى هذه الآراء (راجع ناصر الدين الأسد فى أطروحته عن الشعر الجاهلى) .

وفى مجلس النواب (١٢ سبتمبر ١٩٢٦) قال الأستاذ عبد الخالق عطية :

إن تصرف هذا الشخص كان مخالفا للذوق فلم يكن من المعقول ولا من حسن الذوق أن يقوم هذا الشخص فيبصق فى وجه الحكومة التى يتقاضى مرتبه من أموالها بالطعن فى دين رعيتها من أقلية وأكثرية . إننا إذ نسلم أولادنا للحكومة ليتعلموا فى دورها نفعل ذلك معتمدين على أن بيننا وبينها تعاقداً ضمنيا على أن الديانات محترمة ولا أقول تعاقداً ضمنيا فقط بل صريحا لأن الحكومة تعنى بتعليم الدين فى مدارسها ، فعلى الذين يحرقون بخور الالحاد أن يحرقوه فى قلوبهم لأنهم أحرار فى عقائدهم أو يحرقوه فى منازلهم لأنهم أحرار فى بيئاتهم الخاصة أما أن يطلقوه فى أجواء دور العلم ومنابر الجامعة فهذا لا يمكن أن يفهم بحال من الأحوال .

وبالنسبة لحرية الفكر قال عبد الخالق عطية : إنه لا توجد فى العالم حريات مطلقة ولو كان الأمر كذلك لقام فى البلاد من يهاجم نظام الحكم اعتماداً على حرية الرأى ، ولو كان الأمر كذلك لقام فى البلاد من يبث مبادىء الوفوضوية أو البلشفية استناداً إلى جهة الرأى ولكن الحرية محدودة وتنتهى عندما تبدأ بالتصادم مع مقتضيات النظام والقانون والتعليم حر بنص الدستور ، ويعد التعليم حراً إلا إذا أخل بالنظام العام إذا كان منافياً للآداب والأخلاق ، هذا معناه أن يترتب على تقرير الرأى حدوث فتنة أو احتمال حدوثها وعند ذلك يقف القانون حداً حائلا لأن المصالح العامة مقدمة على الشهوة .

* * *

فى ٢٩ يونيو ١٩٢٧ أثير موضوع طه حسين وعمله فى الجامعة وأثره فى الطلاب مرة أخرى فقد قدم الأستاذ محمود رشاد سؤالا إلى وزير المعارف بمجلس الشيوخ هذا نصه :

« فى الدورة البرلمانية الثالثة أثيرت بمجلس النواب مسألة مؤلف أصدره الأستاذ طه حسين أفندى سماه (فى الشعر الجاهلى) أوجب ضمه وقدمت بخصوصه شكاوى إلى النيابة العمومية وانتهى التحقيق فيها بقرار الحفظ ، لعدم توفر القصد الجنائى لدى المؤلف توفراً يوجب محاكمته جنائياً ، وقد جاء فى أسباب هذا القرار ما دعا الأستاذ طه حسين إلى تقديم استقالته من وظيفته فى الجامعة المصرية وأن هذه الاستقالة لم تقبل فأرجو إفادتى عن السبب الذى دعا إلى عدم قبولها » .

* * *

وفى الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب فى ٢٨ مارس ١٩٣٢ فتح باب الحديث عن طه حسين .

قال الدكتور عبد الحميد سعيد . إن مسألة الدكتور مسألة ليست حديثة ولا هى بالتى يجهلها إنسان من هذه الأمة فقد استنكرتها الأمة بهيئاتها اللهم إلا نفر قليل .

قامت ضجة حول هذا الرجل تراجع صداها فى مجلس النواب السابق ، واحتج عليه النواب وكان المجتمعون أمس هم اللذين يدافعون عنه الآن . فى ١٩٢٦ كان المرحوم سعد باشا زغلول أشد حماسة ضد كتاب الدكتور وقد دافع عدلى باشا وجماعة الأحرار الدستوريين عنه وأن الوزراء الوفديين جاروه خوفاً على كراسى الحكم وهى الغاية العظمى لهؤلاء الناس ، فعلوا ذلك فكانت النتيجة أن خلص هذا الرجل من العقاب ، كانوا فى ذلك الوقت يعتقدون أن بقاءهم فى الحكم رهن ببقاء عدلى باشا فانضموا إليه وخذلوا رئيسهم سعد زغلول .

وفى سنة ١٩٢٩ أثرت أنا هذا الموضوع وطلبت إبعاد هذا الرجل عن الجامعة ثم اثاره زميلى عبد العزيز الصوفانى ، وأثير الموضوع فى مجلس الشيوخ مرتين بواسطة الشيخ سعيد الرومى وثانيها بواسطة الشيخ رشاد باشا . ومن هذا يتضح أن الضجة القائمة ليس الغرض منها استقلال الجامعة وإنما هى الحزبية العمياء .

كان الشعر الجاهلى الذى ضجت عند صدوره البلاد ولا يزال يدرس فى الجامعة بعنوان (فى الأدب الجاهلى) ولكن تغيير العنوان لم يغير من روحه اللا دينية فان السموم التى أراد الدكتور أن ينفثها فى كتابه لا تزال ماثلة فى كثير من فصوله ومباحثه كما أنه قد زين للشبان وسائل المجون والفجور فى كتابه (حديث الأربعاء) .

إن كل ما جاء فى هذا الكتاب (الأدب الجاهلى) مخالف للكتاب والسنة وإن تعرضه للقرآن بهذه الكيفية من غير احتياج إليه فى حجة ، دليل على سوء القصد ، وفى جريمة أقل نتائجها أن يخرج القارىء لكتابه فى شك من كتاب الله والشك به ، ومما يدل على سوء نيته انه يختار بقلمه ولسانه أخبث مناحى الحياة مع التهكم والتعريض ، بأقدس ما يقدسه الناس من فضيلة ودين ، فهو يذكر المجون ويذكر الفجور ويروج لها باخلاص وصدق عزيمة وقد أثرت هذه النظريات فى عقول الشبان ورسخت فى أذهانهم وليس هذا بغريب لأن الشبان كما نعلم جميعاً لا يلمون بأصول الدين ولا يتمسكون بشعاره .

نشأ هذا الرجل فى الجامعة الأزهرية واشتهر بين إخوانه بتلك النزعة اللادينية والآراء الشاذة واعترض فى حياته أمور غرست فى نفسه عاطفة الحقد والحنق على الأزهر ثم على الإسلام من أجل الأزهر فشب عدواً للدين وتعاليمه يشوه كل ما هو منسوب إليه ومن تتبع حياته العلمية وجد أنه ينهب فى كل مسألة بالإسلام منهب أعداء الدين وخصومه الألداء .

وهناك نقطة ضعف فى حياته بسط تفاصيلها صديقه الحميم الأستاذ المازنى فى كتابه (قبض الريح) وهى ترجع إلى ما أحدثه كف بصره من التأثير فى مزاجه وفى تفكيره وإحساسه

ونظرته إلى الحياة والناس ، فهو لا يرى فى الحب إلا التمتع المادى ، ولأنه مكفوف البصر إذا لم يتقيد بالفضيلة جرى على لسانه ما يجرى على لسان بشار بن برد من فحش القول ، والتغنى بالحب الحيوانى وإن كان من أهل الفضيلة والاحتشام كان كأبى العلاء المعرى زاهداً عفيفاً ولكنه سىء الرأى فى المرأة يعتقد أنها متاع فقط .

إننا لا نشكو منه حرية الرأى ولا من ما يؤدى إليه من بحوث علمية وأدبية بريئة ولكنا نشكو منه غلا ران على قلبه نحو الإسلام والمسلمين ، نشكو منه أن يتخذ من الجامعة حصنا يقترف من خلف أسواره غاراته السامة الخانقة فيصيب من الأخلاق ، والآداب مقتلا ثم ينفث سمومه فى نفوس الطلبة وهم غير مسلحين بالدين وغير مدرعين بتلك التعاليم التى يمكنهم - لو كانوا يعلمونها - أن يهدوا بها الجبال . هذا الرجل يكلف بعض طلبته أن ينقدوا بعض آيات من القرآن الكريم يعينها لهم ، ويطلب منهم إثبات هذا النقد فى كراسات يتلونها عليه فكانوا يثبتون أن هذه الآية ليست من البلاغة وأن تلك الآية على جانب من الركاكة وأن الآية الأخرى مفككة لا تؤدى المعنى المقصود منها ولقد غاب عن هذا الرجل أنه لا يصح التصدى لتعبير القرآن إلا لمن يتوافر فيه شروط أساسية أهمها :

أن يكون ملما بكل فروع اللغة العربية وآدابها وأن يكون واسع الاطلاع عليا بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ، وبحديث رسول الله ﷺ وإسناده فهل تتوافر هذه الشروط فى الطلبة كما تتوافر فيمن يتعرض لتفسير كتاب الله فما بالكم بمن يريد أن ينقده ، وسأتلو عليكم بعض ما أثبته أحد طلبة الدكتور طه حسين فى كراسته مما كان يلقيه عليهم فالتقطه الطلبة عنه وسجلوه فى كراساتهم وهذه إحدى المذكرات التى أخذت من المحاضرات التى ألقاها الدكتور طه حسين فى كلية الآداب بقصر الزعفران (١٩٢٧ - ١٩٢٨) :

وصلنا فى المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب فى القرآن وقررنا أنه ليس على نسق واحد واليوم نوضح هذه الفكرة .

لاشك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذى لا يفرق فى نقده بين القرآن وبين أى كتاب أدبى آخر ، يلاحظ أن فى القرآن أسلوبين متعارضين لا يربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة ، فثلا نرى القسم المكى منه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة كما نشاهد فى القسم المدنى واليثربى تلوح عليه إمارات الثقافة والاستنارة فإذا دققتم النظر وجدتم القسم المكى ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد ، ويمتاز كذلك بقطع الفكرة واقتضاب المعانى ، وقصر الآيات والخلو التام من التشريع والقوانين كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التى تشبه بيئة مكة وانحطاطا أما

القسم المدنى [1] فهو هادىء لين وديع مسالم يقابل السوء بالحسنى وينافس الخصومة بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين ، كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات . ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن » ا.هـ

ويقول عبد الحميد سعيد فكأنه يريد القول صراحة أن القرآن مأخوذ من التوراة ومما جاء به قول طه حسين : ليس القرآن إلا كتابا ككل الكتب الخاضعة للنقد ، فيجبْ أن يجرى عليه ما يجرى عليها والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائيا عن قداسته التى تتصورونها وأن تعتبروه كتابا عاديا فتقولوا فيه كلمتكم ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شىء من هذا الكتاب ويبين ما يأخذه عليه .

وقال : كما تحدث عن فواتح السور ، وكتاباته فى الأدب الجاهلى وحديث الأربعاء محشوة بالطعن على الدين والتحريض على الفسق والفجور ، وأشار إلى تحقيق النيابة معه عام ١٩٢٦ وكيف أن المبادىء التى تضمنها كتابه فى الأدب الجاهلى ورد مثلها فى كتب بعض كتب المستشرقين ، وأن كتبه تتعرض لنشر المساوىء والعورات فى عصور الإسلام الزاهرة ، هذا هو أدب الرجل الذى يرأس كلية الآداب والذى يعهد إليه المسلمون بتعليم أبنائهم وتربيتهم . وأشار إلى الحكومات التى سكتت عن هذا الرجل وتركته يهدم الأخلاق والآداب ويعتدى على الدين فهى شريكة له فى إثمه ، وقال لقد شاع هنا وفى البلاد العربية أن هناك صلة بين الدكتور طه حسين وبين دعاة التنصير يثبت هذا ، التحقيق الذى أجرته النيابة وهو ينفث سمومه ويحتمى باستقلال الجامعة وما وجدت الجامعات إلا لتدعيم الأخلاق وتربية الفضيلة فإذا خرجت عن هذه القواعد فعدمها خير من وجودها ـ إنه لا يكفينا مطلقا أن ينقل طه حسين من الجامعة إلى المعارف لأنه مركز يمكنه من الإشراف على كتب التعليم وفى هذا من الخطر ما فيه وإن هذا النقل كنقل جيش الاحتلال من مصر إلى القنال .

* * *

فى ١٩٣٢/٣/٣١ قرر مجلس الوزراء فصل طه حسين من خدمة الحكومة وجاء ذلك نتيجة للتحقيقات التى أظهرت كثيراً من التصرفات وبعد أن مرت عدة إجراءات فى مقدمتها استجواب الدكتور عبد الحميد سعيد فى مجلس النواب (١٩٣٢/٣/٦) .

وأشير إلى الأخطاء التى اتصلت بانشاء معهد التمثيل والرقص التوقيعى الذى أنشأه

---

(١) نخرج من هذه النصوص بعدة حقائق . الخ .

الدكتور ، وما يتصل بها من صورة نشرت فى الأهرام عدد ١٦٩٥٩ تمثل طلبة المعهد وقد جلست كل شابة إلى جانب شاب .

كما أشير إلى تحريض الدكتور طه لأساتذة الجامعة بالامتناع عن التدريس فى كليات الأزهر وأن هذا يهدف إلى محاربة هذا المعهد الإسلامى وأشير إلى محاباة الدكتور طه لبعض الأساتذة الأجانب رعاية لجنسيتهم بالرغم من عدم كفايتهم الإدارية وعدم كفاءتهم العلمية ، وأن هناك اتصالات مباشرة بهيئات سياسية أجنبية بشأن توظيف الموظفين فى الجامعة مما يؤدى أحيانا إلى خلق صعوبات .

[الأهرام ٩٣٢/٤/٣ ؛ الصحف ١٩٣٢/٣/٩]

وأثيرت فى مجلس النواب أمور أخرى تتعلق بمكافأة الترجمة التى ظل الدكتور يحصل عليها سنوات عديدة : وقال المسئول أنه تقرر عام ١٩٢٧ اعطاء مكافأة للترجمة العربية للبحوث العلمية التى يتقدم بها الأساتذة وأن يعطى عشرة جنيهات شهريا مرتبا لسكرتير له للقيام بهذا العمل وفى أول يولية ١٩٣١ طلبت الجامعة من الدكتور طه بيان الأعمال التى قام بها منذ استيلائه على المكافأة فأجاب بأنه راجع ترجمة حضرتى أحمد حسن الزيات ويوسف كرم لكتاب (لالاند) المسمى : الحكم على قيمة الأشياء من الوجهة النفسية وانه يوشك أن ينتهى من ترجمة كتاب الأستاذ جراندور (اثينا فى عهد اغسطس) واوقفت المكافأة فى أغسطس ١٩٣١ وكتاب لالاند يقع فى ٦٠ صفحة وهذا كل ما قدم إلى الآن ، أما كتاب جراندور فيقع فى ٢٩٨ ولم يقدم منه شىء ومجموع المكافآت التى صرفت ٤٨٠ جنيها .

كذلك أثيرت مسألة المكافآت التى تصرف له بالنسبة للمؤتمرات التى حضرها ففى عام ١٩٢٦ : مؤتمر الآثار السورية ٥٠ جنيها وفى عام ١٩٢٨ مؤتمر المستشرقين باكسفورد ١١٢ جنيه (ولزوجته ٧٠ جنيها مصاريف انتقال وبدل سفر) وفى عام ١٩٣٠ مؤتمر المستشرقين فى فيينا وقد رافقته السيدة قرينته وصرف لها ١٣٠ جنيه ولحضرته وحده ١٩ جنيه وفى عام ١٩٣١ مثل الجامعة فى مؤتمر المستشرقين وقد رافقته السيدة قرينته فصرف له ٦٠ جنيها ولقرينته ٦٤ جنيها وبناء على شكواه وافقت المالية على صرف ٢٥ جنيها (المجموع ١٥٠ جنيها) .

وفى سنة ١٩٣١ ندب لتمثيل الجامعة فى العيد المئوى الرابع لكلية دى فرانس أثناء وجوده فى فرنسا ٥٣٢ جنيها وقد قدم عن أعماله فى المؤتمر تقريراً فى ثلاث صفحات عن مؤتمر سوريا وفى مؤتمر المستشرقين ١٩٢٨ محاضرتين عن ضمير الغائب فى القرآن والأخرى عن المقارنة بين فلسفة ليبنتز ومذهب المعتزلة ، وفى مؤتمر المستشرقين ١٩٣٠ لم يقدم شيئاً وفى مؤتمر المستشرقين ١٩٣١ قدم بحثاً عن البلاغة من عهد الجاحظ إلى عهد عبد القاهر .

وقد أثارت هذه البيانات التى ألقاها مندوب الحكومة فى البرلمان أحاديث كثيرة منها أن طه حسين يسافر على حساب الدولة ليهدم دينها بما يلقيه من أبحاث عن القرآن.

وقد أثار الدكتور طه ضجة بشأن نقله من الجامعة وأجاب وزير المعارف عن ذلك فكشف عن أن الدكتور طه لم تتجاوز مؤهلاته العلمية منزلة غيره من أساتذة الجامعة، الذين نقلوا فى عهود سابقة بنفس الطريقة وأن نقله جاء طبقاً للقوانين المنظمة للجامعة ومنها أن هذا الرجل الذى يزعمون أنه المثل الأعلى فى التخلق بفضيلة العلم لم يستبح لنفسه أن يخون أمانة العلم وحدها ولكنه استباح لها أيضاً أن يخون أمانة المال.

الصحف: (١٩٣٢/٣/٧ محاضر مجلس النواب والمتكلم أحمد والى الجندى) الذى قال:

« ان القول بوجود تقليد فى الجامعة بشأن نقل الأساتذة ادعاء غير صحيح ومع ذلك فان مدير الجامعة الذى جرى بين يديه وسمعه وبصره نقل احد عشر من هيئة التدريس بدون أخذ رأى مجلس الجامعة يقول فى جواب استقالته ان نقل الدكتور طه على هذه الصورة التى تم بها بدون رضاه وبدون رضا الجامعة كان مخالفاً لما جرت عليه التقاليد منذ نشأة الجامعة إلى الآن فيما يعرف. ولا أستطيع إلا أن أقول إنه يعرف وعلى علم تام بأن الأساتذة محمد صبرى وعبد الفتاح السيد وعبد السلام ذهنى وصادق فهمى ومحمد كامل ملس وغيرهم نقلوا فى عهده بغير رضاهم وبدون أخذ رأى مجلس الجامعة على أن مدير الجامعة يعلم مسألة الدكتور طه وكان يسترضينى بشأنه ».

(مدير الجامعة هو لطفى السيد الذى كان مظاهراً لطه حسين فى جميع خطواته)

* * *

وأثيرت مسألة طه حسين مرة أخرى فى مجلس النواب يوليو ١٩٣٩ واشترك فيها الدكتور عبد الحميد سعيد مرة أخرى ومعه عدد من النواب العلماء محمد عبد اللطيف دراز ورضوان السيد وكان الموضوع هو مهاجمة السياسة الدينية للجامعة المصرية وكلية الآداب.

قال الدكتور عبد الحميد سعيد:

ليست نظرية فصل الدين عن التعليم إلا ستاراً للإلحاد والإباحة والخروج على الآداب والأخلاق والتقاليد الدينية والقومية ولهذه النظرية قال أولئك المخربون المدمرون إنه يجب تحرير العلم من سلطان الدين، كأن الدين نير ثقيل أو حاجز منيع فى وجه العلم. وفى السويد قانون يمنع الشخص من تغيير دينه ويحرم عليه اعتناق دين غير دين البلاد الرسمى وقد حدث أن أحد علمائها وهو أستاذ بجامعة ابسالو اعتنق الديانة الإسلامية فكان جزاؤه أن طرد من الجامعة وحرم من حقوقه السياسية والمدنية وهنا نطعن فى الدين وعلى أشرف المرسلين وعلى أخلاقنا

وعلى تقاليدنا ثم لا تحرك الحكومة ساكنا . إن العلم قابل للتطور والتغيير لأنه نتيجة لعمل الإنسان وتجاربه وكثيراً ما نرى نظريات علمية يطغى بعضها على بعض ويلغى بعضها البعض الآخر . ولكن الدين الصحيح لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه من وضع خالق البشر . فلا نريد بعد اليوم أن نسمع هذه الدعوة الفاسدة : دعوة حرية الفكر التي في ظلها تنشر الكتب التي تدعو إلى الكفر والطعن في سيد الأنبياء والمرسلين والتي في ظلها تهدم الفضيلة والأخلاق والعقائد .

عباس العقاد - إنني أقرر باسم الدستور الذي يقرر أن الناس أحرار في عقائدهم .

عبد الحميد سعيد - هناك حدود للقانون إذ تجاوزها انقلب الوضع وانقلب الدستور .

على عبد الرزاق - يجب أن يكون هذا المجلس هو آخر مكان تصادر فيه حرية الفكر .

عبد الحميد سعيد - أنا لا أسمح لحضرة النائب المحترم أن يقاطعني : إن حرية الرأى ليس معناها الاعتداء على الدين .

أحمد والى الجندى - إن الدين شيء والتفكير شيء آخر .

عبد الحميد سعيد - فى سبيل الدين تبذل الأرواح ، ودين الدولة الرسمى هو الاسلام كنص الدستور فإذا رأيتم حذف هذا النص من الدستور فاحذفوه .

أنا لا أريد الحجر على حرية الرأى بحال من الأحوال ولكن لهذه الحرية حد يجب أن لا تتعداه ، إننى لا أشكو ممن ينشر الإلحاد فى الجامعة ولا أمثاله ، ولكن أشكو منهم غلا ران على قلوبهم نحو الإسلام والمسلمين ، أشكو منهم أن يتخذوا من الجامعة حصنا يقومون من وراء أسواره بالغارات الخانقة القاتلة والقنابل المفرقعة المدمرة فيصيبون من الأخلاق مقتلا وينفثون سمومهم فى نفوس الطلبة العزل من سلاح الدين وتعاليمه ، ولو كانوا مسلمين لردوا كيد المعتدى فى نحره ولنكلوا بأولئك الذين ينكلون بالدين والأخلاق .

وزير المعارف - هل لحضرة النائب أن يذكر أمثلة لما يقول .

عبد الحميد سعيد - أرجو من معالى وزير المعارف ألا يقاطعنى إذا كان معاليه يجهل الأمثلة التى يطالبنى بذكرها والتى تثبت الاعتداء على الدين والأخلاق والفضيلة فى كلية الآداب فلا يصح أن يبق فى كرسى الوزارة وليت هذا الفساد كان قاصرا على الجامعة بل تعداها إلى سائر المدارس المصرية ، بل تسرب إلى البلاد العربية الأخرى فيا للفضيحة والعار ، أنا لا أريد الحجز على حرية الرأى كما قلت ولكن للحرية حدوداً يجب ألا يتعداها فإذا تعدتها قضينا على النظام والأخلاق والفضيلة باسم حرية الرأى . إن ما يقوم به المستشرقون وما يرموننا به من شر وبلاء مع كبره وعظمته لا يقاس مطلقا بجانب ما أصابنا مما يلق من

دروس فى الإلحاد والإباحة . إن الجامعة تسلم هؤلاء الشبان الذين لم يتعلموا شيئا من أصول دينهم إلى رجل يلق فى نفوسهم الزندقة والكفر فيفسد عقائدهم وأخلاقهم ووزارة المعارف هى المسئولة عن ذلك لأنها لم تعلمهم أصول دينهم وتقاليده . والله لو كان هذا الرجل فى بلاد أخرى لما عاش ليلة واحدة . لقد تكفلت الاتفاقات الدولية بحماية المستشفيات والمعابد والكنائس بحيث لاتنتهك حرمتها أثناء الحروب ولكن إذا خرجت هذه الأماكن عما خصصت له واستعملت لأغراض حربية أباحت تلك الاتفاقات الدولية الاعتداء عليها وهدمها ونحن لانقبل مطلقا أن تكون الجامعة المصرية ستاراً لهدم الدين والأخلاق والفضيلة . لقد قمت أنا وزملاءكم فى البرلمانات الماضية بمحاربة هذا التيار الجارف من يوم ظهر الالحاد فى كلية الآداب وفى المدارس الأخرى ومع الأسف أن أولئك الأشخاص الذين ينشرون الإلحاد قد وجدوا إغماضا وتسامحا بل تمتعوا فى بعض الأحيان بحماية محرمة . منذ ذلك اليوم وفى عهد المغفور له سعد زغلول باشا والحرب القائمة بين الايمان والكفر وبين الفجور والفضيلة وبين الفساد ومكارم الأخلاق وقد اشترك فى هذه الحرب إخوان لكم كرام كانوا يمثلون كل الأحزاب ووقف المغفور له سعد زغلول باشا إلى جانبهم مؤيدا للدين داعيا إلى جمع الكتب المضللة وحرقها ومن هؤلاء المجاهدين من قضى نحبه أمثال الأستاذ عبد الخالق عطية وفضيلة الأستاذ القاياتى ومنهم من لا يزالون على قيد الحياة أمثال السيد حسين باشا وعبد الحميد البنان وعبد العزيز الصوفانى وآخرون فى مجلس الشيوخ ، هؤلاء جميعا قد وقفوا صفا واحداً لمحاربة هذا التيار المدمر ، وكانت هناك دعوى فى النيابة واتهام ودفاع انتهت بتقرير وضعه المرحوم محمد نور رئيس النيابة إذ ذاك فاثبت التهمة على المدعى وكان مسفها لآرائه الفاسدة النجسة ، ومع كل ذلك لا يزال هذا الرجل على رأس كلية الآداب ولا يزال ذلك الرجل الذى قال إن قصة إبراهيم واسماعيل خيال فى خيال والذى طعن على الرسالة المحمدية بالكذب والبهتان لا يزال صاحب هذا التاريخ الدنس ينشر آراءه الفاسدة المخزية فى الجامعة المصرية الاسلامية التى قال ونقول الحكومة المصرية الإسلامية أنها فخر مصر ، مثل هذا الذى يقع فى الجامعة المصرية والله لا يمكن أن يقع فى بلد آخر غير مصر .

الرئيس ـ لقد مضى على هذا ثلاثة عشر عاما فتكلم فى التاريخ الحديث .

عبد الحميد سعيد ـ إننى أتكلم فى الموضوع لأن صاحب هذا التاريخ لا يزال يلق على أبناء الجامعة تعاليمه الخبيثة فى ظل هذه الاباحة وتحت ستار حرية التفكير تنشر المبادىء الضارة المخربة ويجندون ما يسمونه بحرية المرأة واختلاط الجنسين وما من شك فى أن اختلاط الجنسين وخصوصا الطلبة والطالبات مهما تفلسف المتفلسفون فى تبريره ليس إلا ناشراً للفساد ومشجعاً عليه وباعثا على الاباحة ومدمراً للأخلاق والفضيلة . إن اختلاط الجنسين مسألة من المسائل العويصة التى تبحثها أوربا الآن بحثاً جديداً دقيقاً لانها وقعت فى شركها ولا تستطيع التخلف عنها وهذا هى انجلترا كانت فى مقدمة الدول التى انتهت إلى خطورة هذا الاختلاط ، فانشأت

مدرسة خاصة للبنات لا يدخلها شاب . وفى كلية الطب دعا على باشا ابراهيم إلى أن تكون هناك فصول خاصة بالبنات وأخرى بالبنين وعلى الخصوص فى كلية الآداب التى تضم نحوا من ثلاثمائة طالبة ، كما يجب أن يكون للتشريح والتطبيق العملى دروس خاصة لا يحضرها إلا البنات . على أن دول أوربا خطت خطوة فى سبيل المحافظة على الآداب والأخلاق عن طريق تحريم اختلاط الجنسين ، أما نحن فى مصر فقد اصبح الرقص قوامها وعمادها ، وقد أقامت وزارة المعارف العمومية نفسها حفلة رسمية فى دار الأوبرا الملكية فجلبت لها الراقصات المحترفات من تلك الصالات التى اشتهرت بالخلاعة والمجون والفجور ، وما كان أولى بوزارة المعارف التى تعلن عند مناقشة ميزانيتها أنها حريصة كل الحرص على الأخلاق والآداب أن تكون على مقتضى القول فى تصرفاتها فهل ما جرى فى تلك الحفلة هو الحرص على الأخلاق والآداب وعلى الدين والفضيلة يا صاحب كتاب حياة محمد (كان الدكتور محمد حسين هيكل هو وزير المعارف) .

يا حضرات النواب : ان ما حدث فى كلية الآداب لا يستطيع مسلم ان يهضمه كما لا يستطيع إنسان له ذرة من العقل والفضيلة والإيمان أن يسكت عنه . ولقد أثبتت التقارير الرسمية التى وضعتها اللجان التى ألفت لبحث كتب طه حسين وأعماله إن كتبا منها ملأى بالكفر والالحاد وإذا شاء الوزير فليرجع إلى تلك التقارير ليقرأ ما تحتويه .

على عبد الرازق ـ أنا احتج لأنه لا يصح ذكر الأسماء .

عبد الحميد سعيد ـ كنت أظن أن الشيخ على عبد الرازق آخر من يحتج فى هذا المجال .

على عبد الرازق ـ إنى أول من يحتج وآخر من يحتج لأن هذا المجلس . .

عبد الحميد سعيد ـ هذا المجلس لا يسمح بالاعتداء على الدين ، ما كنت لأنتظر من الشيخ على عبد الرازق ابن المرحوم حسن عبد الرازق باشا القدوة الطيبة فى الأخلاق والدين أن يقف هذه الوقفة لايجوز فى دولة دينها الرسمى الإسلام وتضم أكبر جامعة إسلامية هى الجامع الأزهر ، لا يجوز أن يبق أستاذا فى كلية الآداب يطعن فى الدين ويمزق الأخلاق والآداب على هذه الصورة . فإذا كانت الحكومة ترى التوانى والإعفاء والتساهل فعليها أن تمحو من الدستور هذا النص الصريح ولكنها لن تستطيع ولن يستطيع العالم أن يفعل ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فإذا لم تستطع الحكومة أن تمحو نص الدستور وهى لن تستطيع فلتمنح إذن هذا النص رعاية وحماية وتنكل بكل من يعتدى على الدين والعقائد والأخلاق حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

[وتحدث الشيخ محمد عبد اللطيف دراز] قال :

ان الموضوع يتعلق بتكوين شبابنا تكويناً يعدهم فى مستقبل حياتهم لخدمة بلادهم وهذا فى

نظرى لا يتحقق إلا إذا كان الإعداد متفقا كل الاتفاق مع تقاليدنا الدينية وتقاليدنا القومية والخلقية ان هؤلاء الأبناء سيقومون على توجيه أمتهم عندما يتخرجون ويتسلمون القيادة فإذا وجهوا إلى مايوجهون إليه الآن فالنتيجة ظاهرة وقد فهموها لأن كل أمة تتحلل من أخلاقها وتقاليدها ومن عقائدها القومية : أمة مصيرها الفناء . هناك فى كلية الآداب أستاذ أجنبى يلقى محاضرات تقوم كلها على فكرة إنكار الإله . محاضرات تلقى فى نادى الجامعة المصرية ويكلف أبناءه الطلبة الذين يتلقون عنه أن يعدوا بحوثا فى هذا الموضوع ذاته فلما اجتمع فى نادى الجامعة فريق من الطلاب من غير قسمه وقع تصادم بينهم وبين طلبته الذين يخشون عاقبة الامتحان فذهب وفد إلى عميد الكلية يرفع ظلامته وشكواه من هذه المحاضرات فأجابهم بقوله : سمع وينفذ . وقد نفذ العميد ما طلبه الطلاب ولكن بطريقة تغيير مكان المحاضرات فبعد أن كانت تلقى فى نادى الجامعة أصبحت تلقى فى مدرجات الكلية . إن حادثة المحاضرات وما ترتب عليها من المصادمات فى الكلية كلها واقعة وإنى مستعد لإثباتها لوزير المعارف . يجب أن يكون لنا موقف صريح فإما أن نكون مسلمين ومسيحيين ويهوداً أو أن نكون غير متدينين بدين فإن كنا من أصحاب الأديان السماوية فيجب أن نحارب هذه المحاضرات وان نضع ملقيها فى مكان المسئولية والمؤاخذة الشديدة .

وزير المعارف ـ يجوز أن تكون محاضرات فلسفة يريد المحاضر أن يدحض فكرتها .

الشيخ دراز ـ هل أبناؤنا الذين فى الجامعة تعمقوا فى دراسة الدين إلى حد يمكنهم أن يتلقوا محاضرة فى فلسفة الدين وإذا كان أبناؤنا وصلوا إلى هذا فهذا شىء آخر ، سأتلو على حضراتكم تصريحا تضمنته رسالة بعث بها أستاذ من أساتذة الجامعة إلى إحدى الصحف ونشرتها فى عام ١٩٢٥ والمرسل إليه محمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة : جاء فى هذه الرسالة ما يأتى :

ونصل إلى أن الدين فى نظر العلم الحديث من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى ومن الصدق والنصح لرجال الدين ولرجال العلم ولجمهور الناس أن يقال لهم الحق وأن توضع لهم المسألة فى وضعها الصحيح ، وهو أن الدين فى ناحية والعلم فى ناحية .

أقول وأنا أعلم أن وزير المعارف يسمعنى وهو الذى أرسل إليه ذلك الكتاب ونشره ورد عليه بما فيه الكفاية وما أظن أن هيكل باشا الوزير الآن معترض على صحة هذا الخطاب وأنه أرسل بالفعل إلى هيكل بك رئيس تحرير السياسة الأسبوعية ، ومن هذا ترى أن الروح التى تتمثل فى ذلك الخطاب هى الروح التى تسير عليها ـ كما قلت ـ سياسة التعليم فى كلية الآداب فالأساتذة المدرسون يجب عليهم أن يغذوا هذا الروح وعلى الطلاب أن يتجهوا فى هذا الإتجاه ذاته .

ما هو السبب الذى جعل الامتحانات التحريرية فى كلية الآداب على الخصوص غير سرية ؟ الامتحانات الشفوية ؟ الامتحانات الشفوية فى كلية الآداب لا ينتدب من أعضائها أحد من

الخارج ، إن كنت لا أسأل عن السبب ولا أذكره فان الطلاب يذكرونه علناً ويذكره الأستاذ همسا ، ذلك أن الطالب الذى يعرف عنه أنه يحارب الروح التى أشرت إليها يجب أن يرسب فى الامتحان .

هم يسقطون الطالب الذى يعرفون عنه أنه يخالفهم فى الرأى فإذا لم يسقط فى مادة الفلسفة سقط فى مادة أخرى كالجغرافيا أو اللغة الانجليزية .

أما القسم الفرنسى فى كلية الآداب فيشترط فيمن يلتحقون فيه من الطلاب أن يكونوا حاصلين على البكالوريا فى اللغة الفرنسية وأكثر الطلبة والطالبات فى هذا القسم يأتون من مدارس الليسية والفرير والجزويت . الغرض من إنشاء هذا القسم تخريج مدرسين ممتازين مصريين ، أكثر المنتسبين لهذا القسم تجنسوا بالجنسية المصرية بمقتضى القانون وهم غير مصريين فى دمهم وتقاليدهم وفى عقائدهم وفى أخلاقهم أتدرون حضراتكم ماذا تعمل المنتسبات بهذا القسم . لو أن أحداً ذهب إلى طريق هؤلاء المنتسبات لوجدهن فى الصباح الباكر قبل افتتاح الدراسة راكبات الدراجات عاريات السيقان بشكل لا ينبغى .

وأشار إلى تمثيل طلاب كلية الآداب الراويات الغرامية فى دار الأوبرا ويقوم بدور الحبيب والحبيبة طالب وطالبة وهذه الطالبة ابنة أستاذ ممتاز فى كلية الآداب فعلى الذين يريدون أن يحرقوا بخور الالحاد أن يحرقوه فى قلوبهم لأنهم أحرار فى عقائدهم أو أن يحرقوه فى منازلهم لأنهم أحرار فى بيئاتهم الخاصة أما أن يطلقوه فى أجواء العلم ومنابر الجامعة فهذا ما لا يمكن أن يفهم بحال من الأحوال .

رضوان السيد

لا أريد أن أرجع إلى الماضى البعيد ولا أن أحدثكم عما كان من مواقف النواب من الدكتور طه ١٩٢٦ ، ١٩٣٢ فكلكم يعرفه وإنما الذى أريد أن أذكره هو أن البلاد كانت تضج من وجوده . والواقع أن تصرف وزير المعارف فى هذه المسألة وانتداب الدكتور طه مراقبا للثقافة العامة غير مفهوم بعد أن ضجت البلاد وبعد أن ظهر شعور النواب نحوه وكنا ننتظر أن تضيق الدائرة عليه ولكن أسند إليه عمل آخر فندب مراقبا للثقافة العامة وجعل له الاشراف والهيمنة على كل حركة فكرية وعلمية فى البلد . هذا الاختصاص الواسع غير المحدود اضافه الوزير إلى العمل الذى يقوم به الدكتور طه حسين فى الجامعة بعد أن وقع فيه ما وقع وبعد أن قال مراراً وتكراراً انه لا يعترف بالأديان السماوية وإنها لم تنزل من السماء ولم يهبط بها الوحى وإنما نبتت من الأرض كما نبتت الجماعة نفسها . وهذا الرجل الذى لا يعترف بدين سماوى يأتى به وزير المعارف فيشجعه ويجعله مهيمنا على ثقافة البلد يوجهها الاتجاه الذى يصادف بالطبع أريحية فى نفسه . أنا أعتقد أن هذا تحد صريح كما أعتقد أنه تجاهل لشعور

الأمة ومناهضة واضحة للدستور الذى يقرر ان الإسلام دين الدولة الرسمى كما يقرر أن التعليم حرم لم يخل بالنظام القائم أو بباقى الآداب وكلكم يعلم ان آداب البلاد مستمدة من دينها فمن لم يعترف بالدين فلا شك خارج على دينها وآدابها معاد تقاليدها فعمل هذا الرجل يتنافى قطعا مع الدستور والإتيان به للإشراف على ثقافة البلاد وتوجيهها إلى الوجه التى تتجه إليها نفسه وخروج على الدستور وعلى إرادة الأمة . لا يصح لوزير المعارف أن يترك من رجال التربية من يصح أن يكونوا مفخرة لمصر على وجه الزمن وأن يعدل عن أفذاذ عرفوا باصابة الفكر وإصابة الرأى ونزاهة القصد إلى رجل يسلك دائما مسالك التهم ويقيم فى محيط الخيالات ويضرب فى آرائه العلمية أخماسا فى أسداس كلما قام من وهدة وقع فى وهدة . وإذا قلنا جدلا أن ثقافة الرجل فوق كل ثقافة فإن هذا لا ينهض عذراً للوزير فى هذا التصرف فالعلم وحده لا يكفى لتكريم صاحبه إن لم يكن له حصن من دين وسياج من خلق فإن ضرره يكون أضعاف نفعه .

* * *

وعلق أحد كتاب الصحف الإسلامية على هذه الجلسة فقال كانت جلسة مجلس النواب المشهورة عظة وعبرة للمسلمين فقد قيلت كلمات خطيرة مستترة وراء هذا الستار الذى أسموه كذبا وزورا حرية الرأى والعقيدة وشهدت مصر بالأمس منظراً من أغرب المناظر فى تاريخ نهضتها باسم الدستور وسلامة الدستور . ثم قام نفر من السادة المترفين والاشراف من رجال الأحرار الدستوريين يكيدون للإسلام بإسم الدفاع عن الحرية تعلقاً بأهداب دستور وضعى أرضى . خرجوا من أوكارهم أخيرا وقد فاض ما انطوت عليه جوانحهم من الإثم والبغض فأعلنوه للناس فى جرأة واستخفاف . تاريخ الأحرار الدستوريين المظلم وعدوانهم على الاسلام ونصب أنفسهم محاربين له فى جميع ميادينه فاحتمى بهم الكفرة والملاحدة وأوى رؤساهم وكبراؤهم وهم الفاسقون الذين يدعون حرية الفكر والعقيدة بل رفعوهم من أحط الدرجات والطبقات إلى أعلاها وأسماها فارتفعوا إلى الذروة من المال والجاه والسلطان وفى ظل الأحرار الدستوريين نشأت الصحف الهدامة التى تدعو إلى التحلل من حضارة الإسلام وإلى التفكير فى نمط غربى ، هذا النمط الغربى الفكرى أو بمعنى أدق منهج التفكير الغربى يفهمونه على أنه البحث المؤدى إلى الشك فى العقائد الآخذ بفلسفة أوربا ـ اغريقية أو حديثة ـ حلوها ومرها وخيرها وشرها .

استجواب ١٩٤٠

اشترك فى استجواب عام ١٩٤٠ عبد الرحمن فهمى ، رضوان السيد ، أحمد والى الجندى ، محمد عبد اللطيف دراز ، أحمد عبد الفتاح معبد عن الأسباب التى حدث بوزارة المعارف إلى

إسناد وظيفة مراقب الثقافة العامة إلى رجل عرف بنزعات وآراء تخالف تقاليد البلاد وأخلاقها ودينها .

عبد الرحمن فهمي : أشار إلى الضجة الهائلة وثورة الأفكار عقب صدور كتاب الأدب الجاهلي ، وأشار إلى أن اللجنة قالت أن الكتاب ضد دين الأمة الرسمي وأنه أضاع على المسلمين اثني عشرة عقيدة من عقائدهم ومن تهجمه على القرآن والرسول . وقال أن ظاهر الهدف هو أن الأدب الجاهلي مختلق منحول ، وباطن الهدف والغرض الحقيق هو التشكيك فى الدين والتحريض على الاباحة والفجور . وأشار إلى نص ورد فى صفحة ٢٧٩ يقول أن الإسلام قد أخذ عن هؤلاء الناس شيئا من طرق الكسب التى كانت مألوفة فى الجاهلية حين ألغى ضروب الاغارة كما كانت فى الجاهلية ، وأن الاسلام حين أدخل النظام فى الحياة العربية فقد قيد حرية الفرد وحرية الجماعة ووصل من ذلك إلى أن الحياة المادية فى البادية بعد الاسلام كانت شرا مما كانت عليه قبل الإسلام .

وأشار إلى ما جاء فى حديث الأربعاء ج ٢ ص ١١ من قوله ان الأمة العربية قد خضعت تماما لمؤثرين مختلفين اختلافا تاما فبينما كان احدهما يدفعها دفعا قويا إلى الأمام فتندفع ، كان الآخر يجذبها جذبا قويا إلى الوراء فتنجذب كانت تندفع إلى الإمام اندفاعا قويا فى الحضارة المادية وكانت تنجذب إلى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغة التى لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية .

وأشار إلى ما جاء فى كتابه مستقبل الثقافة : من أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول . وقوله فى ص ١٧ من أن السياسة شيء والدين شيء آخر وأن نظام الحكم وتكوين الدولة إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على شيء ، آخر هذا التصور هو الذى تقوم عليه الحياة الحديثة فى أوربا فقد تخففت أوربا من أعباء القرون الوسطى وأقامت سياستها على المنافع الزمنية لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس .

وأشار إلى النص الذى أورده فى كتاب مستقبل الثقافة حيث قال عن النهضة :

ولكن السبيل إلى ذلك ليس فى الكلام يرسل إرسالا ولا فى المظاهر الكاذبة وإنما هى واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهى واحدة فذة ليس فيها تعدد وهى أن نسير سيرة الأوربين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادأ ولنكون شركاءهم فى الحضارة : خيرها وشرها ، وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع .

وقال عبد الرحمن فهمى إن هذا هو الطريق الذى يريد مراقب الثقافة العامة أن يوجه

أولادنا وأقاربنا إليه وهو أن نأخذ من المدنية الأوربية خيرها وشرها وحلوها ومرها فهل يقول هذا عاقل ؟!

ويقول فى صفحة ٦٩ : إن حديث الشرق الروحى هذا حديث لا غناء فيه وهو مضحك إذا نظرنا نظرة عامة فإن المصريين الذين يزهدون فى الحضارة الأوربية ويدعون إلى روحية الشرق يعرفون إذا خلوا إلى أنفسهم أنهم يهزلون ولا يجدون ، وأنهم لو خيروا لكرهوا أشد الكره أن يحيوا حياة الصين والهند ولكن هذا الحديث خطر لأنه يلقى فى روع الشباب « بغض الحضارة الأوربية » التى يعرفونها فتثبط همتهم وتضعف عزيمتهم (ويوجههم نحو هذه الحضارة الشرقية التى يجهلونها فيندفعون إلى بيداء لا أول لها ولا آخر »

ويقول عبد الرحمن فهمى : ليس بينى وبين الدكتور طه حسين صلة وإنما الذى دفعنى إلى هذا الموقف عقيدتى التى أعتقدها فى دينى وان مثل هذا الأستاذ لو أعطى من القوة والسلطان والجاه لقلب البلاد رأسا على عقب فى عقيدتها ودينها .

وقبل أن أختم كلامى أتلو على حضراتكم بيانا نشره الدكتور طه هذا نصه :

« ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم . فالعلم الحقيق ينظر الآن إلى دين الله نظرة ترفع وكما ينظر إلى الفقه وكما ينظر إلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وإذن نصل إلى أن الدين فى نظر العلم لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها » .

إنى ولله الحمد لا أقبل أنا ولا أحد من اسرتى أن نكون تحت رئاسة أو إشراف أو تعليم رجل كهذا وعلى الرغم من احترامى للعلم أقول : أنه يجب أن يحترم عقيدة البلاد أولا وأن جلالة ملك الانجليز يحكم الملايين من الناس منهم المسلم والمسيحى واليهودى والدرزى ومع ذلك فإنه يقسم يوم التتويج الرسمى على أن يحمى ويدافع عن المذهب البروستانتى أقول هذا وقبل أن أغادر هذا المكان أرجو ارضاء لضميرى أن يوافق المجلس على إبعاد طه حسين عن وزارة المعارف وعن جميع معاهد التعليم لكى تبقى عقيدة الطلاب سليمة إلى أن يبلغوا السن التى تمكنهم من أن يميزوا جيدا الغث من السمين . انظروا إلى ما وصلت إليه حالة البيئة عندنا وإلى الفسق الذى ترونه ليلا ونهارا فى الطرقات والمتنزهات وفى المقاهى دور السينما هل يتفق هذا مع الكرامة ومع النظام ومع الدين ومع العقل أن كل هذا مرجعه إلى وجود مثل هذه الكتب .

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

سأل الشيخ محمد عبد اللطيف دراز الوزير : هل علم أن مؤلفا صدر فى مصر وصدور

بقـرار من مجلس الوزراء عام ١٩٣٨ اسمه (البحـث عن الغـد) وهل علم أن فى سـجل هذا الكتاب حديثاً بين المؤلف وبين مراقب الثقافة الجديد وهل لهـذا الحـديث دخـل فى مصـادر الكتاب . قال فيه : إن الدين لا يتفـق والعـقل ، وأن الدين دائما ملازم للرجعـية فى كل زمان وقال طه حسين عن الروح الدينية للشباب : إن هؤلاء الشـبان قد اكتشـفوا معـبودا جـديدا اهتدوا إليه بعد أن اهتدت إليه أوربا بزمان بعيد . وهذا المعبود هو العقل وشكر المصادر التى كانت سبباً فى نشر الأفكار المعادية للدين فقال : ان هذه المصادر هى دوائر المعـارف فى أوربا وروسو وبعد أن بين أن الدين يلازم الرجعية فى جميع تطوراتها ذكر أن الشـيخ المراغى يحـاول أن يوفق بين العقل والدين وأن سبب هذا هو حـرص هذا الشخص على نفـوذه ويقـرر طـه حسين أن الإسلام فى الواقع لا يتفق مع العقل وأن الذين يحـاولون إيجـاد هذا التوفيق يحتالون عليه لتضليل الشعب وليقيموا مجدهم ، واذن فالنتيجة ظـاهرة من هذا القـول أن الاسـلام غير متفق مع العقل .

وأشار الشيخ دراز إلى أنه فى العام الماضى ندب الدكتور هيكل وزير المعـارف طـه حسـين مراقبا للثقافة وقد اتصلت بمحمد محمود باشا هنا فى المجلس فقال لى إن كان صحيحا فهـذا لن يكون احتراما لقرار صدر من المجلس .

وقال الشيخ دراز : ما الجديد الذى أدى إلى أن يصبح ما كان ماسا بالكرامة بالأمس سائغا اليوم ، الجديد هو أن هناك نظرية جديدة ظهرت فى مؤلف جديد للدكتور طـه حسـين وهى أنه ينبغى لمصر تحقيقا لمصلحتها فى نظر المؤلف أن تشارك أوربا فى حضارتها فى الخير والشر والإثم والنفع وما يعاب منها ومالا يعاب ـ ظهرت هذه النظرية فى هذا الكتاب ، وقد اطلع معالى وزير المعارف عليه وطبيعى أن معاليه أراد باختياره أو ندبه لمراقب الثقافة الجديد ترجيح هذا الرأى بعد أن اقتنع به فأراد أن يوجه البلاد إليه عن طـريق مؤلف الكتاب : إن الروح العـامة لهـذا الكتاب هو وجوب تقليد أوربا فى كل شىء ، إنى احـرض الحكومة على تتبع أوربا فى علومهـا وفنونها وأن تأخذ عنها ثقافتها ووسائل إعداد دفاعها الوطنى فإن العلم لا وطن له وكما اخذت عنا أوربا بالأمس فلا باس من أن ناخذ عنها العلوم ولكنى اخاصم الحكومة اشد المخـاصمة إن هى اقتنعت بأنه يجب علينا ان نقلد أوربا فى شرورها ونتلق عنها مجـونها وعبثهـا وسـفهها لا حياة للامة دون الدين والعلم الطبيعى التجريبى الذى هو سبيل القوة والإحترام ولا بد لهذا العلم من قوة اخرى هى القـوة الدفاعة إلى العـمل : تلك هى قوة الروح التى إنما تسـتمد من الدين . هناك خطأ شائع فقد انفصل العلم عن الدين فى أوربا لأسباب تعـرفونها واننا لفى غنى من أن تساورنا الوساوس التى تخوفنا من هذه النتيجة فإن العلم الحقيق الذى اشرت إليه لازم من لوازم الإسلام وجزء منه وان من يتصل بالقرآن اتصالا بسيطا ليعلم كيف حثت آياته على النظر فى الكون وإذا إنفرد العلم فى أمة عن القوة الروحية كان قوة مخـربة مدمرة ولكنه يكون مفيدا اذا اقترن بالقوة الروحية ، قوة الروح التى تعرف الفضـيلة والأخـلاق . ما هى الدوافع

الحقيقية التى تدفع بعض الناس تارة الى التشكيك فى الكتب السماوية وتارة إلى دفع البلاد الى العبث والمجون وإلى امتهان الحرم وهم فى ذلك يضحكون على ذقون المصريين معتبرين أنفسهم اروبيين متمدنين يجب ان يشاركوا اوربا فى حضارتها وعلى هذا الاعتبار لا يستطيع احدهم أن يقول بأن هناك تفاوتا فى الجوهر والطبع والمزاج بيننا وبين أوربا .

سمعت من صديق فكرى اباظة أن الاستاذ طه حسين قد عدل عن أفكاره وذلك بتاليفه كتاب على هامش السيرة وسمعت مثل هذا الكلام من غيره ولكن الأستاذ فكرى يظلم من ينسب إليه هذا الكتاب لأن المؤلف نفسه يقرر بصريح العبارة فى مقدمة كتابه أنه لا يلتزم فيه برأى ولا بصحة خبر من أخباره وان الدافع إلى تاليفه إنما هو تتمة فكره . ويقول إن هذا لون من ألوان الأدب القديم بعبارة مستساغة . ولو أنه التزم بصحة ما ورد فى الكتاب من الأخبار لقلنا أن الكثير من هذه الأخبار مكذوب وأن البعض فقط متفق عليه ، إن هامش السيرة لا يبعد أن يكون تخيله المؤلف وهو يتهكم بخصومه الذين ناقشوه المسائل التى أوردها فى كتابه الشعر الجاهلى ، تهكم فتخيل أن ديكارت الذى بحث نظرياته على أساس طرق البحث العلمى جاء إلى مصر طائرا على وزير أو فى زير .

بعد هذا لا أريد أن أرجع بكم إلى الماضى الذى تعرفون ولا أريد أن أقول ان شهوة دفاعة تريد أن يتحلل من الأديان والتزاماتها هى التى تملى هذه الأفكار على بعض الناس فيصلون إلى أغراضهم تارة عن طريق البحث وتارة باسم الثقافة والعلم ، ولكنى أريد فى ختام كلمتى أن هذا المجلس لا يثق بأى حكومة تشجع أى شخص يخرج على أخلاق البلاد أو يتفيهق فى وجه الأمة باحتقاره تقاليدها وأخلاقها وأن يتناول على ذلك أجراً من خزانة الدولة .

رضوان السيد

قال : هذا الرجل الذى لا يعترف بدين سماوى يأتى به وزير المعارف فيشجعه ويطعن البلاد به ويجعله مهيمناً على ثقافة البلد يوجهها الاتجاه الذى يصادف أريحية فى نفسه . اعتقد أن هذا تحد صريح لشعور النواب وتجاهل لشعور الأمة ومناهضة واضحة للدستور الذى يقرر صراحة أن الإسلام دين الدولة الرسمى كما يقرر أن التعليم حر ما لم يخل بالنظام العام أو ينافى الآداب رجل يسلك دائما مسالك التهم ويعمه فى محيط الخيالات ويضرب فى آرائه العلمية اخماساً فى أسداس . ان آراء الدكتور طه وتقسيمه القرآن إلى وحشى وغير وحشى واعتباره متأثرا بثقافة اليهود وان محمداً لم يأت بالقسم غير الوحشى إلا بعد أن اختلط باليهود وأخذ عنهم وتأثر بثقافتهم كل هذه الآراء معروفة للجميع ولا حاجة لى إلى سردها .

إننا قد أقسمنا اليمين على احترام الدستور وقطعنا عهداً صريحا على انفسنا أن نعبر عن شعور الأمة وندافع عن دينها وتقاليدها .

الفصل السادس

صراعه مع أهل جيله

الواقع أن أيسر سبيل لفهم الدكتور طه حسين : (نفسيته وعقليته وشخصيته) هى دراسة تعامله مع أهل عصره : مع أساتذته وأصدقائه وزملائه فى الجامعة وفى الصحافة ومع تلاميذه ، ولا ريب أن هذا التعامل يكشف عن الهدف الكامن فى أعماق الرجل الذى كان يعطى هذه العلاقات قوتها أو ضعفها ، وامتدادها أو انقطاعها .

ولقد كان معروفا عن الدكتور طه أنه كان رقيقا وأنيسا بأصدقائه وعنيفا قاسيا مع من يختلفون معه ، فهو نفاع ضرار ، يعرف أن اقرب طريق إلى تحقيق هدفه هو رعاية من يحقق بهم رغباته وأهواءه ومن ابرز صور تعامل الدكتور طه ذلك التحول المفاجىء من النقيض إلى النقيض ولكن ذلك ليس غريبا إذا فسرناه فى اطار الغاية التى يهدف اليها .

ولا ريب أن محاولة فهم شخصية طه حسين العامة والتعرف الى أعماق طبيعته الخاصة ، يمكن الوصول اليه ومعرفته عن طريق الذين اتصلوا به اتصالا وثيقا وعرفوه فى أوقات الأزمات والمحن وأوقات الصفو والطمأنينة ، ذلك أن كتابات طه حسين تحاول تصويره دائما بصورة الرجل الذى لا يقهر ، غير أن هناك من العبارات التى تجىء من وراء الوعى تكشف ذلك الساتر المتعالى وتظهر الحقيقة . فهو الحريص طوال عمر العقاد ألا يقول عنه كلمة سوء بالرغم مما أخذه العقاد به فى أكثر من مقال مما لو قال نصفه أو ربعه أى كاتب آخر لثار طه حسين ولم يستطع أن يهجو العقاد إلا بعد موته حين قال وبعد صدور كتاب عبقرية عمر بأكثر من ثلاثين عاما : أنا لا أفهمه . ولم يكن أحد أقرب إلى طه حسين أبان أزمة الشعر الجاهلى من تلميذه البار (وسكيرتيره على نحو ما فى فترة ما) زكى مبارك ومع ذلك فقد تحول عنه وتنكر له . وموقفه من تلميذه نجيب البهيتى كان كذلك .

أما موقفه من الدكتور محمد حسين هيكل فقد كان غريبا وعجيبا فبينما هو صداقة عميقة وود إذا هو خصومه عنيفة وجحود ، ثم صداقة هادئة فيها شىء أشبه بالتحامى والصمت وموقفه من إبراهيم عبد القادر المازنى جد غريب وفيه جرأة المازنى الذى لم يتوقف عن أن يجابهه بكلمة الحق فى كل موقف وفيه حقد طه حسين وإعراضه خوفا وتوقيا من الذين يعرفون غاياته وأهدافه .

ان البؤرة الأساسية هى جريدة السياسة عام ١٩٢٢ وفيها اجتمع الدكتور هيكل رئيس التحرير وقائد الفكر الحر والدعوة إلى التغريب ومعه طه حسين ، والمازنى وعبد الله عنان ، ومحمود عزمى ، وبدأت الحملة على الإسلام .

وفى الجامعة (فى كلية الآداب) كان مع طه حسين ، أحمد أمين ، وأمين الخولى ، ومنصور فهمى ، ومصطفى عبد الرازق .

وفى عالم الأدب والصحافة وراء ذلك عباس محمود العقاد ، وزكى مبارك ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومحمد لطفى جمعة ، ومحمد الهـياوى ، ومحمد أحمد الغمراوى وزكى أبو شادى وإسماعيل مظهر وسلامة موسى . وإبراهيم المصرى ، وداود بركات ، ومحمد غلاب - وفى دار العلوم محمد هاشم عطية .

وفى الأزهر : حسن الشقرا ، وعبد ربه مفتاح ، وعبد المتعال الصعيدى ، هذا هو المسرح الذى تحرك فيه الدكتور طه حسين مع أهل جيله .

والذى نحاول أن نقدم فى هذا الفصل صورة مقربة له .

الدكتور محمد حسين هيكل هو الصديق الأكبر . ما من كتاب يصدر حتى يتبادلان حوله عبارات التقدير (من طه إلى هيكل ومن هيكل إلى طه) .

ظلت الصلة قائمة ومستمرة حتى بدا للدكتور هيكل أن يتخذ موقفا من الغزو الثقافى والتغريب بعد أن ظهرت بوادره ، واشتدت حملته وعصفت بالقاهرة عاصفة التبشير المسيحى الذى تقوده الارساليات هنا لك وقع الخلاف وصدر كتاب (وجهة الاسلام) لخمسة من المستشرقين فانتقده هيكل وكشف عن موقف الغرب والاستشراق ، وقال هيكل إن الغرب قد خدعنا عن نفسه حتى تكشف لنا بعد وقت طويل أنه إنما كان يهدف إلى تدمير كل مقومات مجتمعنا .

هنا لك بدأ الخلاف والتحول ذلك أن طه حسين أحس أن صديقه هيكل رأس مدرسة التجديد قد تخلى عن أمانته للفكر الغربى ، و أخذ يناقشه ويغمزه ، (راجع المعركة كلها فى كتابنا : المعارك الأدبية : معركة فقدان الثقة) أهم ما فى الأمر قول طه حسين : لعل اختلافنا أن يكون ناشئا من شيئين أحدهما : هذا الإهمال الذى أخذ به هيكل والذى يدفعه إلى المبالغة ويضطره إلى التقصير أحيانا ، والثانى : أن هيكلا رجل أديب ولكن اشتغاله المتصل بالسياسة قد أثر فى تصوره للأشياء وحكمه عليها بعض الشىء (فهو يسرف حين يسىء الظن بما يكتبه الأوربيون عنا حين يمسون حياتنا الأدبية فما أظن أن (جب) وأمثاله يتخذون السياسة وأهواءها مقياسا لدراساتهم الأدبية) .

وكتب هيكل يرد على صديقه : وقد لا حظت يا أخي ان اشتغالى المتصل بالسياسة قد أثر فى تصورى الأشياء وفى حكمى عليها بعض الشيء وذكرت لذلك مثلين . أحدهما أنى أسرفت حين أسأت الظن بما يكتبه الأوربيون عن حياتنا الأدبية بينا تظن أنت أن جب وأمثاله لا يأخذون السياسة وأهواءها مقياسا لدراساتهم الأدبية ويقول « إن اشتغالى بالسياسة قد أثر فى تصورى للأشياء وفى حكمى عليها فإنما كان أثره أن زادنى تقليبا للأشياء وامتحانا لها وتعمقا فى بحث ما تنطوى عليه وما ترمى إليه وإذا كانت الاهواء السياسية ليست هى التى توجه دراساتهم فدراساتهم يقصد بها فى كثير من الأحيان إلى خدمة تلك السياسة وما أحسبك تخالفنى يا صديق فى أن كتاب وجهه الإسلام الذى الفه خمسة من كبار المستشرقين المشتغلين بالأدب الحديث فى بلاد الشرق المختلفة إنما هو كتاب سياسى مداه بحث ما وصلت إليه أوربا مما يسميه الأستاذ جب : « تغريب الشرق » وما يرجى لهذا التغريب فى المستقبل من نجاح وأنا لا أعيب هؤلاء العلماء بهذا بل أحسدهم عليه أعظم الحسد فهم به يخدمون أوطانهم ويخدمون العلم ويخدمون الحقيقة من ناحية سياسة بلادهم ومن ناحية الحضارة الغربية التى يريدون أن تظل المدنية الحاكمة فى العالم . هذه الخدمة الجليلة التى يقومون بها لأوطانهم وللعلم ولحضارتهم حقيقة علمية يسر لى اشتغالى بالسياسة الوقوف عليها ، ولو أنك انقطعت للسياسة يا صديق انقطاعى لها وأفنيت من تفكيرك ما أفنيت . إذا لو افقتنى على هذه الحقيقة ولم تتهمنى بالإسراف إذ علمتها » .

ولكن هل كان طه حسين لا يعرف هذه الحقيقة ؟ بالعكس إنه كان أعمق فهما لها من هيكل وكان هو الحارس الديدبان للغرب إزاء كل قلم يتحدث بكلمة ما من شأنها أن تهز هذه الثقة فى نفوس المصريين والعرب والمسلمين . وصمت طه حسين ولم يجب صديقه ولكن الدكتور هيكل كان قد كشف له وجه الحق لم يصمت وإنما أعلن رأيه فى صراحة وعلى نحو لم يعرف عن كثير ممن تحولوا عن معسكر التغريب فقد قال :

لقد خيل إلى زمنا كما لا يزال يخيل إلى أصحابى ـ أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض ، وما زلتُ أشارك أصحابى فى أننا فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله . لكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية وأرى ما فى الغرب منها غير صالح لأن أنقله فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب وثقافتنا الروحية غير ثقافته . . الخ

وكان هذا دليلا على افتراق الطرق غير أن الدكتور هيكل لم يتوقف عند هذا بل إنه سارع فى نفس اللحظات التى أصدر طه فيها كتابه (هامش السيرة) وهو أول كتاب صدر له بعد الخلاف فأعلن رأيه واضحا صريحا .

قال هيكل : أستبيح طه العذر إن خالفته فى اتخاذ النبى وعصره مادة لأدب الأسطورة

وأشار إلى ما اتصل بسيرة النبى ساعة مولده وما روى عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبى ثم قال : لهذا وما إليه يجب فى رأيى ألا تتخذ حياة النبى مادة الأدب الأسطورى وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب وما اندثر أو ما هو فى حكم المندثر ، وما لا يترك صدقه أو كذبه فى حياة النفوس والعقائد أثرا ما ، والنبى وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعا بل هى فلذة من هذه الحياة ، ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثرا . اعلم أن هذه الاسرائيليات قد أريد بها إقامة « مثيولوجية إسلامية » لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه . وقد كانت هذه غاية الأساطير التى وضعت عن الأديان الأخرى ، من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام .

ثم قال هيكل : من أجل ذلك أود أن يفصل طه فيما قد يكتب من بعد من فصول تجرى مجرى « على هامش السيرة » بين ما يتصل بالعقائد وما لا يتصل بها .

ولا ريب أن كلام هيكل هذا هو اتهام صريح لطه فى اتجاهه وتحميل له لمسئولية من أخطر المسئوليات وهو إعادة إضافة الأساطير التى حرر المفكرون المسلمون سيرة الرسول منها طوال العصور ، إعادتها إليها لخلق جو معين يؤدى إلى إفساد العقول فى سواد الشعب وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الاسلام ونبيه ، وهذا الذى كشفه هيكل ما زال كثير يجهلونه وما زال المتابعون لحياة طه حسين وتحولاته يرون أن هذا اخطر تحول له وإن هذا التحول جاء بعد أن انضم إلى حزب الوفد وأمن الهجوم عليه وخدع الناس بأسلوبه وطارت الدعوات تقول : إن طه حسين عاد إلى الإسلام وإنه يكتب حياة الرسول ولم يكن هذا صحيحا على الاطلاق ، ولكنه كان تحولا خطيرا وفق أسلوب جديد لضرب الإسلام فى أعز فلذات حياته وهى سيرة الرسول الأمين .

وهكذا كان خلاف طه حسين مع رأس المدرسة عندما اهتدى إلى الحق ووقعت الخصومة .

ولقد دمغه هيكل حين قال : لقد تحول طه الرجل الذى لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير يعمل على إحيائها وهذا يثير كثيرا من التساؤل ، إذ أن طه وقد فشل فى أن يثبت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمى لجأ إلى الأساطير ينمقها ويقدمها للشعب إظهارا لما فيها من أوهام فى الظاهر تفتن الناس .

أما مع العقاد فإن الأمر يختلف ، كان العقاد كاتب الوفد الأول فكتب طه حسين : أنا أمقت المذهب السياسى للأستاذ العقاد مقتا شديدا وأزدريه إزدراء لا حد له ، ولا أقرأ للأستاذ العقاد فصلا مما ينشر فى البلاغ ولولا انها جمعت فى كتاب وانفصلت عن السخف السياسى الذى تنشره هذه الصحيفة لما قرأتها ولا نظرت فيها ذلك أن الأستاذ العقاد من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ، وأى لون سياسى وأى ظهور هو سعدى مغرق فى السعدية وهو كاتب من

كتاب البلاغ الخ . ولقد تحول طه حسين بعد قليل إلى هذا المذهب السياسى وإذا به يدخل حزب الوفد فيتغير إزاء العقاد تغيرا كبيرا .

يقول : « لقد هاجمت العقاد فى غير موطن من مواطن الخصومة : خاصمته فى السياسة وخاصمته فى الأدب ، وخاصمته فى السياسة والأدب أيضا ولكن هذه الخصومة لم تنقص من مقدار العقاد فى نفسى ثم يقول فى خطاب فى حفل تكريم العقاد : تستطيعون أيها السادة أن تحبوا العقاد ما وسعكم الحب فلن توفوه حقه ، ذلك لأن العقاد هو الصورة الناطقة واللسان الخالد والمرآة الصافية المجلوة التى حفظت صورة مصر الناهضة وأبقتها ذخرا للأجيال المقبلة ثم يقول : ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » .

وهكذا أهدى إمارة الشعر لزميله فى حزب الوفد ثم عاد فأعلن أنه لم يبايع العقاد بإمارة الشعر .

ومن العجيب أن طه حسين يعود بعد وفاة العقاد فيعلن أنه لايفهم كتابه عن عمر بن الخطاب وكان العقاد قد كتب فصلا عن طه حسين قال عنه أنه لا يحسن إلا القصة وأنه لا يحسن مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية وليس نصيبه فى هذه المقاييس بأوفى نصيب وقد احتملها طه آنذاك ولم يجب .

وانبرى زكى مبارك يقول للعقاد

هل يجوز لك أن تتهم الرجل فى مفهومه للشعر وهو الذى أسبغ عليك إمارة الشعر ! ولعل أضخم معاركه (وقد دارت من جانب واحد) كانت مع الدكتور زكى مبارك .

وأبرز مراحل هذه المعركة ما أطلقنا عليه فى كتابنا (المعارك الأدبية) : معركة لقمة العيش حين عين زكى مبارك فى الجامعة إبان وجود طه حسين خارجها فلما عاد وانتهى عقده رفض تجديده وكان زكى مبارك قد خالف طه حسين فى أشياء كثيرة عدها طه حسين خروجا منه على عقد الولاء والتبعية للفكر الغربى عامة والفرنسى خاصة فانتقم منه هذا الانتقام .

وكان الدكتور منصور فهمى قد وجه نظر زكى مبارك إلى ضرورة اتخاذ أسلوب أكثر ملاءمة مع طه حسين حتى يجدد عقده الذى يقترب من نهايته . يقول زكى مبارك : قلت لمنصور فهمى : أتظن أن الدكتور طه ينتهز الفرصة ويتشفى منى إنه أعقل من أن يقترف مثل هذا الانتقام المفضوح فابتسم ابتسامة مرة وقال : انت يابنى تسرف فى حسن الظن بالناس .

وتدخل فى هذا الموقف الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى . إلى الدكتور طه حسين بقلم ابراهيم عبد القادر المازنى ـ (البلاغ ـ ١٩٣٢/١٢/٣١) .

إنى أراه قد خرج من زمرتنا معشر الأدباء والأحرار ودخل فى زمرة الجاه والسطوة والسلطان ولست أعنى أنه اكتسب لقباً جديداً أو صار بك أو باشا ولكنى أعنى أنه محشور فى هذه الزمرة ، ولكنى رأيت المناصب والألقاب تتقاضى ثمنها من الرجولة والمروءة والكرامة . ومن كرهى لهذه الطبقة التى اتصلت بها ياصاحبى وانقطعت عما عداها ألفيتنى أشعر أن ما بينى وبينك من قرابة الأدب ونسبه يكاد ينفصم على الأيام . ويعز على يا صاحبى أن اقول إنى أراهم عدوك ببعض ما فيهم فما كدت ترجع إلى الجامعة حتى صببت نقمتك على الدكتور زكى مبارك تلميذك القديم الذى كان حقك أن تفرح به ولكنك قطعت عيشه وحرمته وظيفته الصغيرة فى الجامعة لأنك صرت ذا سلطان وأصبح بقاؤه وطرده بين يديك ووسعك أن تعاقبه على تسحبه عليك ، ولقد كنت أصدق انك تفعل كل شىء إلا هذا فانى عهدتك رجلا عظيم المروءة واسع الصدر كريما فلما كان منك ما كان مع زكى مبارك صعقت ولا زلت من هذا كالمضروب على أم رأسه واقسم لقد فجعتنى ودفعتنى إلى الكفر بالخير فى هذه الدنيا واقسم مرة أخرى أنك لمسئول لا عما أصاب زكى مبارك أو يصيبه بل عما أصابنى أنا فى نفسى من التحول وما يضطرم فيها من الثورة ، إذن أنت من أصحاب السلطان ياصاحبى وممن يملكون أن يقطعوا أرزاق العباد أو يصلوها فلست اليوم بالأديب الذى عرفته وأحببته وإنما أنت رجل يدنى ويقصى ويرزق ويحرم ويطعم العيال أو يجيعهم ، ويضرب اليد التى ترتفع باللقمة إلى الفم فتطيرها وتوقعها على التراب لتلتقطها الكلاب والقطط ويأباها على أخيه الإنسان وزميله الأديب وإنى لأحدث نفسى أحيانا بأنى لو كنت أقول الشعر فى هذه الأيام لرثيت طه فانه يخيل إلى أن قد مات طه الذى عرفته وأحببته وأكبرته وجاء غيره الذى أنكره .

ولقد فتح زكى مبارك ملف طه حسين مرة واحدة وبدأ بذلك الهجوم العاصف .

١ ـ لقد ظن طه حسين انه انتزع اللقمة من يد أطفالى . لو جاع أطفالى لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه ولكن لن يجوعوا ما دامت أرزاقهم بيد الله .

٢ ـ إنى أعرف ما تكره منى ، انت تكره منى الكبرياء وكيف أتواضع وقد أعاننى الله على بناء نفسى ، وكيف وقد أقمت الدليل على أن الشاب المصرى خليق بعظمة الاعتماد على النفس . وهل رأيت رجلا قبلى أتم دراسته فى أوربا وهو مثقل بتكاليف الأهل والأبناء ؟

٣ ـ أن من العجيب فى مصر بلد الأعاجيب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربى فى الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغانى وفصول من سيرة ابن هشام ، ان الأستاذية فى الأدب العربى عبء لا ينهض به إلا الأقلون وهى تفرض الاطلاع الشامل على خير ما أبدع العرب فى خمسة عشر قرنا وهى تفرض البصر الثاقب بأصول الأساليب وهى تفرض العناء المطلق فى التعرف إلى فحول الكتاب والخطباء والشعراء وطه حسين ليس من كل أولئك فى كثير أو قليل .

٤ ـ دلونى على رأى واحد ينكره طه حسين ، أنا لا أعرفه إلا رجلا ينهب آراء المستشرقين ثم يدعيها لنفسه . ان للدكتور طه مزية واحدة هى القدرة على تلخيص الحكايات والأقاصيص .

لقد ادعى طه حسين أن القرآن لا يصلح سنداً فى حقيقة تاريخية ومضى يقول :
للتوارة أن تحدثنا وللقرآن أن يحدثنا فلما كشف الناقدون عواره وبينوا انه نهب هذا الكلام الخاطىء من المبشرين وهددته الحكومة بالعزل أعلن فى الصحف (أشهد أنى أومن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم (الآخر) .
فأين كانت شجاعة العلماء وأين كان التحقيق العلمى . ان أعظم أديب فى لغة العرب رجل ينهب آراء المبشرين فى القرآن ثم يذيعها باسم الابتكار والتحقيق العلمى .

٥ ـ كنت أصاوله على صفحات البلاغ وكان هو يدبر لى المكايد فى الظلام حين عجز عن حرب البينات والبراهين ، لقد عرف طه حسين أنه لن يستطيع أن يواجهنى فى ميدان النقد الأدبى ووسائله فيه ضعيفة جدا وقد مرت عليه أعوام لم يقرأ فيها كتابا كاملا .

٦ ـ ابتدأت أناوش الدكتور طه حسين حين ثبت أنه كالطبل الأجوف وأنه لا يعرف من تاريخ الأدب العربى إلا قشوراً عديمة المحصول وكنت كلما هاجمته تخاذل وضعف وخشى عاقبة النضال . ثم اتفق انى عينت فى الجامعة المصرية فبدا له ان يتشجع ويناوشنى ظنا منه أنى اخاف من المناوشات احتفاظا بمنصبى فى الجامعة ودفنا لمغبات القتال فأمهلته قليلا وتركته يصول فى مناوشتى ويجول وكذلك امليت له حتى جاءت الموقعة الحاسمة يوم عين نجيب الهلالى وزيراً للمعارف وكان يعرف الصلة التى بينه وبين نجيب الهلالى . ورأى فريق من زملائى أن اتسامح مراعاة للظروف فاقسمت لأقذين مشروع حياته ولأجعلته مثلا فى الآخرين وكذلك كتبت المقال الذى يذكره القراء والذى ابكى طه حسين بالدمع الثخين : مقال (طه حسين بين البغى والعقوق) راجع كتابنا المعارك الأدبية : معركة لقمة العيش .

٧ ـ لقد ذهبت فاتممت دراستك فى باريس وذهبت أنا فاتممت دراستى فى باريس وذهبت أنت على نفقة الجامعة ومضيت أنا متوكلا على الله فانفقت ما ادخرت ، واتصلت بالمسيو كازانوفا ففرض عليك آراءه فرضا ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من اراء ذلك الأستاذ واتصلت انا بالمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائى فرضاً ، واتصلت بينى وبينه الخصومة فاذانى إيذاء شديداً لقد كنت رئيسا لتحرير جريدة الأفكار وكانت تدافع عن مبادىء الحزب الوطنى وكان يشرف عليها عبد اللطيف الصوفانى فكنا نختلف ونختصم كل صباح لأنى كنت آبى أن أكتب غير ما اراه من التعليقات السياسية ، وأنت اليوم رئيس تحرير جريدة وفدية (الوادى) فهل تدرى ماذا تصنع ، تدخل إلى مكتبك فلا تكتب سطرا قبل ان تتصل تلفونيا بهذا او ذاك لتتلق الوحى ، ثم تكتب ما يلق عليك . ثم مضيت فانتهبت آراء المستشرقين

وتوغلت فسرقت حجج المبشرين الخ .

وخرجت أنا من الجامعة فاشتغلت بالتدريس والصحافة الأدبية وجمعت من المال الحلال ما اتممت به دراستى فى باريس وطبعت عدداً من المؤلفات ، وخرجت أنت من الجامعة فانزويت فى بيتك وأخذت تبحث عن سيد وطالت حيرتك فى تخير سيدك الجديد فكنت تراه تارة من هؤلاء وتارة من هؤلاء ، ورأيت أخيراً أن مائدة الوفد أشهى من غيرها فنهبت وقدمت إليها نفسك وهددت الدكتور هيكل بكشف اسرار الأحرار الدستوريين.

٨ ـ كان يعلن أن الأدب العربى يرجع إلى اصول فارسية ويونانية ثم عاد فغير رأيه وقال ان الأدب العربى كان قوة خطيرة بين الآداب القديمة وأنه طارد ادب الفرس واليونان والرومان .

ولعل القراء يذكرون أن الدكتور طه أخذ بيدى وبعيد منذ سنين ليثبت أن العرب لم يكن لهم نثر فنى وأنهم لم يجيدوا الإنشاء إلا حين اتصلوا بالفرس وأن أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل قال الدكتور طه هذا الكلام ونشره فى المقتطف وكنت اعرف انه سرقه من المسيو مرسيه فكشفت هذه السرقة فى ترفق وكان كلام مسيو مرسيه قد نشر منذ زمان فى مجلة مجهولة يندر أن يهتم بها المصريون وهي المجلة الأفريقية التى تصدر بالفرنسية فى مدينة الجزائر ، ما الذى وقع بعد ذلك ، أخذ الدكتور طه يتراجع ويتقهقر ، انتهز فرصة ظهور كتاب ابن المعتز ثم كتب كلاما نقض به ما بناه سبع سنين (البلاغ ـ ١٩٣٥) .

وقد علمت أن هجوم طه حسين على زكى مبارك فى محاولة القضاء عليه إنما هو فى الحقيقة بمثابة عقوبة لزكى مبارك إنه خرج من زمرة خدام الثقافة الفرنسية يوم رأى له رأيا فى اللغة العربية والإسلام ، حتى قال طه حسين لرجال الجامعة كيف صيرتم زكى مبارك دكتورا وهو رجل مشاغب ؟

نعم لا بد أن يكون الرجل مصقولا ، ماضيا مع العرف والاتجاه وإلا فلا مكان له فى الجامعة .

* * *

أما الدكتور على العنانى فقد أخرجه طه حسين من الجامعة لأنه عارض طه حسين فى رأية وأخذ عليه القول بوجوب تخلى الأديب عن العاطفة الدينية والقومية وقال : إنه رأى فاسد لأن الأديب إذا خلا من هذين العاطفتين يفقد كل معانية ومميزاته وتصبح الأمة التى يوجد فيها هذا النوع مقفرة من الأدب كل الإقفار (النهضة الفكرية ٩ مايو ١٩٣٢) .

وقال إن النهضة الفكرية فى يد رجلين أحدهما ملفق فى العلم طاغية فى الافتراء ملحد فى

دين الله ، دساس من غير خجل ، هدام من غير تحرج ، وفى غير بناء (يقصد طه حسين) والآخر خال من كل معرفة بإدارة الجامعة وبعيد عن كل تجربة فى ذلك لأنه ماتثقف فى جامعة ولا أتيحت له فرصة مكنته من زيارة جامعة (يقصد لطفى السيد) .

ويقول : ما نعرفه من أنه كثيراً لا يعتمد فى أبحاثه على النقل دون كبير تجرد ودون تحرج فى اقحام شىء من عنده فيما ينقله وهو يرمى بهذا عادة إلى جحود النقل وانكاره وإظهار المنقول فى مظهر البحث المبتكر الظريف .

* * *

يقول الدكتور اسماعيل أدهم أحمد : الدكتور طه يلبس أهواءه صورة البحث العلمى . وهو يميل مع هواه فتميل على إظهار ذوقه وتتجلى شخصيته بأغراضها وأهوائها فى نقداته وتستطيع منها أن تستكشف عواطف الدكتور وميوله وأهواءه وأغراضه .

ويقول فتحى غانم : ان طه يحتمى وراء لغته وهى لغة بين بين وهى لغة ليست قديمة كل القدم وليست جديدة كل الجدة ، يلاحظ انها لا تقطع فى شىء أبداً بل هى مرنة للف والمداورة .

ويقول عبد الحميد جودة السحار : إن طه حسين يشبه السقاء فهو يحمل أبطال قصصه على ظهره ويقف منهم كناظر المدرسة ولا يسمح لهم بالكلام إلا بإذنه .

ويقول محمود عبد المنعم مراد : أن طه حسين فى مقدمة قصة المعذبون فى الأرض يقول :

لا أضع قصة فاخضعها لأصول الفن ولو كنت أضع قصة لما التزمت اخضاعها لهذه الأصول لأنى لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته أن يدخل بينى وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو يخطر لى فأمليه ثم أذيعه فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه .

ثم يعلق قائلا : أنه يضع نفسه فوق النقد ولا يحب أن يسمعه ولا يعترف به ولا يريد أن يقيم له وزنا ولماذا لأنه يريد أن يكون حراً فيما يكتب ويذيع على الناس وكيف إذن بنى طه حسين مجده الأدبى ، ألم يكن ذلك على حساب غيره من الأدباء القدماء والمحدثين على السواء . يخيل إلى أن الذى ألجأ طه إلى هذه الثورة الغاضبة على النقاد والقراء هو إحساسه فى ذلك الموضع من كتابه انه يتعرض للنقد فأراد أن يقطع الطريق على هؤلاء النقاد الفضوليين ولا أعرف فى التاريخ كله كاتبا مهما تبلغ عبقريته يستطيع أن يقول للنقاد : من أنت ولن يستطيع طه بهذا الكلام الذى ساقه أن يمنع قارئا او ناقدا من ان يبدى اعجابه بما كتب أو سخطه عليه (المصرى ـ ٣٠ يناير ١٩٥٣) .

ويقول ابراهيم المصرى : بمثل هذا الأسلوب الشبيه بنقيق الضفادع يحاول طه حسين أن يتزعم الحركة الأدبية فى مصر ويبسط عليها نفوذه وسلطانه ويحمل منها علم التجديد والفكر العصرى وليعلم الدكتور طه أنه إذا قد آثر فى ابناء الجيل الماضى فليس فى وسعه بالفاء ما بلغ خدمة أن يؤثر فى أبناء الجيل الجديد. وليس عندنا من الوقت ما نضيعه فى مطالعة ترهاته (البلاغ ٢١ يونية ١٩٣٤).

وقال سيد قطب : أن طه خبيث على ما به من طيبة وأجاب طه حسين فقال : الكاتب الأديب يخطىء كل الخطأ ويتبرع بالإساءة إلى حين يظن أنى خبيث على رغم ما أظهر من الطيبة فلست أدرى أطيب أنا أم خبيث ولكن الذى أعرفه أنى لا احب الخبث ولا أتخذه سبيلا.

ويعلق فتحى غانم على قول طه حسين : أنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى فى الأدب لأنى لا استطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو.

وقال فتحى غانم : هذا هو أدب طه حسين، فوضى لا شعور.

وقال الأستاذ عبد الله كنون : إن اسم كتاب على هامش السيرة منقول من الفريد أورشلم الأستاذ بجامعة اكسفورد صاحب كتاب على هامش سيرة المسيح.

* * *

أما الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى فله مع طه حسين قصة طويلة : بدأها بنقد قصصة المترجمة :

« اقرأ للاستاذ قصصه التى ترجمها، هل كان همه نقل الفصاحة الافرنجية إلى قراء اللغة العربية أو نقل الصور الفاضلة فى صورها المصونة، إنما كان همه مدح الخيانة والاعتذار للخونة وتصوير الخلاعة والمجون فى صورة جذابة، ليقضى بهذه الترجمة حق الإباحية لا حق اللغة، ولا حق الفضيلة وكان طه حسين يقول : إنه ممن خلق الله لهم عقولا تجد فى الشك لذة والقلق والاضطراب رضا.

وعندما ادعى طه حسين انكار شخصيات من التاريخ الأدبى وشك فيها كتب المازنى يقول : إنه سيجىء يوم يوضع طه نفسه فى ميزان التشكيك.

يزعمون أن رجلا اسمه الدكتور طه عاش فى عصر فى أوليات القرن العشرين وأنه صاحب هذه الكتب المختلفة التى نسبوها إليه ونحلوه إياها، ولكن كل ما اطلعت عليه مما يعزى له يحملنى على التردد بين رأيين أحدهما أن يكون هناك أناس كثيرون يتسمون طه حسين وثانيهما أن يكون هذا اسما استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه، ذلك إنه على ماروى أزهرى

النشأة والأزهر هذا جامعة إسلامية كبيرة يلبس الجبة والقفطان والعمامة أو ما يماثل ذلك فهو على هذا شيخ ويقولون إنه كان فى صدر أيامه يكتب فى صحيفة اسمها الجريدة وتقول إن هناك ثلاثة : الشيخ طه ، طه حسين الأفندى ، والدكتور طه حسين الخ .. الخ

وعندما اصدر عزيز أباظه ديوانه (آنات حائرة) كتب الدكتور طه حسين مقدمة للديوان ، فنشر المازنى مقالا فى البلاغ هاجم فيه المقدمة وقال إن الدكتور طه قد خسره الأدب ولم تربحه الحكومة . وقد أثارت هذه العبارة ثائرة الدكتور طه الذى وجه إلى رئيس تحرير البلاغ خطابا ضمنه نوعا من النقد على أسلوب الرمز والإيماء واعتذر عن ذلك بانه لا يتحدث إلى القارىء بقدر ما يتحدث إلى المازنى نفسه قال :

أراد الأستاذ المازنى أن يثنى على ديوان شاعرنا المدير ، أو مديرنا الشاعر الأستاذ عزيز أباظه فلم يستطع أن يصل إلى غرضه دون أن يقدم بين يدى مقاله برثاء لى واشفاق على أن الأدب قد خسرنى وأن الحكومة لم تكسبنى ولأنى كتبت فى تصوير هذا الديوان كلاما لا محصول وراءه ولا يعرف له رأس من ذنب .

وأنا أستأذنك فى أن أشكر للاستاذ رثاءه لى وإشفاقه على فذلك أقل ما ينتظر من أديب مثلى لا يكتب إلا ما وراءه محصول وما يتبين رأسه من ذنبه وأريد أن أوكد أنى آسف أشد الأسف لأن الأستاذ عزيز أباظه لم يطلب إليه هو كتابه هذا التصدير ، إذن لكان له المحصول كل المحصول ولكان له رأس كقمة الجبل وذنب كالذى خوف به المنجمون المعتصم حين هم بفتح عموريه .

وآسف أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملى فى وزارة المعارف وفى جامعة فاروق .. اذن لكسبته الحكومة والأدب جميعاً والأستاذ المازنى يعرف أن لأبى العلاء قصة مع الشريف المرتضى وأظنه يأذن لى فى أن اسرق من هذه القصة شيئا فالسرقة فى الادب مباحة ولا سيا حين تكون فى العلن لا فى السر ، وهى حينئذ أشبه بالسطو ولست أسرق من قصة أبى العلاء أو لست أسطو عليها الا بمقدار ، فانا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق وان يقرأ مطولة لبيد ومطولة طرفة وعينية سويد بن ابى كاهل التى مطلعها :

بسطت رابعة الحبل لنا فبسطنا الحبل منها ما اتسع

ورائية الأخطل التى مطلعها :

الا يا سلمى يا هند نبى بدر وإن كان حيانا عدى اخر الدهر

ولامية المتنبى ألتى مطلعها :

بقائى شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زمو لا الجمالا

سيقول القراء أنى الغز بهذا الكلام ولكنى اعتذر اليهم فانى لا أكتب لهم وإنما اكتب للاستاذ المازنى ، وأنا اسلك فى طريقة الأستاذ نفسه فن المحقق انهم لم يفهموا عنه ما قال أمس لأنهم لم

يقرأوا التصدير الذى لا محصول وراءه والذى لا رأس له ولا ذنب ولأن أكثرهم لن يقرأه لأن الكتاب ليس معروضا للناس واحبب إلى بان استقيل وافرغ للادب ولكنى أود أن أستيقن قبل ذلك بأن الحكومة ستضع الاستاذ المازنى لترى أيكتب كلاما كالذى أكتبه أم يكتب كلاما خيراً منه .

وجاء الدكتور زكى مبارك فألق بدلوه فى المعركة ولكن من ناحية تفسير الغوامض وكشف الاسرار فقال :

« مناوشة عنيفة ثارت بين الدكتور طه والاستاذ المازنى على صفحات جريدة البلاغ وهى مناوشة تمثل التجنى والتظالم على اعنف ما يكون بغى الرجال على الرجال وسنقف من هذه المناوشة موقف القاضى العادل فقد ساءنا أن يتقارض هذا الرجلان الظلم والعدوان بلا ترفق ولا استبقاء بعد أن ظلا صديقين حينا من الزمان واصل القصة أن عزيز أباظه مدير البحيرة أصدر مجموعة شعرية سماها (انات حائرة) مع تصدير بقلم الدكتور طه حسين فلما بدا للاستاذ ابراهيم المازنى ان يتحدث عن هذه المجموعة بدأ بالهجوم على صاحب التصدير فغضب الدكتور طه ردا أراد ان يدفع به العدوان بما هو اقسى من العدوان . ثم قال زكى مبارك انه سيفسر للقارىء هذه الرموز ولخص زكى مبارك كلمة المازنى فى أربعة عناصر .

ان الدكتور طه خسره الأدب ولم تكسبه الحكومة

ومعنى هذا انه يتولى عملا لم يخلق له وان الدكتور طه يضيع نفسه فى مناصب تشغله وتستنفذ جهده ووقته فاذا كتب جاء بكلام لا محصول من ورائه ولا يعرف له رأس من ذنب والافضل أن يستقيل الدكتور ويريح نفسه من العناء الباطل وهو عمله فى الحكومة ويتفرغ للادب .

وانه لا يمكن للدكتور طه أن يزود نفسه بالتحصيل أو التجويد حين يكتب وهو مشغول ليله ونهاره بأعمال كل واحد منها كاف للارهاق .

ونسارع فنذكر ان الاشارة إلى سورة الفلق منصبة على آية (ومن شر حاسد إذا حسد) وان الإشارة إلى مطولة لبيد تتجه إلى هذين البيتين :

فاقنع بما قسم المليك فانما قسم الخلائق بينها علامها
واذا الامانة قسمت فى معشر أوفى بأعظم حظها قسامها

وانه يريد من مطولة (طرفة) هذين البيتين

فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى عداوة الاصحاب والمتوحد
ولكن نفى عنى الاعادى جرأتى عليهم واقدامى وصدق ومحتدى

اما عينية سويد فقد اشار الدكتور طه إلى هذين البيتين :

رب من انضحت غيظا قلبه قد تمنى لى موتا لم يطلع
عسراً مخرجه ما ينتزع وتراني كالشجى فى حلقه

وأراد من رائية الاخطل هذين البيتين :

تنق بلا شىء شيوخ محارب وما خلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء الليل ثم تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

ومن لامية المتنبيء أراد هذين البيتين :

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وما اردت تبليغ هذه التعاريض إلى الاستاذ المازنى وإنما اردت منفعة القراء والنشر يتسم بالخير فى بعض الاحايين .

(١) كان يستطيع أن يقول إنه (يستعير) قصة أبى العلاء مع الشريف و (يستعير) هذه اللقطة المطلوبة فى هذا الموقع ، ولكنه قال إنه (يسرق) ليندد بالاستاذ المازنى ولم يكتف بذلك بل جعل سرقته علنية وهى (حينئذ اشبه بالسطو كما قال) (٢) صور الاستاذ المازنى بصورة الحاسد لمن كتب تصدير الديوان (٣) صوره بصورة من يعجز عن عمل المستشار الفنى لوزارة المعارف ويعجز عن إدارة جامعة فاروق (راجع المعركة كلها فى كتابنا المعارك الأدبية)

* * *

أما الأستاذ أحمد أمين صديق طه حسين ومريده والقاضى الذى وجهه طه حسين إلى دراسات الأدب فانه قد دفع مع استاذه وصديقه إلى حلبة الصراع ، وذلك حين جنح ذات يوم إلى القول بان جماعة من الكتاب تسلحوا بالشجاعة ثم شعروا أنهم أصيبوا فى سمعتهم وكان الرأى العام قويا مسلحا فتغلب وانتقم وظن طه حسين أن أحمد أمين يعنيه فكتب يقول : اخالفك أشد الخلاف وأنكر عليك أعظم الانكار ، أن الرأى بعيد كل البعد عن أن يصور الحق والثانى ان رأيك يمسنى وأؤكد لك انه يحفظنى كل الاحفاظ ويؤذينى كل الايذاء الخ

ومع توفيق الحكيم كانت معركة عاتية بعد صداقة طويلة ومودة غالية وكان طه حسين بين من عرفوا بأهل الكهف حين ظهورها ولكنه كان أقوى من كتب عنها معجبا بها فقال إن أهل الكهف حدث ذو خطر . لا أقول فى الأدب المصرى وحده بل اقول فى الأدب العربى كله وأقول هذا من غير تحفظ ولا احتياط .

ثم وقع الخلاف بين الرجلين تحت تأثير بعض عوامل السياسة والكبرياء الشخصى وكتب طه حسين نقده للحكيم فى عنف تحت عنوان (الأديب الحائر) حين ارسل توفيق يقول له

(انى لا اسمح لأحد آن يخاطبنى بلسان التشجيع فما أنا فى حاجة إلى ذلك ، فانى أعرف منذ أمد بعيد ماذا أصنع ولقد انفقت الأعوام أراجع ما أكتب قبل ان أنشر وأذيع ، كما انى لست فى حاجة إلى ان يملى على ناقد قراءة بعينها فإنى من زمن طويل أعرف ماذا اقرأ وما اخالك تجهل أنى قرأت فى الفلسفة القديمة والحديثة وحدها ما لا يقل عما قرأت أنت) .

وأجاب طه حسين بعد أن أخرج هذا أيضاً من زمرة الولاء :

أسأل الله أن يقيني واياه شر الغرور فهو مهلك للنفوس حقا ، وليعلم توفيق أنى لن أحفل به إلا يوم يخرج كتاباً لنا نقرؤه ويومئذ سأعلن رأيى فى الكتاب سواء رضى توفيق أم حفظ .

ومع سلامه موسى كان الموقف عجبا فهؤلاء هم دعاة التغريب ورجاله ومدرسته وعصابته يختلفون ويجعل الله بأسهم بينهم شديداً . كتب طه حسين يقول :

إن الاستاذ سلامه موسى ليس من اصحاب الألوان السياسية الظاهرة فقد يكون سعديا وقد يكون حراً دستوريا وقد يكون وطنيا وقد يكون اتحاديا ولكنه على كل حال لا يعلن رأيه السياسى أو لا يتكلف إعلانه ولا يتخذ لنفسه لونا .

وهو من أنصار الجديد وهو يعلم أنى أرى رأيه وأشاركه فيه دون تحفظ ولا احتياط ولكن نصره للجديد قد اضطره الى شىء من الاسراف ، فهو مسرف فى ازدراء الأدب العربى القديم والغض منه ، وهو مسرف أيضاً حين يقول ان الأدباء المصريين لم يكن لهم شأن فى حركة الاستقلال ولم يقودوا الأمة فى هذه الحركة .

وقال سلامة موسى فى رده : لقد اتهمنى الدكتور طه بالشعوبية أو كاد وكأنه نسى كفاحى من أجل الشعب ، ضد فاروق الفاسق ، هذا الفاروق الذى وقف طه حسين نفسه فى حرم الجامعة وفى منبرها يخاطبه بالصوت العالى بقوله : يا صاحب مصر ، ان أدب الملوك والأمراء والباشوات هو الذى يدعو إليه طه حسين .

أما الأستاذ الرافعى فان المعركة بين طه حسين وبينه طويلة ممتدة منذ وقت بعيد قبل كتاب الشعر الجاهلى ومن بعده وقد ألف فيه كتابا كاملا (تحت راية القرآن) يرد به على أفكاره ثم لم يفلته من بعد فى مقالات كثيرة .

من أهم ما عنى به الرافعى التعليق على (إنعام) طه حسين بامارة الشعر على العقاد قال طه حسين : ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للادباء والشعراء اسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه .

وقال الرافعى : ليس لدى الآن نص كلام الدكتور طه حسين ولا أنا اذكره بالفاظه بحروفها ولكن الذى اذكره أنى حين قرأته لم أبحث بين ألفاظه عن يقين المتكلم واقتناعه وحججه

وأدلته ، بل بحثت فيه عن سخرية طه حسين بالشعراء جميعاً فى أسلوب كأسلوب تلك المرأة العربية فى قصتها المشهورة حين قالت لرجال قومها فى ابيات مشهورة :

وإن انتموا لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تغيب عن الكحل

غير أن طه فى سخريته كالذى يقول : فان لم تثبتوا ان فيكم من استطاع أن يخلف شوقى فاصغروا واصغروا حتى يكون العقاد هو أميركم .

بقى أن نتساءل لماذا لم تأت الشهادة يوم كان الدكتور عميداً لكلية الآداب وكان يومئذ حراً لا يستذله الإكراه ولماذا جاءت الشهادة وهو يحترف الصحافة ؟ وترى لو كان العقاد من الحزب الوطنى أو من الأحرار الدستوريين أو اتحاديا أو شعبيا ـ أيكون قوله يومئذ وهو فى انسلاخه الثانى وانقلابه وفديا ـ أفتكون إلا رداً سياسياً على العقاد وشعره ، ونفرة سياسية من هذا الشعر وعقاده .

* * *

ومما يكشف عن موقف طه حسين من أهل عصره وجيله موقفه من أحمد زكى باشا استاذه القديم فى الجامعة والرجل الذى اعترف بفضله عليه فى البحث والدرس حين هاجمه بعنف فى شأن الدور الذى قام به العرب فى الحضارة والنهضة .

يقول أحمد زكى باشا : دهشت حينما رأيتك تقول عنى « أحمد زكى هو الذى أذاع فى الناس منذ سنين فكرة أن العرب سبقوا إلى كل شىء ولا يكاد يوجد بين الشعوب شعب سبقهم إلى شىء » هذا كلامك ومعاذ الله ياولدى ، أن يكون صدر منى هذا القول ، بل هى حماقة بعض كتاب الجرائد الهزلية وهى تهرف بما لا تعرف وتختلق القول اختلافا لذلك قابلتها بصمت الاحتقار ، انك حضرت أكثر دروسى فى الحضارة الإسلامية بالجامعة المصرية فهل سمعت منى هذا القول أو ما يدانيه ، وهاهم تلاميذى الكثيرون الذين كانوا معك بهذا المعهد ، وهاهم تلاميذى بالمدرسة الخديوية الذين استمعوا إلى محاضراتى الكثيرة فى نادى المدارس العليا بالقاهرة فهل سمع أحد منى مثل هذا القول الهراء أو ما يدانيه ، أنا أعلم انك تعلم أن العلم أمانة ، وعهدى بك أنك حريص عليها ، فهل من الأمانة أن تنسب لأستاذك مثل هذا القول الهراء وهو حى يرزق » الخ وهذا الرد يحمل عدة معانى :

١ ـ أن طه حسين يعتمد على مصادر ليست أساسية وهى الجرائد الهزلية .
٢ ـ أنه حاقد على كل ما يكتب عن العرب ولا يطيق الحديث عنه .
٣ ـ أنه يتجنى على أساتذته والعلماء بغير بينة أو دليل .
٤ ـ أنه كحاطب ليل لا يتوقف عن الهجوم بغير دليل .

روى الأستاذ محمد الهياوى : للأستاذ عباس خضر قصة سرقة طه حسين قال :

أن الدكتور طه سرق منه وهما طالبان معا فى الأزهر مجموعة المتون وهى مجلد يجمع عدداً من المتون المؤلفة فى مختلف العلوم واتهمه صراحة بأنه أخذها فأنكر ولكن حدث عندما كانوا خارجين من الجامع أن انشغل الشيخ طه بلبس حذائه فسقطت المجموعة من حيث كان يخبئها ، حكى لى الهياوى ذلك لما سألته عن قول لطه حسين فى إحدى مقالاته « ألا تذكر مجموعة المتون » .

أعجبتنى مقالة كتبها الهياوى فى جريدة المنبر التى كان يرأس تحريرها يدل عنوانها على موضوعها « كلية الآداب جائعة عريانة ودار العلوم هى الغذاء والكساء » ذلك عندما قامت دعوة إلى ضم دار العلوم إلى كلية الآداب وكان طه حسين عميداً لهذه الكلية .

* * *

روى أحمد حسين الطماوى فى حديث مع الدكتور محمد صبرى السربونى قوله :

دخلت أنا والدكتور طه امتحان الليسانس فى عام واحد وعندما ظهرت النتيجة ذهبت فلم أجد اسمى ولا اسمه فى اليوم التالى وجدت اسمه محشوراً بين السطور فذهبت إليه وأبلغته وقد أثنى على كثيراً لهذا الصنيع ويمضى الدكتور صبرى قائلا : ان حشر اسم طه حسين بين السطور آثار الكثير من الدارسين المصريين وقد قام جلال شعيب بكشف الحقيقة فقال لنا : ان طه حسين ذهب إلى الأساتذة وهم مجتمعون واستدر عطفهم وذكرهم بأنه على أبواب الزواج بفرنسية وأنه غريب وأعمى فرثوا له ومن هناك كان كره طه حسين الشديد لجلال شعيب .

وفى كتاب سامى الكيالى عن طه حسين : يقول طه حسين فى مقدمة رسالته للدكتوراة ليسمح لى بأن أعتذر عن أسلوبى الفرنسى إذا ما بدا بلا ريب فى كثير من المواضيع ركيكا أو خاطئا وكذلك من الأغلاط المطبعية التى قد تقع فى هذه الرسالة فما كنت إلا غريباً وأعمى .

وقد واجهت الدكتور صبرى بما كتبه فى طه حسين عن نفسه فى هذه الفترة واثبته سامى الكيالى فى كتابه مع طه حسين وأورده كامل زهيرى فى مقال له بعنوان ثلاثة معاهد أو أربعة : السربون وقد كنت أحضر دروس التاريخ القديم تاريخ اليونان على جلوتز ، وتاريخ الرومان على بلدك والأدب القديم على لانسون واللغة والاجتماع على دور كايم وديكارت على ليفى بريل واللاتينى على مارنا والثورة على أولار والبيزنطى على شارل ديل والتاريخ الحديث على سينبوس والجغرافيا على ديمانجون وجالوا .

وقال الدكتور صبرى بعد أن أمعضه هذا الكلام وتوعر أن هذا الكلام لايسكت عليه لأن

طه حسين لم يدرس على كل هؤلاء فإن دارس التاريخ لابد أن يتخصص إما فى التاريخ القديم أو تاريخ العصور الوسطى أو التاريخ الحديث طه حسين كان متخصصا فى التاريخ القديم فكيف درس تاريخ الثورة الفرنسية وهو تاريخ حديث على أولار وكيف درس البيزنطى على شارل ديل والدكتور طه حسين كان قليل التردد على السربون لعاهته ولا أذكر أبداً إنى رأيته يستمع لأولار ولا لديانجون على سبيل المثال وكونه إنه استمع إلى محاضرة أو محاضرتين لأستاذ من الأساتذة لا يعنى هذا إنه درس عليه ومن ثم لا يعقل انه تلميذ على هؤلاء الأساتذة الكبار . وإلا فإننى استمعت إلى عشرات الأساتذة فهل ادعى اننى درست على كل هؤلاء . إن ما درسه طه حسين هو اللغة الاتينية لتعينه فهم التاريخ القديم . أما الذين نقلوا نقل مسطرة عن طه حسين كالكيالى وكامل زهيرى فان معلوماتها قاصرة بالنسبة للدراسة فى السربون » .

قال الدكتور محمد محمد حسين :

« طه حسين الذى تشهد كتبه بأنه لم يكن إلا بوقا من أبواق الغرب وواحدا من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير يروج لثقافاته ويعظمها ويؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عباده جلاديهم . طه حسين الذى لن يمل من الكتابة عن جامعة البحر الأبيض المتوسط . الذى زعم لمصر أنها جزء من البحر الأبيض المتوسط فى مقومات شخصيتها وليست جزءاً من نجدو اليمن والبحرين والعراق والسودان .

طه حسين الذى لم يتصور العرب فى وهمه أمة . لأن قوام الدول فى زعمه المنافع المادية ولأن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول . (مستقبل الثقافة ص ١٩)

طه حسين يزعم للعرب ان السبيل إلى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم ولكن السبيل هو ان يذوبوا فى الغرب وأن ينخلعوا من أنسابهم ويعلقوا من تربيتهم ليذوبوا فى تربة الغرب ولذلك فهو يهلك أموالهم فى ترجمة شكسبير التى ترجمت من قبل أكثر من مرة ليحابى بها بطانته وحزبه فيغدق عليهم مما تحت يده . بل هو يهلك أموالهم فى ترجمة ما لعن به أجدادهم وماسفه به أسلافهم وسفه دينهم وافترى على نبيهم .

يروى الدكتور زكى مبارك إبان علاقته بالدكتور طه حسين هذه الواقعة .

تكلم الدكتور طه بالتليفون يقول . تعال يا دكتور زكى بسرعة . اسرعت إلى مقابلة الدكتور طه وكانت داره جوار دارى يوم كان يقيم بمصر الجديدة .

قال الدكتور طه : هل تعرف يا دكتور زكى لوكاندة الكلوب المصرى ؟

قلت : أعرف ـ قال هناك هندى مسلم حضر معى مؤتمر المستشرقين وأنا داعيه إلى الغذاء ولكنه تعب فى الوصول لأنه غريب .

مضيت إلى الكلوب المصرى وقلت للاستاذ : أنا حاضر لمصاحبتك إلى منزل الدكتور طه حسين واسمى زكي مبارك قال : تشرفنا يا دكتور ولكنك زنديق واستاذك زنديق ولن آكل لقمة فى بيت أحد الزنادقة ولو قضيت الحياة بان أموت من الجوع ورجعت فأخبرت الدكتور طه بما وقع .

فقال نحن أدينا الواجب (البلاغ الأثنين ٢٩ ربيع الأول ١٣٦٧)

* * *

ويبق بعد هذا الحشد من أهل عصره وجيله عدد قليل ، لا يكاد يمثل ظاهرة ولاء لا مدرسة فكرية ولا تقدير ، هم أولئك الذين يخافون طه حسين على مراكزهم ومناصبهم وأوضاعهم وقد حاولت أن أتعرف منهم على وجهة نظرهم فكانوا يخشون الافصاح بها حتى لا تتأثر أوضاعهم فى الجامعة أو فى مجمع اللغة أو فى وزارة المعارف أو فى إدارة الثقافة فى الجامعة العربية وروى الكثيرون عبارات وكلمات لن يزيد ايرادها شيئا نصل به إلى مما وصلنا عن طريق هذه الوثائق المكتوبة .

إن الخطر كل الخطر أن ينظر الناس إلى طه حسين من خلال ما جمعه فى كتب وانتقاه مما كتبه فى الصحف خلال خمسين عاما ، إن هذا الذى اختاره بنفسه لا يمثل الحقيقة ولا نصف الحقيقة ولا ربع الحقيقة ، أن هناك فى بطون الصحف الكثير مما يوحى بالحقيقة الكامنة فى أعماق طه حسين والتى لم يظهر عليها أحد والتى يمكن معرفتها من الدلائل والوثائق والشواهد التى حاولنا أن نقدمها فى هذا الفصل وهى تحتاج إلى تحليل واسع لا يتسع له هذا البحث : أقدم هذا كله للذين ما زالت تخدعهم العبارات الرنانة والكلمات البراقة وأوهام البطولة والبلاغة .

* * *

وإذا كان هذا هو شأن طه حسين مع أهل جيله فإن الأمر كذلك مع الجيل اللاحق فقد رأينا كتابات فتحى غانم التى توالت تحت عنوان (طه حسين عقبة فى طريق القصة) وتلك المعارك التى اندلعت بينه وبين من أسموا أنفسهم تلاميذه : عبد الرحمن الشرقاوى وإبراهيم الوردانى فهاجموه فلما تعالم عليهم قالوا له : وفوق كل ذى علم عليم :

وأشار موسى صبرى إلى تجربة طه حسين فى العمل مع جريدة الجمهورية يوم وضع اسمه فى قائمة رؤساء التحرير . وفرض أن يشرف على مواد الجريدة وفى أمرين وقعت الأزمة فى شأن فرنسا وفى شأن الأغريق . ذلك أن هذين الأمرين هما مصدر عقيدته التى عاش لها يقول : اذكر مرة أن المانشيت الرئيسى فى الصفحة الأولى كان (ديجول فى أزمة) وغضب طه حسين وقال إن وضع اسمى على الجريدة يحمله مسئولية ما ينشر فيها وهو لا يطلع عليه .

وقال الأصح أن نقول: ديجول فى حرج !

وقال موسى صبرى : إن ابراهيم الوردانى كتب مقالا وصف فى سطر منه الأدب اليونانى القديم بأنه أدب الأساطير والخرافات والعفاريت (وأن ذلك جعل الدكتور طه حسين ممهداً للثورة والانفعال . وعندما نقل إليه الخلاف بين بعض الأدباء كتب مقالا عنيفا هاجم فيه رؤساء تحرير الجمهورية بعنوان بين السخف والجد . وأعلن فيه أن ليس مسئولا عما تنشره الجمهورية وكانت ليلة عصيبة وكانت وجهة نظرى أن واجب الدكتور طه حسين يقتضيه أن يقدم استقالته ما دام غير راض ومستنكر لما نشر وأنه ليس من اللائق أبداً أن يعلن فى الجريدة أنه غير مسئول وهذا يعنى أمام القراء أن المسئولين عن التحرير منقسمون على أنفسهم وتدخل صلاح سالم وقدم حلا وسطاً وهو أن ينشر مقال الدكتور طه حسين وفى قلبه إشارة داخل برواز بأن رئيس التحرير الفعلى (أى موسى صبرى) سيرد على المقال ونشر الرد على طه حسين بما يكشف عن فساد خطته . يقول موسى صبرى « وهكذا اتسعت المعركة وجاوزت كل حد تخيلناه ، وعلى الرغم من أنها جرتنا إلى ألفاظ جارحة وعبارات قاسية فقد عرضت قضية عامة من قضايا النشر فى الصحف اليومية » وتلك قصة لها مجال آخر ولكنها هنا تكشف أن طه حسين قد تلق من أهل الجيل الذى ظن أنه جيل اتباعه وتلاميذته أشد مما لق زكى مبارك والمازنى .

ولم يتخل طه حسين إلى آخر أيامه عن الدفاع عن تبعيته للغرب ولليونان فقد حمل ذلك على أعناق القراء فى كل عصر ومكان .

* * *

وختاماً

هذا مدخل إلى دراسة طه حسين (حياته وادبه) أردت أن اضعه بين يدى القارىء العربى المسلم الذى لم يشهد هذا التاريخ ولم يعايش هذه الوقائع وانما سمع باسم رنان وشهرة مدوية وطبل قوى دون أن يعرف ما وراء ذلك فأردت ان أكشف له هذه الخلفيات وهذه المواقف بالحق ليتعرف على من أطلق عليه ـ عميد الأدب العربى ـ وله فى ضوء الوقائع أن يحكم : هل يمكن أن يكون مثل هذا الكاتب عميدا للأدب العربى الذى يزدريه ويتعقبه أو قائدا لأمة هو منكر لمفاهيمها ، لا يدين لها بولاء ، أو مفكرا لا يثبت أى شىء ويثير من حوله الشكوك والسخريات والأحقاد .

هذا هو السؤال الذى يمكن أن يلق اليوم بعد أن استعرضنا حياة الرجل بكل الدقة والتجربة من واقع الوثائق التى فى أيدينا وهى كتابات أربعين كاتبا ، يكادون أن يجمعوا على وضع الرجل فى الموضع الذى هو أهل له .

يلبس أهواءه صورة البحث العلمى : « اسماعيل أدهم أحمد » أنكر كثيراً ولم يثبت شيئا : عمر فروخ

ولعه بالزناة والفساق : المازنى

تلك النقيصة الظاهرة فى تردده : العقاد

كيف يمكن أن يكون موضع القيادة وموضع الثقة من يقول :

« ان الإنسان يستطيع أن يكون مؤمنا وكافرا فى وقت واحد مؤمنا بضميره وكافرا بعقله فإن الضمير يسكن إلى الشىء ويطمئن إليه فيؤمن به » هذا مفهوم غربى كنسى مسيحى يرفضه الإسلام وينفر منه ، ذلك أن الإسلام هو دعوة التوازن بين الروح والمادة والعقل والقلب ، وبين الطمأنينة والسكينة الروحية والالتقاء بين القيم على هدى وبصيرة .

ومن الحق أن يقول قائل : ان مصطفى كامل والرعيل الأول من الوطنيين الذين دعوا إلى إنشاء الجامعة ما كانوا يظنون أن مشروعهم لا يلبث أن يتحول إلى عمل تغريبى خطير وأن يعود الدكتور طه من وراء البحار لينشر

فى أنحاء المعهد آراءه المصادمة لنصوص القرآن والإسلام فى كتاب الأدب الجاهلى وحديث الأربعاء الذى يصور المجون والفجور فى طائفة من الشعراء ولم تكن هذه الآراء التى ينشرها طه حسين إلا آراء بعض المبشرين الداعين إلى هدم مقومات هذه الأمة وقوائم فكرها.

ولقد هوجم طه حسين منذ اليوم إلى اليوم الأخير: لم تتوقف حركة اليقظة عن متابعته وكشف شبهاته وتزييف آرائه ودحر مخططه، ولكنه مع الأسف ظل يرتق بالرغم من هذه الحملات فى مخطط مرسوم من أستاذ إلى عميد إلى مدير جامعة إلى مستشار فنى إلى وزير وظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته مشرفا على اللجنة الثقافية فى الجامعة العربية ورئيسا لمجمع اللغة العربية وله نفوذه الواسع فى وزارة المعارف والجامعات وذلك مصداق قول هاملتون جب المستشرق:

« سواء قوبلت أراء الدكتور طه حسين بالموافقه أم لم تقابل فلابد أن يقضى نفوذه الواسع الذى يتمتع به إلى توطيد المبادىء التى يدعو إليها ».

وقد ظل طه حسين مصرا على اتجاهه، بعد أن تحول كل الذين كانوا معه فى مخطط التغريب:

منصور فهمى، زكى مبارك، اسماعيل مظهر، محمد حسين هيكل، وبقى هو وحده يدافع عن التغريب والاستشراق حتى اللحظات الأخيرة مخادعا بأنه يستمع إلى اذاعة القرآن أو كاتبا عن (الشيخان) أو غير ذلك مما كان يحاول أن يرسم به لنفسه سمت علماء الإسلام بينما ينطوى فى أعماقه على كراهة له عميقة وحقد شديد.

ولعل أعجب ذلك يوم قصد إلى مكة وطاف بالبيت مع جماعة اللجنة الثقافية للجامعة العربية، ولست أُدرى كيف وقف الرجل الذى شكك فى بناء ابراهيم واسماعيل للكعبة وشكك فى وجودهما وجودا تاريخيا، كيف كان موقفه أمام الكعبة وإن نظرة إلى الأحداث لتكشف فى وضوح اتجاه الريح:

ولنأخذ ما كتبه طه حسين عن نفسه فى مذكرات طه حسين ص ٢٠٣ - التى أصبح اسمها بعد ذلك (الأيام الجزء الثالث)

أقبل من ضحى ذلك اليوم على أستاذ تاريخ القرون الوسطى وكان من أعظم أساتذة السربون قدرا هو الدكتور شارلى دبل فإذا الأستاذ قد كتب على أوراق صغيرة أُسئلة كثيرة وضعها أمامه وجعل الطلاب كلما أقبل

واحد منهم على الأستاذ يرمقونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ . ويقبل صاحبنا (أى الدكتور طه) ترافقه زوجه فإذا أخذت ورقة ودفعتها إلى الأستاذ نظر فيها ثم ابتسم ثم قال فى صوت عذب :

ـ لقد أسعدك الحظ بمرافقة هذه الآنسة . حدثنى إذن عن الامبراطورية العربية أيام بنى أمية ، وما أرى الا أنك تعرفها واندفع الفتى فى حديثه لا يلوى على شىء حتى أوقفه الأستاذ قائلا :

ـ حسبك فقد ظفرت بالدرجة العليا . .

هذا ما سجله طه حسين وهذا ما دفعه إلى النجاح ورقة ربما قالت فيها السيدة للأستاذ : ان هذا هو الرجل المرجى فى مصر لخدمة الثقافة الفرنسية ، وربما قالت له شيئا آخر .

ولنذكر يوم أصدر الشعر الجاهلى وسارت المظاهرات إلى سعد زغلول تطالب برأسه فقال سعد :

ان مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها ، هبوا أن رجلا مجنونا يهذي فى الطريق فهل يضير العقلاء شىء من ذلك ، ان هذا الدين متين ، وليس الذى شكك فيه زعيما ولا اماما حتى نخشى من شكه على العامة فليشك ما شاء : وماذا علينا إذا لم يفهم البقر !

ومن يومها انطلق طه حسين تحت اسم الرحمة لرجل كفيف أو التجاهل لرجل يهذى ولكن طه حسين كان يقطع الطريق من مرحلة الى مرحلة مؤثرا فى المناهج الجامعية ثم المدرسية وفى مناهج الثقافة والأدب والتاريخ والفكر جميعاً ففى كل ما تناوله سموم مدسوسة وآراء للاستشراق منشورة ، وشبهات مثارة وشكوك منطلقة وكتب تدرس فى الجامعة تتناول الاسلام والرسول بعبارات فاحشة ، وحفلات رقص فى الجامعة وفى بيوت الطالبات وشعار فرعونى للجامعة والاحتفال برينان عدو الاسلام ويكتب طه حسين عن نفسه فيقول : إنى اعرف نفسى أكثر مما يعرفها غيرى ، وان الذين ينتقدون ويعيبون ويشهرون لا يعرفون من عيوبى إلا أقلها » .

نعم لا يعرفون مثلا قصة صلته فى فرنسا وهى قصة مشهورة رددها كثيرون فى صحف مكتوبة ومحاضرات منشورة .

ولا يعرفون ذلك الولاء الخفى للصهيونية . الجاثم وراء النصوص والكلمات وإنكار ابراهيم واسماعيل ثم دار الكاتب المصرى ، والكلمات

الصهيونية من شيوعية فى دعوته الى تصوير مؤامرات القرامطة والزنج وغيرها على أنها حركات عدل وحرية..

وآراء بعد ذلك مسروقة، أخذها من هذا المستشرق وذاك. وقال أوليائه انه ألق بذرة الحرية ولو قالوا انه ألق بذرة الشك لكان تصورهم أعمق للأدب الذى كتبه طه حسين والذى يقوم على عبارات (لست أدرى، ما أظن، يخيل الى، احسب ان كذا) وكل انتاج طه حسين يسير فى هذا الاتجاه الذى يشكك فى كل حق قائم ومعتقد موروث ولا يقرر شيئاً ما حتى عده بعض الباحثين زعيما للشاكين والمشككين.

أمران خاض فيهما الدكتور طه حسين لحساب الصهيونية إنكاره ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكة وبناء البيت وانكار شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى رأس الفتنة فى قصة عثمان [1].

وفى الجامعة ووزارة المعارف قال الكثيرون لقد انتهى عهد دنلوب وبدأ عهد طه حسين.

وقد حرقت كتبه فى دمشق، وقامت المظاهرات ضده فى القاهرة وكتب الكثيرون يكشفون زيفة فى عواصم كثيرة ولكن قوى الاستعمار والصهيونية كانت تظاهرة وتحميه. وآب التغريبيون كلهم الى مفهوم الاصالة العربية والاسلامية الا هو فقد ظل حريصا حتى آخر أيامه على ولاء الغرب والاستشراق.

وفى كل معركة كان يدخلها يمنى بالهزيمة وكل فكرة قدمها طاردتها فكرة أكثر منها حقا وأصالة وايمانا، دافع عن الالحاد ودافع عن الفرعونية ودافع عن الشك، ونافق الغربيين والأحزاب، وهاجم الأزهر، والاسلام، عارض كل شيء أصيل فى أفق الفكر الاسلامى، وشكك فى التراث القديم، وواقف موقف السخرية من الدين وعلمائه، وحمل لواء حضارة البحر المتوسط والأدب اليونانى، ووصف بأنه سفير الغرب وأدخل الاساطير مرة أخرى الى سيرة الرسول: وأخذ كل نظرياته من مستشرقين هم خصوم لأمته ووطنه وللإسلام، أخذ من دور كايم رأيه فى ابن خلدون ومن سانت بيف دعوته الى شعر المجون والغزل العلمانى ومن بلاشير رأيه فى المتنبى ومن كازانوفا رأيه فى بشرية القرآن، ومن الصهيونية انكار هجرة

---

(١) اقرأ كتابه الفتنة الكبرى.

ابراهيم عليه السلام الى الحجاز وبناء الكعبة وقال انها بالرغم مما ورد فى القرآن اسطورة وأنكر القراءات السبع التى جاءت عن النبى .

وبالجملة فان أبرز وجوه العمل التغريبى فى مفاهيم طه حسين يتلخص فيما يلى :

أولا كسر قاعدة ترابط الادب العربى بالفكر الاسلامى .

ثانيا انقص قدر الرعيل الاول من الصحابة ووضعه موضع النقد وعامله على أسلوب محترفى السياسة .

ثالثا : وصف القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون .

رابعا أذاع الأدب المكشوف سواء ما بعثه من الأدب العربى القديم (بشار وأبى نواس) . أم من الأدب الفرنسى الذى ترجمه .

خامسا : حمل على الاسلام من خلال الأزهر ، دعا الى الفرعونية ، ودعا إلى العلمانية ، ودعا الى الغاء التعليم الدينى .

سادسا : أشاع الأسطورة فى السيرة النبوية .

سابعا : عمد إلى تدمير الشخصيات الاسلامية اللامعة وفى مقدمتها ابن خلدون والمتنبى .

ثامنا : حاول تتبيع الأدب العربى للأدب اليونانى وتتبيع الفكر الاسلامى للفكر الغربى .

تاسعا : اعتمد مصادر زائفة وناقصة : كتاب البلاذرى فى عبد الله ابن سبأ والأغانى .

عاشرا تبعيته الظاهرة التى يفاخر بها للاستشراق والتبشير والتغريب .

حادى عشر : موقفه بالمتابعة من الصهيونية العالمية .

ثانى عشر سوء موقفه من أساتذته وزملائه وطلبته وتجريحهم ونقدهم .

تلك ملامح عامة سريعة أردنا أن نقدمها فى هذا الكتاب الذى نعده بمثابة « مدخل إلى حياة طه حسين وفكره » آملين ان نقدم فى القريب البحث الكامل الجامع : « طه حسين مفكرا وأديبا » .

والله من وراء القصد .

أنور الجندى

الفصل بعد الأخير

حساب الدكتور طه حسين

تجدد الحديث حول الدكتور طه حسين : حياته وفكره بعد أن توقف بظهور هذا الكتاب الذى استطاع بما قدمه من وثائق ونظرة علمية وترفع عن الهوى واعتصام بالحق أن يؤثر فى العقول والقلوب وأن يكسر تلك القداسة الزائفة والهالة الكاذبة التى حاول التغريب والغزو الثقافى أن يحيط بها الدكتور طه ويفرضه زعيا ومصلحا ومفكرا على الإسلام والمسلمين فقد أظهر الكتاب بوضوح تبعيته وولاءه وأحدث بين أتباع طه حسين من ناحية واصدقائه من ناحية أخرى هزة شديدة فقد كان الكتاب أشبه بقنبلة ألقيت على معسكرهم وفى قلب حصونهم ومن ثم تشكلت هيئة الدفاع عنه لتتحرك فى خطتين : (بصرف النظر عن عبارات غير كريمة ولغو مغرض نعرض عنه).

الأولى : الدفاع عن طه حسين على أنه زعيم وبطل وقائد يمكن أن يوضع فى صفوف القمم التى عرفها تاريخ الإسلام فى العصر الحديث وتلك محاولة مضللة زائفة أثبتت كل وقائع حياة الدكتور طه بطلانها .

الثانية : القول بأن طه حسين رجع عن آرائه فى آخر حياته وعاد إلى الإسلام وإلى الإيمان بالله وذلك حين ألف على هامش السيرة وبكى أمام الكعبة .

وهناك تساؤل يقول : لماذا لم تكتبوا عن طه حسين وهو حى وتناولتموه بعد وفاته ؟

وهناك من يصف عملنا فى دراسة معالم الأدب العربى المعاصر بأنه مجرد عمل « أرشيف » للأدب .

وهناك المحاولة التى قدمت التساؤلات : هل كان طه حسين ملحداً ، هل كان

شيوعيا، هل كان عميلا للصهيونية ؟ وتلك تساؤلات لم نكن شركاء فيها فى الحقيقة.

وهناك من يظن أننا رددنا اتهامات قديمة وجهت إلى كتاب الشعر الجاهلى الذى غيره طه حسين بكتاب (الأدب الجاهلى)

وعلى كل هذا نجيب.

ولكى يكون قارئ الكتاب على معرفة تامة بأبعاد معركة حساب طه حسين نقدم ثبتاً بأسماء الموضوعات والصحف التى تناولت الرد على كتابنا.

مجلة العربى: سعيد الافغانى : عودة الى مراجعة كتابى حديث الأربعاء والشعر الجاهلى

مجلة الهلال: رجاء النقاش: طه حسين فى قفص الاتهام.

الجمهورية: كامل زهيرى (تعليق).

الجديد: عبد المنعم شميس: طه حسين والإسلام.

الإذاعة: جابر رزق: الدكتور طه يتراجع عن أخطر آرائه.

أكتوبر: عائشة صالح: اطلاق الرصاص على طه حسين (كذا !) (قاهر الظلام).

صباح الخير: علاء الديب (تعليق)

وبالنسبة للقضايا الأربع المثارة كمدخل للموضوع تقول :

أولا : (س) لماذا رددتم على طه حسين بعد موته ؟

جـ الواقع أننا كتبنا عن طه حسين منذ عام ١٩٥٧ فى موسوعة معالم الأدب العربى المعاصر وذلك خلال أكثر من عشرين عاما وخلال سبعة عشر عاما قبل موته وشهد طه حسين هذه الفصول ونحن نقدمها فى كتبنا واحداً بعد آخر :

١ ـ المعارك الأدبية

٢ ـ الصحافة السياسية

٣ ـ الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا

٤ ـ المساجلات والمعارك الأدبية

بل إن كتابنا (الصحافة السياسية) عندما صدر عام ١٩٥٩ أعلنت عنه الصحيفة الأدبية للأخبار بان صورت غلاف الكتاب ونشرت بجانبه صورة طه حسين والعقاد وقالت إنه أخطر كتاب صدر يقدم تناقضات الكتاب فى الصراع السياسى وتقلبهم بين الأحزاب وقد كشف الكتاب فى هذا الوقت المبكر - والدكتور طه حسين حىٌ - عن تناقضاته بين الهجوم على سعد ومدحه وبين شتم الوفد والدفاع عنه .

وقد جمعنا فى كتابنا المعارك الأدبية الصادر عام ١٩٥٨ أكثر من عشرين معركة كان موقف طه حسين فيها موقف المعارض للأصالة العربية والإسلامية والمندفع إلى صف التغريب والغزو الفكرى وكشفنا جل ارائه الخطيرة فى كتبه الثلاثة : الشعر الجاهلى ، حديث الأربعاء ، مستقبل الثقافة وفى كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية الذى صدر بعد ذلك كشفنا اراءه الخطيرة فى كتبه : الفتنة الكبرى ، مع المتنبى ، على هامش السيرة وهكذا نكون قد اعذرنا إلى الله فقدمنا إلى الدكتور طه وهو حى وجهة نظر الإسلام فى كتبه وما نقدمه فى كتابنا هذا لا يعدو أن يكون بلورة لهذه المعارك والمساجلات .

ولقد كان علينا أن لا نهاجم الدكتور طه حسين فى سنواته الأخيرة لاشتداد المرض عليه ولكن كان من الضرورى بعد موته أن نقوم باستقراء شامل لكل أعماله ، لا من أجله هو ، ولكن من أجل الأخطار والمحاذير التى تقدمها مؤلفاته .

ثانيا : (س) هل كان عملنا فى دراسة معالم الأدب العربى عمل أرشيف ؟

ا : إن العمل الذى قدمناه خلال أكثر من عشرين عاماً تحت اسم معالم الأدب العربى المعاصر والذى ضم أكثر من عشرين مجلداً لم يكن بأى حال من الأحوال ولا بأى معنى من المعانى عمل « أرشيف » على النحو الذى حاول أن يصوّره الأستاذ كامل زهيرى وانما كان تقويماً علمياً وتاريخياً منصفاً لفترة تزيد عن سبعين عاماً فى العالم العربى كله وفى محاولة لدحض كثير من الأكاذيب والأباطيل التى روجها المستشرقون وأتباعهم وفى مقدمتها :

١ - دحض الفرية التى تقول بانفصال الأدب العربى الحديث عن الادب العربى منذ ظهور الإسلام .

٢ ـ دحض الفرية التى تقول بأن إرساليات التبشير هى التى أحدثت النهضة الحديثة فى البلاد العربية.

٣ ـ دحض الفرية التى تقول ان طه حسين وهيكل والعقاد هم وحدهم الذين أنشأوا الأدب العربى الحديث.

ولقد قدم هذا العمل أبعاد الحركة الأدبية وخاصة فى المغرب العربى بأقطاره الأربعة مما عدّ عملاً جديداً غير مسبوق، فضلا عن أنه قدم أكثر من ثلاثمائة أديب بينما كان المدعون يحاولون أن يقولوا أن الذين عملوا النهضة عشرة أدباء متجاهلين أولئك الأعلام الأبرار الذين لم تكسبهم السياسة والحزبية شهرة براقة وحتى لو كان هذا العمل بمثابة تسجيل للجهود، أفلا يكون مشابهاً لعمل « بروكلمان » وهل يجرؤ واحد منهم أن يتهم عمل بروكلمان بأنه عمل أرشيف ولكنها الأحقاد وكراهة تأصيل الأدب العربى ورده إلى جذوره الإسلامية وتحريره من شبهات التغريب والغزو الثقافى التى ساقه إليها طه حسين وأتباعه.

إن الأستاذ كامل زهيرى هو تلميذ مخلص من تلاميذ الدكتور طه حسين وهو القائل عندما عولجت قضية الشعر العمودى كلمته المعروفة (نحن نريد أن نهدم القديم كله فلا يبق منه شيىء).

ثالثاً: (س) هل كان طه حسين، ملحداً، شيوعياً، عميلا للصهيونية؟

جـ: إننا لم نحاول اتهام طه حسين بشىء ما ولكنا حرصنا على أن نقدم الوثائق عن دقائق حياته ومواقفه وتحولاته. وإن الأمانة فى دراسة أى شخصية تستدعى تقديم كل ما يحيط بها من وقائع تعين على فهمها، وهذه الوثائق هى وحدها التى تقدم الحقيقة. والمعروف ان هناك أبعاداً كثيرة لشخصية طه حسين لم تكن واضحة ولم تكن موضوعة فى أيدى الباحثين، وبذلك كان حكمهم عليه من دونها ناقصاً أو مبتوراً، هذه الحقائق قد أعلنت فى وقتها ونشرت فى الصحف، فلو كانت غير صحيحة لما تردد الدكتور طه وحزبه وأتباعه من الرد عليها وتفنيدها وتكذيبها غير أنها مرت دون تعليق فإنما ذلك يعنى أنها لم تكن كاذبة وذلك شأن ما نشره الأستاذ محمد محمود بدير فى مجلة النهضة الفكرية أو ما ألقاه الدكتور على العنانى فى دار العلوم حول عقيدة الدكتور طه.

نحن لم نقل أن طه حسين كان ملحداً أو ترك دينه أوغير ذلك من الاتهامات ولكنا تركنا الوثائق نفسها تتحدث بل ولقد كنا فى الصف المعارض.

ليس الغرض من هذا العمل التشهير بكاتب ما أو إنسان ما فإن طه حسين بشخصه زائل ويزول ولكن المسئولية التى تقع على المفكرين المسلمين والتبعة المنوطة بالمصلحين هى أن يقدموا للشباب المثقف ما يحذرهم من تلك الآراء المسمومة المبسوطة فى كتب الدكتور طه حسين والتى ما تزال رائجة وستظل رائجة وقتاً طويلاً لأن هناك من يدافع عنها ويحتضنها ويتبناها ويجاهد فى سبيل إقناع الشباب المسلم بها.

إنما نحن نريد أن نضع أمام الشباب حقيقة موقف الإسلام من هذه الآراء جميعاً وكيف أنها مبطلة ومضللة.

رابعاً: (س) هل كان عملنا فى هذا الكتاب قاصراً على ترديد اتهامات قديمة وجهت إلى كتاب الشعر الجاهلى؟

جـ انهم يريدون طى قصة الشعر الجاهلى لأن الكتاب صودر وصدر بدلا منه كتاب آخر مجرد من الاتهامات التى رددها الدكتور طه للإسلام وللنبى والقرآن فى كتابه الأول ولكن هل كون أن الدكتور طه خضع للظروف فى هذه الفترة ورفع هذه السطور، هل يعنى أنه رجع عنها، الواقع أن ذلك لم يحدث فان محاولة الدكتور طه فى تعقب القرآن الكريم لم تتوقف فقد جددها فى أحاديثه مع طلبته على النحو الذى أورده عبد الحميد سعيد وعلى النحو الذى نشره المنجورى فى مجلة الحديث وعلى النحو الذى أوغل فيه بعد فى دراسته التى قدمها لمؤتمر المستشرقين وامتنع عن نشرها بالعربية فى صحف مصر حتى استطاع خصومه الحصول عليها ونشرها فى كوكب الشرق وتصدى للرد عليها الأستاذ مصطفى صادق الرافعى والعجيب أنهم حين ينكرون الحديث عن الشعر الجاهلى يعدونه فى عشرات من دراساتهم إنه حجر الرحى والعمل الكبير، والإنجاز الضخم الذى قدمه طه حسين والذى قام عليه العمل التغريبى كله

فى هدم القديم والقديم هنا بغير مواربة ولا شك يعنى الإسلام والقرآن، وذلك بالتشكيك فيهما، وجملة وجهة نظر طه حسين فى هذا الكتاب هو فصل الأدب العربى عن الفكر الإسلامى وذلك لتحريره من الضوابط والقيم الإسلامية ولدفعه إلى طريق الانطلاق إلى الكشف والاباحية ولتصويره بأنه لم يكن إلا أدب مجون وفاحشة وان زعمائه هم أبو نواس وبشار وغيرهم وحجب كل أصالة فى هذا الأدب والعمل على إنشاء أدب مصرى باللغة العربية يكون مستمدا من القصة الفرنسية الماجنة التى ترجمها طه حسين وشعر بودلير الفاجر الذى ترجمه طه حسين وبمذهب تين وبرونتير وغيرهم فى النقد الذى يصور الإنسان على أنه حيوان شهوة أو طعام، هذا هو هدف الشعر الجاهلى وكتاب الأدب الجاهلى قد قام بتحقيق هذا الهدف أما آراء طه حسين فى النبى والإسلام فقد أعادها طه حسين بعد اختفاء الشعر الجاهلى بصور أخرى فى مؤلفاته المتعددة ومع ذلك كله فاننا قدمنا فى هذا الكتاب فساد رأى طه حسين فى خمسة أو ستة من كتبه التى أصدرها بعد الشعر الجاهلى ولم نقتصر على هذا الكتاب المصادر.

مراجعة عامة

وبعد فنحاول أن نعقد هنا مراجعة عامة للآراء التى قدمها الكتاب السبعة فى مقالاتهم التى أشرنا اليها ومن أهمها ما نشرته مجلة الهلال :

أولا : إن طه حسين فى كتابنا هذا لا يحاسب من خلال كتاب واحد ، وإنما من خلال فكره كله ومن خلال مفاهيمه العامة التى تمثلها فلسفة واضحة كشف عنها فى بعض كتبه وفى بعض مقالاته خلال أكثر من خمسين عاماً وأخفى بعضها وراء سطوره ووراء تصرفاته .

وإذا كان هناك اتهام لطه حسين استخلصه من نقدوا الكتاب بأنه ملحد فإن هذا الإتهام لا يصدر عن كتاب الشعر الجاهلى وحده ولكن عن خيوط متعددة ، ونحن لم نحاسب طه حسين من خلال هذا الكتاب بعد أن أبدله بكتابه (فى الأدب الجاهلى) .

ثانيا : إن المساهمة التى أسهم بها طه حسين فى صياغة العقل العربى المعاصر وفى صياغة نظم التعليم فى المدارس والجامعات لم تكن أكثر من إذاعة الفكر الوافد وتطعيم الفكر العربى الإسلامى به ؟ وإذا كان دنلوب قد أدى دوراً خطيراً فى تغريب التعليم فإن دور طه حسين كان أشد خطورة ذلك إن هذه الشبهات كلها قد دحضت وانكشف زيفها وقد تحطمت جميعاً وبان عوارها وهو حى وقد شهد موكب هزيمتها :

١ ـ رأيه فى الشعر الجاهلى وما اتصل ما به من شبهات .
٢ ـ إحياء الأساطير فى كتابه على هامش السيرة .
٣ ـ ما ذكره عن المتنبى من انه منكور الأب و وصفه بأنه لقيط .
٤ ـ ما يتصل بالفتنة الكبرى ودفاعه عن اليهودى عبد الله بن سبأ .
٥ ـ فساد رأيه فى ابن خلدون .

٦ ـ احتقاره للعرب ووصفهم بأنهم مستعمرون كالانجليز والفرنسيين .

ثالثاً : لقد تبين أن مدرسة طه حسين قد ماتت وإلا فأين هم أتباع طه حسين : يقول رجاء النقاش إن الحملة التى تتجدد اليوم موجهة بالدرجة الأولى إلى الذين آمنوا بآراء طه حسين ومنهجه الفكرى فى وطننا العربى وهم كثيرون والواقع أن الذين دافعوا عن طه حسين لم يزيدوا على ثلاثة .

رابعاً : إن عبارة اتهام طه حسين بالإلحاد لم ترد فى كتابنا وإنما أوردها محرر الهلال ولكن ما اورده كتابنا هو مواقف طه حسين من القرآن ومن الإسلام ومن الرسول ﷺ وما نقلناه عن إسماعيل أدهم وإذا كان ما فعله طه حسين فى مهاجمة الإسلام وانتقاص رسوله واتهام القرآن بالوضع ليس إلحادا فماذا يمكن أن يسمى؟لاريب انه يسمى باسم أكثر خطورة وتكون كلمة الالحاد بالنسبة لهذا الوضع كلمة مؤدبة .

ولا ريب ان إسماعيل أدهم كان ثمره من ثمار المدرسة التى أقامها طه حسين وهى المدرسة التى سمح لها طه حسين ان تتحدث بعنف حيث يقف هو موقف صمام الأمن للمؤامرة كلها فلا يكشف كل أوراقه وإنما يدفع أمثال هؤلاء وهم كثر إلى الجرأة على الإسلام .

خامسا : إن من المراوغة حصر موقف طه حسين من القرآن بكتابه فى الشعر الجاهلى والواقع ان طه حسين جعل هذا الهدف قائماً أمامه يعالجه بين حين وحين ويمكن التأكيد بأنه لم يتوقف عن هذه الحملة فى أساليبها المختلفة ، ظاهرة وخفية ، عن طريق العلم وعن طريق القصص ، وأمامنا مذكرة الطالب التى قرأها الدكتور عبد الحميد سعيد تكشف موقفه بوضوح ، ثم نراه أشد وضوحاً فى محاضرته التى ألقاها فى مؤتمر المستشرقين عن الضمائر فى القرآن ، ثم نرى ذلك كله واضحاً فى كتابه (الشيخان) .

بل إن طه حسين كان يحدث أصحابه فى أحد مجالسه فى السنوات الأخيرة عن القرآن ويقول إنه لم يكن منقطا فكان يقرأ على وضع وعلى وضع آخر وقد راجعه فى هذا اللواء محمود شيت خطاب وكشف زيفه فى

مجلسه وعلى رءوس الاشهاد وكان هذا فى العمر الأخير الذى قيل زيفاً وكذباً أنه عاد فيه إلى الله وخرج عن خطيئة الصبا .

ويشير محرر الهلال إلى التوبة وللتوبة شروط وعلامات ودلائل وعلانية فأين هى ؟ انى على استعداد لأن أعترف بالخطأ إذا تبين أن هناك نصاً واحدا كتبه طه حسين يتراجع فيه عن كلمة واحدة من رأيه فى الإسلام أو القرآن أو الرسول وأتحدى !

لقد كان طه حسين من بين جيله كله أشد إصراراً على آرائه إلى آخر لحظات حياته ، لقد تراجع منصور فهمى وكتب وتراجع الدكتور محمد حسين هيكل وكتب وتراجع زكى مبارك وكتب وتراجع كثيرون إلا الدكتور طه والمسلم يرجع إلى الحق متى تبين له وإنى على استعداد أن أرجع عن رأيى هذا أمام أى دليل صحيح يكشف عن تراجع طه حسين ، أما تلك الكلمات التى كان يسرها لبعض أصحابه فإنها لا تقنع أحداً ولا تصلح فى مواجهة كتابات منشورة وفى أيدى الناس وما تزال تطبع حتى اليوم وتقدم للناس . اما التآمر على القرآن فتثبته أدلة كثيرة أهمها قوله أنه تلق فهم القرآن من المستشرق كازنوفا فى باريس وليس من الأزهر ومن أجل ذلك أحضر هذا المستشرق إلى مصر ليعلم طلبة كلية الأداب مفاهيم غريبة للقرآن ، هذه المفاهيم التى تقول بأن القرآن من كلام محمد وأنه قرآن مكى وقرآن مدنى .

سادساً : إن محاولة الدفاع عن طه حسين بالقول بأن القرآن ليس مرجعاً علمياً فى التاريخ القديم ، هذه محاولة مبطلة فان طه حسين الذى يشكك فى أى نص من نصوص القرآن ويفرق بين المفهوم المستمد من الدين والمفهوم المستمد من الحفريات على النحو الذى يرجح فيه الحفريات وينكر ما فى القرآن أمر يعرف علماء الإسلام معناه وموقف من يقول به ، هذا فضلا عن أن علم الحفريات قد لطم طه حسين وهو حى لطمة كبرى حين كشفت الكشوف الأثرية عن آثار إبراهيم فى الجزيرة العربية وآثار اسماعيل ابنه (إقرأ عبد الحميد جوده السحار : محمد رسول الله والذين معه) الجزء الخاص بإبراهيم ، فهل عاد الدكتور طه واعترف بخطئه ولكنه كان قد قدم

أساساً للفكرة اليهودية والصهيونية بإنكار رحلة ابراهيم إلى جزيرة العرب وبنائه مع إسماعيل الكعبة، هذه الكعبة التى زارها من بعد وسفح عندها دموع الندم ولكن كبرياءه الكاذب لم يسمح له ان يكون العالم الذى يقول أنه اخطأ عندما تبين له وجه الحق.

سابعاً: إن طه حسين أنكر أن القرآن نزل على سبعة أُحرف (وهى غير القراءات السبع) وله قصة معروفة فى سنواته الأخيرة مع الشيخ محمد الغزالى ومحاولة رجاء النقاش فى الدفاع عن طه حسين فيها مبطلة.

إن محاولات طه حسين فى الغمز للقرآن كلها تصدر عن خطة واضحة مقصودة هى توهين قداسته سواء بترديد عباراته حول كلمة سورة أو كلمة كتاب أو حروف افتتاحيات السور وهى مرتبطه بالخطة التى ألقاها على تلاميذه من نقد القرآن فى جرأة على أنه كتاب أدب وهى متصلة بدعوته إلى النظر فى الكتب المقدسة ونقدها والخطة واضحة وليست فى حاجة إلى دفاع.

ثامناً: إن مفاهيم طه حسين المادية والجبرية التى هى من أسس الماركسية والفكر المادى كله واضحة وضوحاً شديداً فى كتابات طه حسين منذ اتصل بالاستشراق وواضح ذلك جيداً فى رسالته (عن أبى العلاء) و مفهوم رجاء النقاش يلتق مع طه حسين فى هذا وكلاهما معارض لمفهوم الاسلام الذى لا يرى ان الانسان ظاهرة إجتماعية ولا يرى أن فردية الانسان مطلقة والذى يربط بين الفردية والجماعية فى الإنسان دون جبرية على الاطلاق ذلك ان الاسلام يقرر ارادة الفرد وحريته فى التصرف والعمل ويجعل مسئولية الإنسان فى حدود هذه الإرادة وهى مرتبطة بالالتزام الأخلاق والجزاء الأخروى.

ومسألة ماركسية طه حسين أو شيوعيته هذه مسألة واضحة ولا تحتاج إلى دليل، فقد كان طه حسين مؤمناً بالديمقراطية الغربية لصيقابها ولكنه كان حريصاً على ان ينشر الفكر المادى وكانت صلته بدوركايم وايمانه بمفهومه للدين من حيث قوله ان الدين لم ينزل من السماء وإنما خرج من الأرض هذه الصلة بدوركايم تكشف عن صلة طه حسين بالماركسية من حيث ان

دوركايم من أقطاب الفكر الماركسى ومن دعاته فى الفكر الغـربى والواقع انى لا أفرق بين مادية الفكر الغربى ومادية الفكر الماركسى لوضوح القاعدة الأساسية الجامعة بينها وهى التلمودية اليهودية التى صنعت كليهما ، صنعت الماركسية والرأسمالية أو كما قال أحد كتاب الغرب ان روتشلد وتروتسكى إنما يمثلان تموجات الفكر اليهودى .

ومفهومنا هذا واضح فى ان الاسلام جامع بين المادة والروح ولكنه ليس ماديا خالصا على النحو الذى يقوم عليه الفكر التلمودى اما ان طه حسين يسارى التفكير أو غربى التفكير فتلك اشياء لا أهمية لها بالنسبة لرجل يحمل قلما ويتوجه به اتجاه الريح والكسب والهوى ويحقق الغايات الكبرى التى عاهد أصحابه عليها ولهم عنده حارس ديدبان ، ومسئولية وحساب فى كل عام ولعل البعض يرجع احقاد طه حسين إلى فقر المنبت والأسرة ولكن الأمر ليس كذلك فقد عاش طه حسين حياة الباشوات ، والسادة منذ اتصل بالأحرار الدستوريين ولكن الأمر ليس أمر دعوة إلى حماية المستضعفين أو اشاعة العلم كالماء والهوى وإنما المسألة أبعد من ذلك وأعمق فهذه كلها مظاهر واستار تخفى الهدف الحقيق العميق .

تاسعا : إن انضمام طه حسين للوفد هو محاولة لاخراج طه حسين من الدائرة التى أغلقها على نفسه حين وقف من الإسلام موقف المعارضة ، وقد تبين للقوم ان هدفهم لم يتحقق ، فقد كانوا يريدونه اماما من أئمة الاسلام حتى تكون آراؤه من بعده حجة يؤخذ بها ومن هنا كان دفعه إلى أحضان الوفد من ناحية وإلى كتابة هامش السيرة من ناحية أخرى هى محاولة دفعه مرة أخرى إلى الاسلام ليكسب ثقة السذج والبسطاء ويستطيع أن يحقق عن طريق الجامعة ووزارة المعارف والثقافة والصحافة تلك الأهداف المنوطة به وتلك الآمال المعقودة عليه ومن الحق انه بعد ان رسخت قدمه فى الوفد استطاع تحقيق انجازات بعيدة المدى وكان دوره بعد معاهدة مونترو بالغ الأهمية فقد رسم الخطة إلى تغريب التعليم والتربية والثقافة فى كتابه (مستقبل الثقافة) وسرعان ما نيط به تنفيذ البرنامج فعمل مستشاراً ومراقباً ومديرا للجامعة ووزيرا للمعارف خلال فترة تمتد من ١٩٣٩ إلى

١٩٥٢ تقريبا فى خلال ثلاثة عشر عاما كان قد القى السموم إلى كل البرامج والمناهج على النحو الذى فضلناه فى صلب هذا الكتاب

اما مناورة الاستاذ رجاء النقاش فى الدفاع عنه فهى باطلة ومكشوفة.

رد خاص على آراء الأستاذ رجاء النقاش

إن خطأ الأستاذ رجاء النقاش الأول الذى أقام عليه بحثه كله هو وقوعه تحت تأثير طه حسين وعجزه عن فهم أعماقه النفسية ولذلك عذره بحكم السن فقد ولد رجاء فى بداية الأربعينات، وعايش تلك الفترة التى تألق فيها طه حسين فى ظل الوفد والجامعة والوزارة وتأثر به لأكثر من عامل ربما من ناحية الحزبية وربما من ناحية الاعتقاد الذى عاش عليه جماعة من المثقفين بأن طه حسين هو الذى فتح لهم الطريق للتحرر من كل تلك القيم التى يسخرون منها ويرونها من التقاليد أو القديم. وعيب رجاء أنه تصور طه حسين زعيماً أو بطلاً أو شخصية وثيقة الصلة بوطنها أو أمتها أو أنه من الغيورين على مجدها ومحتدها، هذه النظرة يكشف عن فسادها عشرات من الوقائع فى حياة طه حسين منذ يومه الأول إلى آخر أيام حياته فقد كان طه حسين ساخراً بهذه الأمة، وبقيمها وبدينها وببطولة تاريخها، مراوغاً، يلعب بكل شيء، وقد كشف كثير ممن كتبوا عنه عن هذه الخلة التى هى مفتاح حياته الأكبر، وكل ما فيه من خلال تبع لها، فهو أشبه برجل ينصب للناس فخاً أو يحفر لهم حفرة فى طريق ويختبىء لينظر حتى يقع فيه الناس فيضحك ويخرج لسانه ساخراً فإذا خوفته خاف وانطوى حتى يزول الخطر فإذا زال الخطر عاد إلى سخريته وأفخاخه ومؤامراته، وإذا كان قد عرف فى عصره كثير من الساخرين أمثال حفنى محمود أو فكرى أباظة أو غيرهم فإن طه حسين كان أشد من هؤلاء سخرية، فهى سخرية من ورائها هدف هو الهدم والهدم الدائم لكل القيم والسخرية بكل المثل، ومن يقرأ كتابنا هذا ينكشف له كيف زيف قيم الأخلاق فى الجامعة بين الأساتذة والطلبة، وبين الطلبة والمراجع، وفى أساليب البحث مما رواه تلاميذه وخاصته الدكتور نجيب البهبيتى، كيف أعلى من شأن الأهواء، وأفسد الحياة الجامعية ودفع

الشباب والشابات إلى الاختلاط والفساد ، وأقام الحفلات الراقصة فى البيوت وسمح للأساتذة الأجانب بإقامة الندوات وتشكيك الطلاب فى عقائدهم وفتح أبواب الحرية الأخلاقية إلى غايتها فكان لا ينجح ولايفوز ولايتقدم إلاهؤلاء الأتباع المنافقون الذين يتزلفون إليه وينتظرونه على باب سيارته ويقبلون يده ، ويسارعون إلى هواه ، ويقلدون أسلوبه وصوته ، ويكونون تلك الخلايا الخطيرة التى تعمل للتغريب والغزو الثقافى وتنطلق الى تحقيق غايته الكبرى التى عمل لها سنوات طويلة فى الجامعة ووزارة المعارف والمجمع واللجنة الثقافية والصحف وكل عمل عمل فيه ، فهو ساخر وحاقد وضليل لا يتوقف عن السخرية بالأزهر ورجاله وكل صاحب خلق وقد صرف من حوله من حافظوا على الأخلاق والقيم وأضرهم وحجبهم عن المناصب والأعمال .

هذه الصورة الحقيقية عن الدكتور طه حسين غابت عن الأستاذ رجاء النقاش فراح يتحدث عنه وكأنه زعيم أو علم أو بطل لا تجوز عليه الاتهامات والشبهات ولو أنه تعمق حياة طه حسين وتخلص من هواه الخاص سواء أكان حزبياً أو عقائدياً لوجد أنه كان رجلاً يعيش على المطامع ويتطلع إلى اتجاه الريح ويحب الشهرة ويطمع فى الدوى ويتطلع إلى الظهور ويحرص على ألا يمر يوم دون أن يذكره الناس ، فهو قلب بين الأحزاب والهيئات ، وآراؤه عجينة طيعة يشكلها كيفما يشاء ، وهو مع كل غاد ورائح ، ومع كل المطامع والأهواء التى تحقق له الشهرة والمال . وهو حريص على إرضاء أساتذته المستشرقين فهو يقدم لهم دائماً شيئاً جديداً يسمم به آبار الفكر الاسلامى ليرضوا عنه وليقدموه فى مؤتمراتهم ويرسلوه كل عام إلى أوربا ولولا الحرص على الايجاز فى البحث لقدمت وثائق وآراء تكشف عن جوانب من الصغار والتفاهة والنزول يترفع عنها الكثيرون وفى مفهوم الدكتور طه الذى يؤمن أساساً بمذهب المنفعة وبمبدأ اتخاذ أى أساليب مهما كانت فى سبيل الوصول إلى الغاية فإن كل شيء جائز ، أن يتصل بهذا الحزب أو ذاك ، وبهذه الهيئة أو تلك ، فقد كان قلبه يتحرق حقداً على الاسلام ومع ذلك فقد كان يطمع أن تكون له فى الاسلام زعامة ولذلك فلاضير أن يتصل بالكنيسة الكاثوليكية وأن يتصل بالشيوعية وأن يتصل بالماسونية وأن يتصل بالصهيونية وأن يكون تابعاً للفكر الفرنسى فترة وأن يرضى الانجليز وهو وزير للمعارف وأن يترجم شكسبير ، وأن

يرضى الأمريكيين فيكتب عن الأدب الأمريكي ، كل شيء يوصل إلى المجد الشخصي ويحقق هوى النفس ، ويعين على أن تضرب المعاول فى جدار الاسلام فإنه لديه سهل ومقبول ، ولقد اتفق معي الأستاذ رجاء النقاش فى مواقع كثيرة وحاول الاعتذار لطه حسين ولكنه فى المواقع الأخرى كان واقعاً تحت تأثير شبهة أن يكون طه حسين عظيماً أو بطلاً أو زعيماً يمكن أن يوضع فى صف الرافعى أو العقاد أو مصطفى كامل أو شكيب أرسلان أو عبد العزيز جاويش ، وهذا وهم واهم ، أما إذا كانت محاولة الدفاع عن طه حسين قد جاءت من ناحية الدفاع عن تلك المفاهيم التى يؤمن بها التقدميون ودعاة التجديد وهى معارضة تمام المعارضة للاسلام . أو تلك التفسيرات التى يحاولون أن يفسروا بها الاسلام ليكون المسلم ملحداً ومؤمناً ومسلماً وماركسياً ، وهى مفاهيم مرفوضة تماماً وقد خدعهم بها طه حسين ولم يعد فى الامكان خداعهم اليوم .

إن الخطر كله أن تظل آراء طه حسين الزائفة والمسمومة تعمل عملها فى الأجيال الجديدة ولذلك فقد كان من الضرورى أن نكشف عن شخصية هذاالرجل ونوضح خداعه ونفاقه وتردده وتغيره وتقلبه ليعرف شبابنا أن رجلاً مثل هذا لايمكن أن يقدم قيماً أصيلة ، وأنه احتمى فى سنواته الأخيرة بالوفد حتى يستطيع أن يقدم سمومه فى مختلف الميادين : الصحافة والثقافة والجامعة ووزارة المعارف وأنه كان أول من خرج على الوفد وأنه لم يكن وفيا لأصدقائه فى حزب الأحرار الدستوريين فإنه سرعان ما هددهم بأن يكشف أسرارهم هكذا كان الرجل مراوغاً شديد المراوغة لايقيم للقيم مكاناً فى حياته أو فكره لقد كان على الأستاذ رجاء النقاش ليكون صادقاً مع نفسه أن يتعرف إلى حقيقة طه حسين عن طريق عشرات من لصقائه الذين عاشروه وعرفوه وتعاملوا معه فى العمل وفى البيت وفى كل مكان وفى مقدمتهم الأستاذ فريد شحاتة الذى عاشره اربعين عاماً والدكتور ابراهيم اللبان والدكتور نجيب البهبيتى والذين عاشروه وتعاملوا معه فى جريدة الجمهورية وعشرات فى مختلف المواقع ليعرف أن الدكتور طه كان رجل هوى ومطامع ومصالح وأنه يحب فيبلغ غاية الحب ويبغض فيبلغ غاية البغض ، وأنه ساخر من كل القيم والمفاهيم والأخلاقيات حاقد على كل من يعرف بل لقد أخذت شخصيته العدوانية تبدو واضحة منذ سنواته الأولى مع قاضى القرية ومع أساتذة الأزهر ، ولقد شتم طه حسين أساتذته وهاجم دروسهم وعرض بهم وشكاهم الى لطفى السيد فى الجريدة ، ثم

عندما أعيد من البعثة كتب فى مجلة السفور مهاجماً لأسلوب دراستهم محقراً لهم ، معلياً لأسلوب جامعة باريس ، حتى كاد يفقد البعثة ولما عاد من بعثته أعلن أن من كان يعتبرهم أساتذته فى الماضى قد انتهى أمرهم أحمد زكى باشا ومحمد عبده والشيخ الخضرى ووجه الاتهام إلى شيخ العروبة وحمل على الشيخ الخضرى عندما حرر كتاب الأغانى من الشعر الاباحى حمله شديدة ضارية ، ولم يدع كاتباً فى مصر له شأن إلا وعرض به وهاجمه ، ورفض نشر آراء من خالفوه ، أو حاولوا تحرير مفاهيم الأصالة العربية والاسلامية ، وسعى لنقل الدكتور على العنانى والدكتور أحمد ضيف من الجامعة لأنهم كانوا أوسع علماً وأحرص على الكرامة العلمية ورفضوا موالاة مفاهيمه وأساليبه .

وهاجم ابن خلدون والمتنبي ومدح أبا نواس وبشارا واحتقر كل من تحدث عن الاسلام وتاريخه ، الرافعى ورفيق العظم وغيرهم ، ومدح كل من كتب عن الغرب وأشاح بوجهه عن الدكتور عثمان أمين عندما عرف فى باريس أنه يعد رسالة الدكتوراه عن محمد عبده وكان يتمنى أن تكون عن ديكارت وابتدع بدعة سيئة عندما فتح باباً للمستشرقين وجعل لهم رأياً فى الفكر الاسلامى واللغة والتاريخ ومدحهم ، وبلغ من جرأته أنه كان يقول فى قحة غريبة : إن هذا الرأى لا يرضى المستشرقين . والمراوغة فن افتنه كثير من الشعوبيين وخصوم الاسلام وفى مقدمتهم ابن عربى وغيره وهو فن أجاده طه حسين فله فى كل موضوع الرأى وضده فإذا ذهبت تأخذه بالتهمة قيل لك أنه فى بحث آخر قد عارض هذا الرأى » ، وتلك عملية خطيرة شديدة الخطورة وهناك « الجبن » فى اعلاء الآراء التى لا يستطيع أن ينشرها فى مصر فينشرها فى صحف أخرى كمجلة الحديث وغيرها وهناك « السرقة » من مجلات لا تصل إلى أيدى الناس كسرقة بحث مرجليوث عن الشعر الجاهلى من مجلة فرنسية تصدر فى الجزائر وهناك (الحقد) وحقده على شوقى واضح فى رأيه عنه وهناك (التمويه) بنقل إمارة الشعر بعد شوقى إلى الزهاوى ثم ردها إلى العقاد ثم إهدائها لمطران ثم يدعى بعد انه لم يعلن أمارة الشعر للعقاد .

والدكتور طه فى مجموع هذه الصور مثال للرجل « الساخر » الذى يخرج للناس لسانه ، ولا يقيم وزناً لشيء ولا لأحد وهو فى نفس الوقت الذى يغير أولياءه وأتباعه من حزب إلى حزب ومن صحيفة إلى صحيفة ومن فكرة إلى فكرة إنما يجد من سخرية الناس الشيء الذى يعجز عن رؤيته فى وجوههم وهو مراوغ فى دعوته

إلى الفرعونية ثم العـروبة بمفهـومها الضـيق ، وحـرصه على الإقليمية والمصرية والقومية الضيقة ، فى مواجهة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ودعوته إلى الديمقـراطية الغربية فى مواجهة الدعوة إلى النظام الإسلامى وكلامه عن الفهم الدينى اللاهوتى فى مواجهة مفهوم الاسلام الجامع .

هذا الرجل الذى عندما ركب البحر الى أوربا التى عمامته فى البحر بمشـهد من المودعين وأهدى قفطانه الى راقصة فرنسـية ، هذا النموذج الذى وصـفه الدكتور اسماعيل أدهم بأنه رجل يلعب بكل شيء ويلهو بكل شيء كالطفل العزيز ، هو نفسه طه حسين الذى يحتقر كل القيم ويتعامل مع الناس على هذا النحو ، يبدو فى كتاباته بصورة العالم وفى كتاباته فى اهاب الباحث فإذا أدار الناس وجوههم أخـرج لسـانه لهم سخرية بهم .

هذا الرجـل الذى أقام فكره كله على التشكيك واللا ارادية والتسـاؤل واثارة الشبهات ودون أن يقدم إجـابة واحـدة تملأ القلوب طمأنينة أو النفـوس رضـا ، وإنما هو المثير للشبهات المشكك فى كل القـيم الثوابت وقد عاش طـه حسـين حياته لايرى رأيا صـحيحا أو فكرة أصـيلة وإنما قدم شكوكاً وشـبهات واثارات تزلزل القلوب .

لقد ترك طه حسين الأحرار الدستوريين عندما أحس بأن « العـمل » يتطلب ذلك وهدد الأحرار الدستوريين على التو بعد أن تركهم بكشف أسرارهم فهـل مثل هذا يؤتمن أو له مسـحة من وفاء لأصـحاب الأمس ، وسرعان ما مدح من ذم من قبل وبعد أن أشبع سـعد غلول اتهـاماً واسـاءة عاد فرفع قدره وسماه العـظيم الذى ليس فوقه عظيم .

وكان الناس ينظرون إلى طه حسين فى هذه التقلبات ويبتسـمون سـاخرين ولكنه مع الأسف لم يكن يرى سخرياتهم ، ولو رآها لما اهتم بهـا فقـد كان ينفـذ مخـططاً ويندفع إلى غاية ، لقد وجد فى الوفد حماية له ومنطلقـاً للعـمل وعندما كتب الشـيخ محمد عرفه كتابه فى نقد آرائه وقال ما هو أشبه بكلمة معروفة عن آخر : أنا الوفد ، أنا الأمة ومن يعارضنى فهو خارج على الأمة .

أى عقيدة وايمان دخل به طـه حسـين الوفد وترك به حـزب الأحـرار ومن قبل دخل به حزب الاتحاد بل أى عقيدة وايمان كانت تحـرك طـه حسـين فى حياته كلهـا إلا مذهب المنفعة وأسلوب السخرية وطابع الحقد الذى غمر حياته كلها . لقد دخـل

طه حسين الوفد بعد أن تداعت أركانه وخالف الوفد وحاربه عندما كان فى القمة ان الأمر ليس أمر عقيدة أو ايمان وإنما هو أمر مصلحة ومدخل مؤمن ومنفذ ميسر لتحقيق الغايات التى قام عليها التغريب والغزو الثقافى والتى خدمها طه حسين أجل خدمة ، وهى مدرسة معروفة كانت تنظر الى المطامع والأهواء وتحرك أقلامها حيثما تجد المهاد اللين والعطاء المادى الجزل ولقد كان طه حسين بارعاً فى الهجاء أشد براعة وبارعاً فى المدح أشد براعة فهو صاحب قلم مباع لكل من يدفع وكان أكبر الدافعين هم رجال التغريب فله بهم صهراً ونسباً .

عقيدة طه حسين

تركزت مع معظم الكتابات حول عقيدة طه حسين وإيمانه بالله والاسلام ونفى تهمة الزيغ أو الإلحاد أو تغيير الدين عنه ، وعقيدة طه حسين واضحة معروفة فى عديد من النصوص الثابتة التى أملاها والتى لم يغيرها حتى آخر يوم من أيام حياته وهذه نماذج منها .

عن الدين

١ ـ ان الدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء ويأخذ الناس بالايمان بهما يثبت امرين لم يستطع العلم إلى الآن أن يثبتها ، فالعلم لم يصل بعد إلى اثبات وجود الله ولم يصل بعد إلى اثبات نبوة الأنبياء واذاً فبين العلم والدين خصومة فى هذين الأمرين يثبتها الدين ولا يعترف بهما العلم.

٢ ـ لقد ظهر تناقض صريح بين نصوص هذه الكتب السماوية وما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين وامر ثالث هو أعظم من الأمرين خطراً ذلك أن العلم لم يقف عند هذا اللون من الوان الخلاف وانما طمع فى أن يخضع الدين لبحثه ونقده وتحليله .

٣ ـ إن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر إلى الفقه وكما ينظر إلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة فى تطورها وتتأثر بما تتأثر به الجماعة ، اذن فالدين فى نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

إن الدين فى ناحية والعلم فى ناحية أخرى ، وان ليس الى التقائهما سبيل ومن زعم للناس غير ذلك فهو إما خادع أو مخدوع والحق أن المخدوعين كثيرون وهؤلاء المخدوعون هم الذين يحاولون دائما التوفيق بين العلم والدين » (السياسة الأسبوعية ١٧ يوليو ١٩٢٦ وما بعده) .

هذا هو رأى طه حسين فى الدين منقول من دوركايم ومدرسة الإلحاد والمادية الغربية وقد أورده هؤلاء عن دين العرب ونقله طه حسين ليصور به دين الإسلام .

عن القرآن

لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذى لايفرق فى نقده بين القرآن وبين أى كتاب دينى آخر يلاحظ ان فى القرآن أسلوبين متعارضين لايربط الأول بالثانى صلة ولاعلاقة مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بهيئات متباينة فمثلا نرى القسم المكى فيه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة كما نشاهد أن القسم المدنى اليثربى تلوح عليه امارات الثقافة والاستنارة وإذا دققتم النظر وجدتم القسم المكى ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة واقتضاب المعانى وقصر الآيات والخلو التام من التشريع والقوانين كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم الى اخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً. أما القسم المدنى فهو لين وديع مسالم يقابل السوء بالحسنى ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الاسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات » .

ولاشك إن هذا اثر واضح من اثار التوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على اسلوب القرآن ثم يقول طه حسين لتلاميذه : ليس القرآن إلا كتابا ككل الكتب الخاضعة للنقد فيجب أن يجرى عليه ما يجرى عليها والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائياً عن قداسته التى تتصورونها وأن تعتبروه كتاباً عادياً فتقولوا فيه كلمتكم ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب ويبين ما يأخذه عليه » .

وهذه النصوص منقولة نقلاً من محاضرات كازانوفا عن القرآن الذى ادعى طه حسين إنها أعظم من دروس الأزهر والتى تجدها فى كتاب جولدزيهر (العقيدة

والشريعة) قرأها طه حسين على طلبته ١٩٢٦ وعاد فنشر هذا الكتاب بعد أن رأس دار الكاتب المصرى اليهودية سنة ١٩٤٦ وهذه حجة فى وجه الذين يدعون ان طه حسين غير آراءه فى آخر حياته .

وهى فى مجموعها آراء تحاول أن تصور أن النبى تأثر باليهودية فى المدينة فضلا عن دعوى القول بأن القرآن من كلام محمد .

الرسول ﷺ

(يقول) ونوع اخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر واضافته إلى الجاهليين وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية اسرته ونسبه من قريش فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم وان تكون بنى هاشم صفوة بنى عبد مناف وان تكون بنى مناف صفوة بنى قصى وان تكون قصى صفوة قريش وقريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان وعدنان صفوة العرب والعرب صفوة الإنسانية .

ويقول فى مقدمة هامش السيرة : أحب أن يعلم الناس اننى وسعت على نفسى من القصص ومنحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسا إلاحين تتصل الاحاديث والأخبار بشخص النبى أو بنحو من الدين . وقد علق الدكتور محمد حسين هيكل على هذا النحو الذى نحاه الدكتور طه فقال : إن (فى الأدب الجاهلى) و (على هامش السيرة) موضعاً للمقارنة فكلاهما يتحدث عن العصر الجاهلى الذى سبق مولد النبى عليه السلام والذى عاصر هذا الأمر الكتاب الأول يهدم ما جاءت به الأساطير فى الجاهلية والكتاب الأخير يجلو هذه الاساطير وينمقها . لقد خطا فى هذا الكتاب إلى أدب الأسطورة المثيولوجية فى حياة العرب وفى سيرة النبى ، وهو إذ خطا هذه الخطوة يعلم أن كثيراً من هذه الاساطير التى روى إنما هى بعض الاسرائيليات التى روج اليهود بعد عصر النبى ﷺ بحقدهم على محمد لأنه حاربهم وأجلى الأكثرين منهم من بلاد العرب ومهد بذلك لإجلاء البقية الباقية بعد زمن قصير من وفاته متأثرين بحفيظتهم على المسلمين حفيظة جعلتهم يروجون الألوف من الاحاديث المكذوبة على النبى ومن القصص التى تنافى تعاليمه منافاة صريحة فما عسى يكون هذا الدافع القوى الذى دفع طه الى هذا التطور فلم يجد بدا من الاذعان له ومن صياغة هذه الاساطير . لذلك استبيح طه العذر ان

خالفته فى اتخاذ النبى وعصره مادة لأدب الاسطورة . وقال يجب فى رأيى أن لا يتخذ مادة لأدب الأسطورة وطه يعلم أكثر مما اعلم ان هذه الإسرائيليات إنما أريد بها إقامة اساطير مثيولوجية اسلامية لإفساد العقول والقلوب من سوار الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه ولقد كانت هذه غاية الاساطير التى وضعت عن الاديان الأخرى . وفى نطاق مفاهيم العقيدة فى كتابات طه حسين : قوله : ان الإنسان يستطيع أن يكون مؤمنا وكافرا فى وقت واحد ، مؤمناً بضميره وكافراً بعقله ، فإن الضمير يسكن الى الشىء ويطمئن اليه فيؤمن به أما العقل فينتقد ويبدل ويفكر أو يعيد النظر من جديد فيهدم ويبنى .

وفى ضوء هذه الركائز التى صور بها طه حسين عقيدته ومفهومه للدين والرسول والقرآن نستطيع أن نواجه تلك العبارات التى صاغها الأستاذ عبد المنعم شميس وما أورده الأستاذ رجاء النقاش وما يقوله كل الذين خدعتهم كلمات طه حسين حين قال انه يستمع إلى محطة القرآن الكريم فى سنواته الأخيرة ، ذلك لأن مفهوم طه حسين للإسلام نفسه فاسد من الجذور ، فهو يفهم الإسلام كما علمه اياه كازانوفا ودوركايم ، مجموعة من التراتيل ومفهوماً لاهوتياً خالصاً على النحو الذى يفهم به هؤلاء دين الغرب وآية فساد مفهوم طه حسين للاسلام أنه ينكر انه منهج حياة ونظام مجتمع ، ولا يراه إلا دين عبادة قائم على العلاقة بين الانسان وربه ، وفى ضوء هذا يمزق وجوده إلى قسمين قسم يؤمن بالشئ وقسم ينكره ، وذلك موقفه من القرآن : فهو فى مجمل آرائه يراه كالكتب المقدسة من عمل الانبياء وكتابات الرسل وفكرة ربانية القرآن عنده غامضة شديدة الغموض ، وهو فى كل هذه المفاهيم معارض تماما لعقيدة الإسلام التى تربط بين العقل والقلب فى اتجاه واحد وهذا التمزق والانشطار هو مفهوم لاهوتى لايقره الإسلام ولا يرضاه . وعباراته التى أوردناها عن الاسلام والقرآن ومحمد لم يغيرها طه حسين بعد ، وهى توحى بأن عقيدته مضطربة وإذا كان طه حسين كما يعده بعض الناس قد عاد إلى الإسلام فإنما كانت عودته إلى هذا المفهوم : مفهوم الدين اللاهوتى الذى يقوم على العبادة وحدها وليس على الايمان بالاسلام دنيا ومنهج حياة فهو يرى الإسلام ديناً بمفهوم المسيحية أو اليهودية الذى تعلمه هناك ولعل أخطر ما فى هذا المفهوم تطبيقه فقد كان طه حسين معارضاً لتطبيق الشريعة ، خصياً لما ورد فى الدستور من أن دين الدولة هو

الإسلام وله فى ذلك بحث مطول نشره فى مجلة الحديث الحلبية أنحى فيه باللائمة على هذا النص وأنكره وعارضه وهو يعتصم بالديمقراطية والمصرية الاقليمية فى مواجهة مفهوم الإسلام الجامع وعندما ارتفعت الدعوة إلى تقنين الشريعة الإسلامية ١٩٣٩ ذكر الناس بمعاهدة مونترو التى التزمت فيها مصر بالقانون الفرنسى وكان حريصاً على مهاجمة الاسلام من حيث هو قوة ملزمة عن طريق الأزهر تحول دون ظهور الدعوات الهدامة ، وكان موضع الاتهام بأنه يروج لأفكار معارضة للعقيدة الصحيحة ، وكان موقف الإسلام ان كل إنسان حر فى أن يعتقد ما يشاء ولكنه يحرم ان يذيع به ويفتن الناس.ولما كانت مهمة طه حسين هى اذاعة هذه الشبهات فقد كان حريصا على أن يحطم هذه الضوابط والقيود ، وكان موقفه منها موقف الثعلب الماكر إذا رأى عيناً حمراء تخفى وادعى الإسلام فإذا وجد الجو مناسباً عاد ينفث آراءه وسمومه .

إن مقال طه حسين (بين العلم والدين) الذى نشره فى مجلة الحديث عام ١٩٢٧ هو بمثابة تقرير كتبه الدكتور إلى اساتذته عتاة التغريب ليكشف لهم عن الخطر الذى يواجهه تحت مادة دين الدولة الرسمى الإسلام وفيه يكشف مفهومه للإسلام بأنه لا يزيد عن أن يكون صلاة وصياما واحتفالا بالمولد النبى والأعياد الرسمية واطلاق المدافع فى رمضان وقيام المحمل الخ . .

أما بالنسبة للنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فانه يدعو مصر الى اعتناق النظرية الغربية ويرى انه لاسبيل غير ذلك .

ويبق بعد ذلك موقف طه حسين من الطواف حول الكعبة وبكاءه ونحيبه فيما يروى الشيخ امين الخولى عام ١٩٥٢ ولذلك تفسيرات واضحة : اما أن الدكتور طه حسين تذكر ذنبه حين انكر وجود ابراهيم وإسماعيل وقد وجدها حقيقة حين وقف امام الحجر الأسود ، وربما كان ذلك جزءاً من المسرحية التى أريد بها القول بأنه عاد الى الإسلام ليكون أكثر قدرة على الخداع والتغرير بالعقول . أو أن طه حسين كان قد غير وبدل ، أو انحرف فى دخيلة نفسه ، مما لم تعرفه أو مما أشار إليه فى بعض مواضع كتاباته ، فهو هنا يريد أن يسلم نفسه إلى عقيدة هى فى مفهومها لاهوتية وليست إسلامية بمعنى أن الإسلام دين ونظام مجتمع . وعلى كل حال فإن الأمور مرهونة بنتائجها ، فما هى الآثار التى بدت فى كتابات طه حسين بعد زيارة

الكعبة مما يدل على أنه غير منهاج فكره أو حياته ؟ لا شيء ان كل الكتابات التى نشرها بعد ذلك كانت سائرة فى طريق المراوغة والتشبث بالحكام والتملق والنفاق وظل مفهومه فيما أورده من قبل عن الإسلام كما هو ، الكتب تطبع ولا يدخل عليها أى تعديل ولا يرفع منها أى عبارة موحية بالشك . ولا نقول أن تلك دموع التماسيح ولا نقول انه كان يسخر من هذه الأمور ويراها طقوسا ، أما تلك العبارات التى رددها فقد سمعها من المطوف الذى طاف به وربما كان قد قرأها فى أول حياته ، وهى على كل حال سهلة هينة لانها توزع فى كتب بكل اللغات تباع امام المسجد الحرام بقرش واحد !

هل غير الدكتور طه آراءه

ان الدفاع عن طه حسين من بعض عارفيه ومريديه وكل من كان له عليهم فضل أو لهم به صلة هو من حقهم ولكن المعادلة الصعبة هى أن المسئولية الأخلاقية أمام الأجيال هى أكبر بكثير من العاطفة الفردية والهوى الشخصى.

إن هؤلاء القوم ما كادوا يرون هذه الصورة التى كشفت حقيقة طه حسين تنشر على الناس حتى بادروا إلى القول :

لقد غير الدكتور طه آراءه فى آخر حياته.

لقد تراجع الدكتور طه عن أخطر آرائه.

والقصة تسمعها من الكثير ولكن هل هى صحيحة حقاً؟ والواقع أن هناك ما يمكن أن يقوله هؤلاء : إن الدكتور طه كتب على هامش السيرة وبه كفر عن الشعر الجاهلى وكتب كتابه الشيخان (عن أبى بكر وعمر) وبه كفر عن مستقبل الثقافة.

وذلك كله خداع وباطل فإن الدكتور طه لم يغير آراءه مطلقاً لأنه كما يقول الدكتور محمد نجيب البهبيتى كان له حارس ديدبان يحول بينه وبين ذلك ، هذا الحارس مقيم فى بيته يلفت نظره دائماً إلى الخط المتفق عليه ، ولكن الدكتور طه حسين غير أساليبه ووسائله وبعد أن كانت أساليبه هى الهجوم على الاسلام اصبحت تقوم على ترضى الاسلام ظاهرياً ودس السم على مراحل خلال البحث.

ولا يقل السم المدسوس فى كتاب (الشيخان) عن السم المدسوس فى هامش السيرة أو فى الشعر الجاهلى ولكن القوم لا يعلمون وسائل اخفاء الشبهات . ان الذى يتردد على الألسنة هو ـ أن كثيرين واجهوا طه حسين برأيهم فى : الشعر الجاهلى ، أو هامش السيرة أو مستقبل الثقافة وقال لهم : لو استقبلت من امرى ما استدبرت ما كتبت الشعر الجاهلى ، أو قوله اكتم عنى ، أو قوله للسفير المسلم احمد رمزى عن كتاب مستقبل الثقافة : انى متفق معك على أن فى الكتاب اخطاء كثيرة ، ذلك هو اسلوب طه حسين المرن الماكر الخادع الذى لا يواجه الناس بالمعارضة أو الهجوم ، ولكنه يلين حيث يرى ان صاحبه واع لسمومه ، فإذا وجد من يجهل لم يمتنع عن خداعه وقصته مع اللواء محمود شيت خطاب موجودة فى قلب هذا الكتاب ومعروفة أما القول بالتراجع فإن هناك من الأدلة الكثير الذى يكذبه :

أولا : إن اسلوب التراجع معروف ، هو أن يعلن الكاتب أنه كان يقول بكذا ثم تبين له سوى ذلك ، وان يوقف على الفور ماله من مؤلفات فى هذا الصدد.

ثانيا : أن يعلن انه اتخذ هذا الاسلوب كوسيلة للعمل ثم تبين له أنه لا ينتج وأنه تحول عنه

ومثل الحالة الأولى الامام الأشعرى ومثل الحالة الثانية الدكتور محمد حسين هيكل فهل تراجع طه حسين حقا عن رأى من آرائه وهو حى، واعلن ذلك؟ ذلك ما لم يحدث وهل يكفى ان يتراجع طه حسين عن رأى أو آخر فى مساره خاصة مع صديق دون ان يوقف هذا الرأى عن الذيوع والانتشار. ان ذلك لا يكفى، بل ان هذا يؤكد اصرار الدكتور طه على الرأى وحرصه على أن يذيعه فى الناس فيفسد به مزيداً من العقول والقلوب، لقد اشار الأستاذ جابر رزق فى مقاله الذى نشرته مجلة الاذاعة ان طه حسين "عدل" رأيه فى الشعر الجاهلى بعد أن قرأ كتاب الدكتور أحمد الحوق "الحياة العربية فى الشعر الجاهلى" وقال ما كنت أعلم هذا كله وقال له الأستاذ ابراهيم مصطفى:

لماذا لم تعلن رجوعك عن ارائك؟ فابتسم طه حسين وقال له: لا. لا. لا.

وهناك واقعة حدثت للأستاذ محمد بهجت الأثرى: فى منزل فخرى البارودى فى دمشق والمشهد من بدوى الجمل وكانت المحاولة هى كشف زيف الدكتور طه فى ادعائه أن النابغة الذبيانى شخصية مخترعة اخترعها الرواه وفى هذه الليلة وافق طه على وجود شخصية النابغة الذبيانى وأنه شخصية حقيقية وقال:

- أيوه هو كذلك.

وهناك رواية سعيد الأفغانى الذى قال ان طه حسين اتفق معه على إلقاء محاضرة فى دمشق موضوعها هكذا:

(كان قرر فى كتابه حديث الأربعاء ان الحجاز كان مصدر المجون والأدب الماجن وقد ظهر له الآن أن ذلك كله (كلام فارغ) وأن البلاط الأموى بدمشق هو مصدر هذا المجون) ثم ألغى موضوع المحاضرة لأن الاتهام انتقل إلى دمشق.

ولكن هل توقف طه حسين عن آرائه؟ هل حدث تلاميذه بشىء من هذا التراجع؟ إن ذلك ظل قاصراً على مسمع عدد قليل جداً من أصدقائه.

هذا شىء وهناك شىء آخر، إن بعض مقالات الدكتور طه التى نشرها فى أول الشباب وفيها اراؤه الجارحة عاد فجمعها فى مؤلفات صدرت فى آخر حياته ومعنى هذا هو اصراره على تلك الاراء وانه لم يتنازل عنها أما القول بأن كتبه على هامش السيرة أو الفتنة الكبرى أو الشيخان هى تراجع عن ارائه السابقة وتحول الى الاسلام فذلك قول ساذج وقد كشفنا فساده فى هذا الكتاب ونضيف بأنه كانت هناك مؤامرة وفشلت ترمى إلى تنصيب الدكتور طه إماما للإسلام وقد غضب القوم عندما هاجم الإسلام بعنف فى المرحلة الأولى، وطلبوا إليه أن يدخل الإسلام من باب آخر حتى يمكن أن تكون اراؤه حجة على المسلمين من بعد فى فتوى ضالة على النحو الذى حاول به أن يتحدث فى مؤتمر الحوار بين الاسلام والمسيحية وهو حوار مشبوه

ولكن آراء طه حسين التى قدمها فى هذا المؤتمر لم تلبث أن أصبحت حجة من بعد ووصفت بأنها مبادرة طيبة ومقدمة لما قام به البعض بعد ذلك فى طريق محفوف بالمخاطر والشبهات.

لقد غضبت الجماعة عن آرائه الأولى فى الشعر الجاهلى والدين والعلم وغيره فقد كانوا يحاولون أن ينصبوه اماما، وقال بعض مؤرخيه إن آراء طه حسين هى بمثابة "اجتهاد" أو هكذا فهم الاب كمال قلته ممن رجع إليهم كما أشار فى كتابه.

وكانت الخطة أن يعود طه حسين الى الإسلام فى ضجة ضخمة واختاروا لها وسيلة وخطة: أما الوسيلة فهى كتابه هامش السيرة أما الخطة فهى الانضواء تحت لواء حزب الأغلبية الوفد لتكون قدرة طه ونفوذه أقوى فى تحقيق الأهداف المرسومة.

ولقد خدع كتاب على هامش السيرة كثيرين وظنوا أنه دعوة حارة إلى الدين وخفى عليهم جانب السخرية والتهكم الواضح فيه والذى كشفه الرافعى منذ اللحظة الأولى.

أما الفتنة الكبرى فإنه محاولة جرئية لتبرئة اليهود من فتنة (عبد الله بن سبأ) وهى فتنة ذات جذور عميقة فى تاريخ الإسلام فأراد طه حسين أن يخدم اليهودية العالمية بعمل آخر يضاف إلى قولته فى ابراهيم واسماعيل، وفى كتابته عن قصة اليهود فى ألمانيا وأوربا ويتصل ذلك بإصدار مجلة الكاتب المصرى ومحاضراته فى الدور الأسرائيلية فى القاهرة والأسكندرية وهناك الوثيقة التى تدحض كل الشبهات وهى حديثه مع مجلة الأثنين التى كانت تصدرها دار الهلال والاتهام موجه فيها صراحة إلى الدكتور.

[خـــاتمة]

هذا هو الرجل الذى حاول البعض الدفاع عنه ، وما اعتقد أن احدهم كان مضللا فى شأن الرجل ولكن لأن هواهم كان مع دعوته وخلقه واتجاهه والتيار الذى يتحرك فيه فإنهم إنما كانوا يدافعون عن وجود يخشون انهياره ودماره . لقد كانت محاولة يائسة لانقاذ ما يمكن انقاذه من أثر تلك القنبلة التى انفجرت فى قاعدة التغريب فزلزلت هذا الوجود وحطمت دعائمه وعصفت بأوليائه وجملة القول أن الزمن قد تجاوز آراء طه حسين وهو حى وماتت كلها بين يديه وحطم رجال الاصالة وحركة اليقظة مفاهيمه واحدة بعد اخرى قبل أن يموت ذلك لأن هذه الاراء كانت مرتبطة بمذاهب متغيرة ومفاهيم متحولة . أما ما كان موضع هجومه فرتبط بالقيم الثابتة الربانية التى سوف تجد على مدى الأزمان والعصور من يدافع عنها ويكشف زيف الذين يسممون آبارها ويفسدون نقاءها وطهرها .

لقد سقطت نظريته عن الفرعونية ، وعن الخلاف بين العلم والدين ، وعن ابن خلدون ، وعن الشعر الجاهلى وعن احياء الاساطير فى سيرة النبى وعن افساد سيرة الصحابة وانكار شخصية عبد الله بن سبأ ، وظهرت عشرات المؤلفات والدراسات والأطروحات الجامعية التى كشفت ذلك .

ونحن لا نقدم هذه المحاولة إلا لنكشف فساد هذه الأراء التى ما زالت منشورة فى مؤلفات تطبع وتنشر على أوسع نطاق ، وكل ما عرض له أصحابنا فى تساؤل ماكر موجود بين دفتى الكتاب ، وكل ما نحاول ان نقرره فإن لدينا عليه الدليل ومعنا الوثائق وما يزال لدينا الكثير مما سنقدمه فى دراستنا المستوعبة الكبرى (طه حسين : مفكراً وأديباً) ومع ذلك فنحن لا ندعى العصمة فالعصمة لله وحده ونقبل أى نص موثق يكشف عن أن الدكتور طه حسين تراجع عن رأى من هذه الأراء ونعود إلى الحق دائما ونسأل الله أن يجعل عملنا هذا مبرءاً من كل غرض وهوى ومطمع وخالصاً لوجهه الكريم .

وقائع البحث

* * *

رقم الايداع ٥٦٢٤ / ١٩٧٧

الترقيم الدولى ٠ــ٢٠ــ٧٠٥٢ــ٩٧٧ ISBN

دار النصر للطباعة الإسلامية

١٢ نشاطى - شبرا مصر

ت ٩٧٠٢٢١